المؤرخ العربي

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

٢١

العدد الحادي والعشرون

١٩٨٢

مجلة
المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الحادي والعشرون
١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

محتويات العدد ٢١/ ١٩٨٢
من «المؤرخ العربي»

اللجنة الاستشارية

١ - **الدكتور حسين أمين** / الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب، رئيس تحرير المجلة.

٢ - **الدكتور مختار العبادي** / أستاذ في قسم التاريخ - الاسكندرية.

٣ - **الدكتور يوسف فضل** / مدير معهد الدراسات الافريقية - الخرطوم.

٤ - **الدكتور عبد الأمير محمد أمين** / أستاذ في قسم التاريخ - بغداد.

٥ - **الدكتور محمد زنيبر** / رئيس قسم التاريخ - جامعة محمد الخامس.

٦ - **الدكتور عبد الكريم غرايبة** / وكيل الجامعة الاردنية.

٧ - **الدكتور عبد القادر زبادية** / رئيس قسم التاريخ - جامعة الجزائر.

٨ - **الأستاذ ابراهيم البغلي** / مدير الآثار والمتاحف - الكويت.

٩ - **الأستاذ شايف عبده سعيد** / رئيس قسم التاريخ - جامعة عدن.

١٠- **الدكتور عبد المالك خلف التميمي** / قسم التاريخ - جامعة الكويت.

١١- **الأستاذ سالم الشيباني** / وكيل جامعة قاريونس - بنغازي.

١٢- **الدكتور عبد الله يوسف الشبل** / أمين عام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

المقدمة

عندما يصل هذا العدد من مجلة المؤرخ العربي إلى القارىء الكريم تكون قد مرت على الحرب العربية الفارسية أكثر من سنة ونصف السنة وتكون الأمة العربية قد قدمت مزيداً من الضحايا في سبيل الحفاظ على عزتها وكرامتها ضد الطامعين فيها والعابثين بمقدراتها غير أننا واثقون بأن الإنسان العربي سيحقق المزيد من الانتصارات على كافة الجبهات ويكون العراق الحبيب قد أدى دوره المشرف تجاه الأمة العربية المجيدة.

وفي الجبهات الاخرى نشهد أنماطاً مختلفة من الصراعات بين أنصار الوحدة والتماسك وأتباع الأجنبي الداعين إلى التفكك والباثين لبذور الفرقة غير أن منطق التاريخ يدعونا للإيمان جميعاً بأن الأمة العربية منتصرة في هذه الجبهة أيضاً. فليس من خلاص لأمتنا إلا بوحدتها وتماسكها ولا مجال للطامعين فيها إلا من خلال شقوق التفكك والفرقة.

نسأل الله أن يسدد خطى المخلصين من أبناء أمتنا لتحقيق المزيد من الانتصارات ومن أجل جمع شملها وشد أزر المقاتلين المجاهدين فيها. إنه سميع مجيب.

الدكتور حسين أمين

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

لمحات من الصراع العربي ـ الفارسي قبل الإسلام

ـ القسم الأول ـ

إعداد

د. / منذر عبد الكريم البكر

(جامعة البصرة ـ العراق)

من المتعارف عليه أن العراق بقي تحت السيطرة الأجنبية بعد سقوط بابل سنة ٥٣٨ ق. م. على يد كورش الأخميني.

ولم يتحرر العراق إلاَّ بعد ظهور الإسلام واندحار الفرس على يد العرب في معركة القادسية سنة ١٥ هـ.

كما أننا نقرأ في كتبنا التاريخية أن العرب لم ينتصروا على الفرس في الفترة التي سبقت الإسلام إلاَّ في معركة ذي قار سنة ٦٠٤ م[١]. ويكثر الرواة العرب من الحديث عن أهمية هذه المعركة[٢]. وكأنها الانتصار الوحيد للعرب على الفرس وكأن العرب يتّحدون ولأول مرة ضد الفرس وينتصرون عليهم[٣].

---

(١) G.Rothstein: Dynastie der Lahmiden in al-Hira. P.123.

(٢) Ibid.

(٣) يرى روتشتاين أن أسباب الخلاف تكمن في أن الملك العربي في الحيرة مال إلى الاستقلال عن السياسة الفارسية. غير أن الملك النعمان بن المنذر وضع حداً لهذا النفوذ الفارسي على عرب الحيرة مما دفع الفرس إلى سجن النعمان ثم قتله ليمنعوا العرب من التفكير في الاستقلال عن الفرس وليضعوا لهم أجراء على الحيرة. راجع حول هذا الموضوع:

G. Rothstein: Op.Cit., pp.119-120.

وتتعاقب الروايات من السلف إلى الخلف، ويتغنّ العربي بالانتصار. ويذكر المؤرخون المحدثون ما ذكره الأوائل دون أن يتفحصوا الأحداث ودون أن يدركوا الأخبار عن ملوك حِمْيَر بل يرونها كما رآها العلامة ابن خلدون قصصاً موضوعة تسودها المبالغة والمغالاة وتطغى عليها الأسطورة[١].

غير أن الحقائق الأثرية والمعطيات التاريخية هي عكس ذلك، إذ ان هناك نقشاً يعرف عند علماء التاريخ باسم (نقش شرف الدين ٤٤) يحتوي على حقائق تاريخية مهمة تؤكد أن الملك شمريهرعش ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات قد حرر العرَاق من الفرس واستطاع أن يكوِّن دولة عربية موحدة شملت الجزيرة العربية والعراق وأن يحرر مدينة طيسفون من الفرس ويطردهم إلى ما بعد حدود الوطن العربي الشرقية.

حدث في بداية القرن الرابع الميلادي تغير جوهري في الحياة السياسية للعرب. إذ بدأ ملوك هذه الفترة يوحدون الأقاليم العربية المختلفة ويضيفون ذلك إلى ألقابهم لما لهذا من مغزى سياسي ودلالة قومية.

وأول ملك فعل ذلك، هو الملك شمريهرعش الثالث الذي حكم سنة ٣١٠ م[٢]. وقد ذكره الأخباريون بكثير من الإعجاب. يقول الهمداني: ... إن شمريهرعش هو شمر أي شمّر في طلب العزّ وأرعش الأبـدان بالرعب[٣]. كما ذكره حمزة الأصفهاني بـ«... أنه غزا المشرق وبلغ خراسان وهدم سور مدينة الصغد فقيل لها شمركيد أي شمر هدمها ثم عربت الكلمة إلى سمرقند»[٤].

وتشير النقوش العربية كالنقش الموسوم (Ja 660) إلى تغييرات إدارية مهمة

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٩ ـ ٣٤.

(٢) Waltar W. Müller: Eim Sabaisehe Gesandtschaft in Ktesiphon and seleukia P.163.

(٣) الهمداني: الإكليل ٢/٥٣.

(٤) الأصفهاني: تاريخ سني الملوك والأنبياء ص ١٠٨.

قام بها من أجل ترسيخ الوحدة والانطلاق بعد ذلك لضرب الطامعين في الأرض العربية. فعين موظفين كباراً للإدارة الجديدة بدرجة (كبير)[1]، لضرب طبقة «الأقيال»[2] التي تمثل بقايا النظام العشائري في البلاد. وهذا يدفعنا إلى القول بأن الملك قام بضرب القِيَم البدوية وأحلَّ القيم الحضارية محلها، ليوحد العرب ضمن هذا الأسلوب المدني والتقدمي آنذاك وينطلق بعد ذلك لضرب الطامعين والمعتدين على الأرض العربية وهذا ما يوضحه النقش التالي:

يعرف النقش لدى علماء التاريخ بنقش (شرف الدين ٤٤) ويتألف من **٢١ سطراً:**

(١) A. Jamme: Sabaean Insctiptions, P.372.

(٢) محمد عبد القادر بافقيه: تاريخ اليمن القديم، ص ١٤٤.

1. rymn/ḏḥzfrm/wʿnnn/hqny/ʾl
2. mqh/ṯhwn/bʿl/ʾwm/ṣlmn/ḏḏh
3. bn/[ḏš] fthw/ḥmdm/bḏt/ḫmrhw/ʾ
4. [tw/b]n/ḏshrtm/bwfym/wmhrgtm/
5. [wsb]ym/wġ:mm/bkl/sbʾt/šwʿw/
6. mrʾhmw/šmr/yhrʿš/mlk/sbʾ/wḏ
7. rydn/wḥḍrmwt/wymnt/wḥmdm/b
8. [ḏt/]ʾtw/bwfym/bkn/blthw/mrʾ
9. [h]w/šmr/yhrʿš/bʿbr/mlkm/bn/k
10. [ʿb]m/mlklʾsd/wsbʾ/ṯty/sbʾty
11. [n/]wwzʾ/mẓʾ/ʿdy/qṭwṣf/wkwk/m
12. mlkty/frs/wʾrḍ/tnḫ/wḫmrh
13. w/ʾlmqh/ʾtw/bwfym/whfšḥn/b
14. [n/]kl/ḏblthw/mrʾhw/wḥmdm/b
15. ḏt/ʾtw/bwfym/bn/hgrn/ṣʿdt
16. m/bʾrḍ/ḫwln/bkn/wqhhw/mrʾ

17: hw/šmr/yhrʿš/lʿqb/bhw/ʾrbʿy/
18: ḫryftm/wḫmrhw/ʾlmqh/ʾbrq/
19: ṣdqm/wslmm/bkl/ḫryft/ʿqb/b
20: hw/wlwzʾ/ʾlmqh/šrḥ/wmtʿn/
21: ʿbdhw/rymn/ḏḥzfrm/wʿnnn/

شکل ــ ۱ ــ

النقش بالحروف العربية:

١ ــ ريام/ ذحزفرم/ وعنن/ هقني/ ال
٢ ــ مقه/ ثهون/ بعل/ اوم/ ضملن/ ذذهـ
٣ ــ بن/ [ذش] فتهو/ حمدم/ بذت/ حمرهو/ ا
٤ ــ [ثو/ب] ن/ ذ سهرتم/ بوفيم/ ومهر فتم/
٥ ــ [وسب] يم/ وغنموم/ بكل/ سبأت/ شوعو/
٦ ــ مرئهمو/ شمر/ يهرعش/ ملك/ سبا/ وذ
٧ ــ ريدان/ وحضرموت/ ويمنت/ وحمدم/ ب
٨ ــ [ذت/] أتو/ بوفيم/ بكن/ بلتهو / مرأ
٩ ــ [هـ] و / شمر / يهرعش / بعبر / ملكم / بن / كـ
١٠ ــ [عب] م/ ملك أسد/ وسبأ/ طتي / سبأتي
١١ ــ [ن/] ووزأ/ مز أ/ عدي/ قطوسف/ وكوك/ م
١٢ ــ ملكتي/ فرس / وارض/ تنخ/ وخمره
١٣ ــ و / المقه / اتو / بوفيم / وهفشحن / ب
١٤ ــ [ن/] كل/ ذبلتهو/ مرأهو/ وحمدم/ ب
١٥ ــ ذت/ أتو/ بوفيم/ بن هكرن/ صعدت
١٦ ــ م / بأرض/ خولن/ بكن/ وقههو/ مرأ
١٧ ــ هو/ شمر/ يهرعش/ لعقب/ أربعي
١٨ ــ خريفتم/ وخمرهو/ المقه/ ابرق
١٩ ــ صدقم/ وسلمم/ بكل/ خريفت/ عقب/ ب
٢٠ ــ هو / ولوزع / المقه / شرح / ومتعن /
٢١ ــ عبد هو/ ريمن/ ذحزفرم/ وعنن

شكل ــ ٢ ــ

يشير صاحب هذا النص بعد أن يذكر اسم الإله إلى أن الملك شمريهرعش وصل إلى العراق ودحر الفرس وطردهم من العراق. والغريب أن الملك يكتفي بذلك ويعود، وهذا واضح من السطر الحادي عشر والثاني عشر من النص:

١١ ــ [ن/] ووزأ/ مزأ/ عدي/ قطوسف/ وكوك/ م

١٢ ــ ملكتي/ فرس/ وارض/ تنخ/ وخمره

وقراءتها كما يأتي:

١١ ــ وإلى أبعد من ذلك يكتفي (الملك شمريهرعش) بالوصول نحو قطوسف (طيسفون) وكوك (سلوقية).

١٢ ــ وكلتاهما مدينتا الملك الفارسي ووصل إلى أرض تنوخ[١]. وقد ظن بعض الباحثين أن (قطوسف) هي مدينة القطيف في الأحساء وهذا يعني أن الملك وصل إلى الخليج العربي[٢].

غير أن القراءة الحديثة لهذا النقش أثبتت أن (قطوسف) هي مدينة طيسفون.

لا نعرف أصل هذا الاسم[٣]. ولا يحتمل أن يكون هذا الاسم فارسياً ولكن يحتمل أن يكون اسمًا عربياً يلفظه الفارسي طيسبون والأرمني طسبون واللاتيني (Thesiphonia)، أما العربي فيلفظه طيسفون[٤]. وقد لاحظ ياقوت أن أصل الاسم هو طوسطون فعرب طيسفون[٥] ويعتقد (Muller) أن الشكل

---

(١) Walter W. Müller: Op.Cit., P.157.

(٢) H. Von Wissmann: History of Ancient Himayr P.487.

(٣) Walter W. Müller: Op.Cit., P.161.

(٤) Ibid.

(٥) Ibid، وياقوت: معجم البلدان ٣/ ٥٧٠ ط لايبزك.

السامي لكتابة اسم المدينة يبدأ بالحرفين (ك ط) ولهذا يفترض (Muller) أن اسم هذه المدينة كطيسفون [١] .

أما (كوك) فهي مدينة سلوقية التي تقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة في الجهة المقابلة لمدينة كطيسفون. وكانت في القديم نقطة مواصلات مهمة لطرق التجارة وللقوافل.

إن اسم المدينة (كوك) ليس فارسي الأصل وإنما هو آرامي. ولهذا، فإن اسم (كوك) في هذا النقش هو اسم لمدينة وهو الهدف الآخر في هذه الرحلة السبائية ولهذا فإن (قطوسف/ وكوك) هما كطيسفون وسلوقية المدينتان الأختان على نهر دجلة [٢] . وقد عرفتا في العصر الإسلامي باسم المدائن.

أما الطريق الذي سلكه الملك فهو ذلك الطريق الذي يصل إلى وسط بلاد ما بين النهرين ويجب أن يكون نفس الطريق الذي يصل إلى الخليج العربي أولاً ثم بعد ذلك إلى مصب نهري دجلة والفرات. ويبدأ الطريق من نجران حيث يتفرع عن طريق البخور الى وادي الدواسر ــ الأفلاج ــ اليمامة ــ جرها على الخليج العربي [٣] . ونهاية هذا الطريق في عصور ما قبل الإسلام البصرة. وكان الطريق من نجران إلى البصرة هو طريق الرضراض [٤] . وهناك طريق آخر إلى بلاد وادي الرافدين يبدأ من جرها ويمر بثاج إلى الحيرة [٥] .

ويبدو أن الملك عاد إلى اليمن بعد أن حرر المدينتين من الفرس وطردهم من أرض العراق وكأنه جاء ليحرر الأرض ويحمي الحدود الشرقية للوطن العربي .

---

(١) Walter W. Müller: Op.Cit., P.161.

(٢) Ibid., P.162.

(٣) Ibid., P.159.

(٤) Ibid، وابن مجاور: صفة بلاد اليمن ص ٢١٤.

(٥) A. Grohmann: Arabien, P.7.

ويعود بعد هذا النصر الكبير ليشكر الإله المقه بعل أوام على هذا العمل العظيم [١] .

أما عن ذكر تنوخ في هذا النص [٢] فهي قبائل عربية قديمة كان لها مملكة خاصة بها [٣] منذ القرن الثالث الميلادي، وقد سكنت جنوب نهر الفرات. وكانت لها علاقة قوية مع قبائل أسد. وربما قصد في هذا النص أن هذه الأرض هي مواطن تنوخ[٤].

أما تاريخ هذه الحرب فربما يعود إلى سنة ٣١٩م [٥] ، وإن صح هذا التاريخ فإن هذا الانتصار يكون قد سبق يوم ذي قار بأكثر من ثلاثة قرون. لقد كان الملك شمريهرعش دون شك من الملوك الكبار. وقد استطاع أن يكوِّن دولة عربية موحدة [٦] . ولهذا فإن المصادر العربية تذكره كبطل من أبطالها في التاريخ كما حيكت حوله قصص استمرت حتى العصر الإسلامي [٧] .

---

(١) السطر ١٩ من (نقش شرف الدين ٤٤).

(٢) السطر ١٢ من النص نفسه.

(٣) G. Rothstein: Op. Cit., PP.41-50.

(٤) Walter W. Müller: Op.Cit., P.163.

(٥) لقد ناقش Muller كلمة (أربعي) في السطر ١٧ من النص واعتبرها (٤٠) سنة غير أنه لم يتحقق تاريخ هذا النص لأن النصوص التي تعود إلى هذا الملك لم تكن، ويا للأسف، مؤرخة. للتفصيل راجع:
Walter W. Müller: Op.Cit., P.164.

(٦) الدكتور منذر البكر: المحاولات الوحدوية في الجزيرة العربية قبل الإسلام (آفاق عربية، العدد ٦، سنة ١٩٧٩، ص ٢٢ ــ ٢٥).

(٧) Walter W. Müller: Op.Cit., P.165.

المصادر العربية

(١) ابن خلدون: المقدمة ط ـ دار الكشاف، بيروت.

(٢) ابن مجاور: صفة بلاد اليمن، ليدن ١٩٥١.

(٣) الأصفهاني، حمزة: تاريخ سني الملوك والأنبياء، مكتبة الحياة، بيروت.

(٤) الحموي، ياقوت: معجم البلدان ط. لايبزك ١٨٦٦.

(٥) الهمداني: الإكليل، القاهرة ١٩٦٣.

(٦) بافقيه، محمد عبد القادر: تاريخ اليمن القديم، بيروت ١٩٧٤.

المصادر الأجنبية

(1) Grohmann, R. Arabien München 1963.

(2) Jamme, A. Sabaean Insetiptions, Baltimore 1962.

(3) Rothstein, G: Dynastic der Lahmiden in al-Hira Berlin 1899.

(4) Walter W. Müller: Ein Sabaische
Gesandtschaft in Ktesiphon and seleukia
(Neue Ephemeris fur semitische Epigraphik Band 2) Wiesbaden
1974.

الفارابي والمنهج العلمي

إعداد
د. / صالح الحمارنة
(كلية الآداب ـ الجامعة الاردنية)

يذكر أبو حيّان التوحيدي في كتابه القيّم «الإمتاع والمؤانسة» المناظرة الطريفة جداً، التي وقعت في مجلس الفضل بن جعفر بن الفرات الوزير العباسي الشهير، هذه المناظرة التي كانت حديث علية القوم في بغداد والتي وقعت بين أبي سعيد السيرافي اللغوي الفقيه المتكلم وأبي بشر متى بن يونس المتوفى عام (٣٢٨ هـ ـ ٩٣٢ م) والذي انتهت إليه رئاسة المنطقيين في زمنه. وكان هذا الفيلسوف قد نزل بغداد حديثاً عام (٣٢٠ هـ ـ ٩٣٢ م) واجتمع إليه الناس في مجلس التعليم وسار الحديث عن مجلسه، وما يقوله فيه من تضخيم المنطق، وما يدّعية من أن النحويين مع اللفظ لا المعنى(١). وتبدأ المناظرة التي دعا إليها الوزير ابن الفرات جمهرة العلماء بأن أخذ الكلام متّى إذ قال: «أعني بالمنطق أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان فإني أعرف به الرجحان من النقصان، والشائل من الجانح». فقال أبو سعيد: أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذ نتكلم بالعربية، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إذ كنا نبحث بالعقل. وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن فمن لك بمعرفة الموزون أيمّا هو حديد أو ذهب أو شبه؟ فأراك بعد معرفة

الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدّها. . . فأنت كما قال الأول ـ الشاعر أبو النواس:

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء. . .

وتستمر المناظرة الشائقة بينهما ويسأل أبوسعيد: عن حرف واحد دائر في كلام العرب ومعانيه متميّزة عند أهل العقل، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطوطاليس الذي تجل وتباهي بتفخيمه وهو (الواو) ما أحكامه؟ وكيف مواقعه وهل هو على وجه أو وجوه؟ فبهت متىّ وقال: هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه، لأنه لا حاجة بالمنطقي إليه وبالنحوي حاجة شديدة إلى المنطق، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ، فإن مرّ المنطقي باللفظ فبالعرض، وإن عثر النحوي بالمعنى فبالعرض، والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضح من المعنى. فقال أبو سعيد: أخطأت لأن الكلام والمنطق واللغة واللفظ والإفصاح. . . كلها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة. . . والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي(٢).

وهكذا تمضي المناظرة التي انتهت ـ كما تتطلب الظروف على ما يبدو ـ بانتصار أبي سعيد على مجادله ومنافسه. واعتبرت في أوساط بغداد الأدبية والعلمية انتصاراً للنحو على المنطق وللنحويين والمتكلمين على أصحاب المنطق والفلاسفة.

وكان من أسباب اندحار متّى أنه لم ينظر في النحو وأحكام اللغة، وأنه يجهل الحروف ومعانيها ومواقع استعمالها ومع ذلك يدّعي متّى أن النحويين لا يعرفون مواقع الحروف. فنجح السيرافي في المناظرة في إظهار جهل متّى في اللغة العربية ونحوها وفقهها، ولم يغنه تضخيمه للمنطق وادعاؤه أنه لا حاجة بالمنطقي إلى النحو وعجزه عن إقناع النظّارة بصحة ما يقوله في صلة المنطق

بالنحو، وبيَّن السيرافي أن متّى يتحدث عن الصلة بين أمرين لا يعرف شيئاً عن أحدهما.

والمناظرة جرت في مجلس عام حضره «أقوام كتبوها في ألواح كانت معهم ومحابر أيضاً. . . وتـقوَّض المجلس وأهله يعجبون من جأش أبي سعيد السيرافي الثابت ولسانه ووجهه المتهلل». . وكان للسيرافي في يوم المناظرة أربعون سنة ومتّى يومئذ شيخ كبير يربو على الخامسة والسبعين. والسيرافي كان معروفاً بالفضل والزهد «مع السمت والوقار والدين والجد، وهذا شعار أهل الفضل والتقدم». ومتّى مشهور عنه أنه كان يملي ورقة بدرهم مقتدري وهو سكران، لا يعقل ويتهكم وعنده أنه في ربح وهو من الأخسرين أعمالاً والأسفلين أحوالاً(٣).

إن انتصار السيرافي على متّى في المناظرة، لم يكن مجرد انتصار رجل على آخر أو انتصار فن على فن فحسب، بل نصراً للأدب والكلام، مما أثار في الناس شكوكاً في فوائد المنطق والفلسفة ودعوى أصحابها(٤). هذا ويجب أن نشير بوضوح إلى أن مشكلة الصلة بين المنطق والنحو العربي ظهرت واضحة في القرن الثالث الهجري، واتخذت شكل خصومة عنيفة في القرن الرابع الهجري حينما تغلغلت العلوم الفلسفية في عقول الناس وركبت موجة الثقافة الإسلامية إبّان ازدهارها(٥).

ذكرت أكثر المصادر العربية من علاقة الفارابي بمتّى هـذا، وقال غير مصدر إن الفارابي قد أخذ عن متّى المنطق وإن متّى كان أسنّ من أبي نصر وأبو نصر أحدّ ذهنا وأعذب كلاماً(٦). والفارابي كان يومئذ في بغداد يدّرس المنطق والفلسفة، ويقرأ مع تلامذته ويملي عليهم شروحه لكتب المنطق وما كتبه في علاقته بالنحو، وكان بين تلاميذ الفارابي من يحضر مجلسه ومجلس متّى(٧).

ويخيَّل إليَّ أن المناظرة التي جرت بين متّى والسيرافي أدت بكثير من تلامذة الفارابي إلى أن يسألوه كيف يجيب هو عن الأسئلة التي أثارها السيرافي في

اللغة وصلتها بالمنطق وبغيره من العلوم«مما لم يتمكن متّى من الإجابة عنه أو أجاب عنه إجابة غير مقنعة. وأمر بالغ الأهمية أن نذكر أن الفارابي كان إلى علو شأنه في المنطق عارفاً بالعربية وفقهها ونحوها، أخذها عن ابن السراج إمام زمانه في هذه الفنون[٨]. . .» وفي التاريخ أن الفارابي كان يجتمع بأبي بكر السراج(*) فيقرأ عليه صناعة النحو وابن السراج يقرأ عليه صناعة المنطق[٩]. ويبدو أن الفارابي ذهب يجيب على هذه الأسئلة فأطنب في أصل اللغة والنحو وفي نشأتها وفي صلتها بالفلسفة والملّة. . . وإن كتاب الحروف للفارابي هو نتيجة تلك الحلقات وضمنها على ما يرجح كتاب «إحصاء العلوم»[١٠].

لا شك أن الفارابي قد شارك في الجدل الدائر في أيامه حول المنطق والنحو، وأغلب الظن أنه استاء من هجمة بعض النحويين على المنطق وادعائهم أنه «فضل لا يحتاج إليه». . . لمن كان كامل القريحة بحيث اضطر إلى درء هذا الزعم بقول مكافىء له تماماً يذهب فيه إلى أن قول من زعم «أن المنطق فضل لا يحتاج إليه» هو «كقول من زعم أن النحو فضل». إذ قد يوجد من الناس من لا يلحن أصلاً من غير أن يكون قد علم شيئاً من قوانين النحو «والفارابي يلتزم حدود الواقع حين يقرر أن المنطق شارك النحو بعض المشاركة بما يعطي من قوانين الألفاظ وأنه يفارقه في أن علم النحو إنما يعطي قوانين تخص ألفاظ أمة ما وعلم المنطق إنما يعطي قوانين مشتركة تعمّ الأمم كلها[١١].

وتجدر الإشارة هنا إلى قيام فريق ثالث في فترة لاحقة بالتوسط بين الفريقين وهم طائفة المشاركين في الفلسفة وعلوم العربية معا، وهذه الطائفة تلتزم برأي التوحيدي وأستاذه أبي سليمان السجستاني، وهما ينتهيان في رأيهما إلى وجوب الجمع بين المنطق والنحو. وبعد القرن الرابع يختلط النحو بالمنطق

(*) من علماء النحو المشهورين، وإليه انتهت الرئاسة في النحو بعد المبرّد وله كتاب الأصول الكبيرة.

والمنطق بالنحو وكذلك اختلطت البلاغة بالمنطق بحيث وجدنا نحواً فلسفياً أقيمت أسسه على يد ابن يعيش (٥٣٣ هـ ـ ٦٤٣هـ)(١٢).

في خضمّ هذا الجدل القائم في بغداد، دار السلام آنذاك، وفي جو هذه المناظرات العلمية الشائقة التي أعطت طابعها للعصر كله، ندرك لماذا خصص الفارابي الفصل الثاني بكامله من كتاب «إحصاء العلوم» لعلم المنطق، فاصلاً إياه عن الفلسفة (كما فعل أرسطو). فقد قدّم الفارابي المنطق على سائر العلوم لأن «صناعة المنطق تعطي بالجملة القوانين التي من شأنها أن تقوِّم العقل وتسدد الانسان نحو طريق الصواب ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات والقوانين التي تحفظه وتحوطه من الزلل والخطأ»(١٣). ويضيف الفارابي في موضع آخر أي في كتابه «التنبيه على سبيل السعادة» فيقول «فإن قوانين المنطق عامة كلية لابد من مراعاتها في أي علم لأنها تعصم الذهن من الزلل في الأحكام، لذلك وجب تقديم الكلام فيها قبل الخوض في سائر العلوم المحتاجة إليها»(١٤).

يرى الأستاذ فهمي جدعان في مقالة له بعنوان «الفارابي» أن موقف الفارابي من المنطق يمثل منعطفاً حاسماً في تجربته جعله يتعلق في النهاية بالمنطق لأنه يستند إلى ما هو إنساني وشامل ولا محدود في مقابل النحو الذي هو أرث قومي خاص ومحدود(١٥).

فالاعتبارات الطبيعية عند الفارابي هي التي ينبغي أن تكون منطلق كل علم إنساني. ويشير الفارابي نفسه إلى أن أخص الخيرات بالإنسان هو عقل الإنسان إذ بالعقل صار الانسان إنساناً، ويضيف الفارابي إلى هذا القول أن صناعة المنطق هي التي تحقق للإنسان هذا الكمال الخاص، وبهذا يقرر صراحة أن هذه الصناعة، صناعة المنطق، هي «أول صناعة ينبغي أن يُشرع فيها من صنائع العلوم»(١٦).

وجاء في «إحصاء العلوم» أن نسبة صناعة المنطق إلى العقل والمعقولات كنسبة صناعة النحو إلى اللسان والألفاظ فكل ما يعطيناه علم النحو من القوانين في الألفاظ فإن علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات، ثم يقول إن «علم النحو إنما يعطي قوانين تخص ألفاظ أمة ما. . . وعلم المنطق إنما يعطي قوانين مشتركة تعم ألفاظ الأمم كلها كما أسلفنا»(١٧).

وليس منطق الفارابي مجرد تحليل للتفكير العلمي، بل هو يشتمل إلى جانب هذا على كثير من الملاحظات النحوية، كما أنه يشتمل على مباحث في نظرية المعرفة. وعلى حين أن النحو يختص بلغة شعب واحد، فإن المنطق قانون للتعبير بلغة العقل الانساني عند جميع الأمم، ولابد أن يسير من أبسط عناصر الكلام إلى أعقدها، من الكلمة إلى القضية إلى القياس(١٨). والفارابي يرمي المتكلمين بأنهم يقيمون أدلّتهم على مقدّمات ذائعة مشهورة مأخوذة من مبادىء الرأي المشترك من غير أن يمحصوها. ثم هو يرمي الفلاسفة الطبيعيين بأنهم أبداً يقصرون هممهم على الآثار التي تصدر عن الأشياء فلا يتجاوزون عالم الظواهر المتضادة، ولا يحصّلون صورة شاملة للموجودات. وقد حاول الفارابي خلافاً للأولين أن يضع للفكر أساساً صحيحاً، وخلافاً للآخرين أراد أن يبحث عن العلة الأولى التي يصدر عنها وحدها كل ما هو موجود(١٩).

فلا غرو أن عرف قيمة الفارابي ومكانته ومعاصروه والأولون، ناهيك عن المحدثين. فالقفطي ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ نسمعه يقول «برز الفارابي على أقرانه وأربى عليهم في التحقيق وشرح الكتب المنطقية وأظهر غمضها وكشف سرها وقرب متناولها وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الاشارة منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وإنماء التعليم»(٢٠). «هذا هو الرجل، أفهم فلاسفة الإسلام وأذكرهم للعلوم القديمة، وهو الفيلسوف فيها لا غير»(٢١)«كان فيلسوفاً كاملاً وإماماً فاضلاً قد اتقن العلوم الحكمية. . . زكي النفس، قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا مقتنعاً منها بما يقوم

بأوده، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين»[٢٢]«فهو فيلسوف المسلمين غير مدافع»[٢٣].

هذا هو المعلم الثاني. ويبدو أن إطلاق هذا اللقب عليه يمكن تفسيره باشتهار فيلسوف الاسلام بـ «إحصاء العلوم»، الذي يخوض في العلوم المشهورة في عهده، كما اشتهر أرسطو المعلم الأول بالكتابة في تصنيف علوم زمانه. إلى هذا الرأي يذهب كل من دي بور، والأستاذ عثمان أمين[٢٤]. وهذا الأخير قام بدراسة جيدة حول كتاب «إحصاء العلوم» فحققه ونشره في الطبعة الثالثة في القاهرة عام ١٩٦٨.

وقد عرف قيمة كتاب «إحصاء العلوم» للفارابي كل القدامى الذين ترجموا حياته أو تعرضوا لمؤلفاته. فهذا ابن صاعد الأندلسي في كتابه «طبقات الأمم» يقول: «للفارابي كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه»[٢٥] كما يذكر هذا المعنى ابن أبي أصيبعة وابن خلكان وغيرهما[٢٦].

وقد أطلعنا الفارابي على مراده من تأليف كتابه «إحصاء العلوم» إذ قال: «قصدنا في هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علمًا علمًا» وتعيين غرضها بالدقة اللازمة وبيان أقسامها». وقد جمع هذه العلوم في فصول خمسة يطلعنا على محتواها فيقول «الأول في علم اللسان وأجزائه والثاني في علم المنطق وأجزائه والثالث في علوم التعاليم، وهي العدد والهندسة وعلم المناظر وعلوم النجوم التعليمي وعلم الموسيقى وعلم الأثقال وعلم الحيل، والرابع في العلم الطبيعي وأجزائه وفي العلم الإلهي وأجزائه والخامس في العلم المدني وأجزائه وفي علم الفقه وعلم الكلام»[٢٧].

وبهذا الكتاب يقدر الانسان على أن يقايس بين العلوم، فيعلم أيها أفضل وأيها أنفع وأيها أتقن وأيها أوهن وأوهى وأضعف[٢٨]. غير أن المؤلف لم يكشف في هذا الكتاب عن أي قصد فلسفي شخصي، مع أن الترتيب الذي أورد

عليه هذه العلوم يشير إلى الطريقة الطبيعية التي ينبغي سلوكها في أي مشروع فلسفي ممكن، شريطة أن نأخذ بعين الاعتبار أن العلمين الأخيرين، علم الفقه وعلم الكلام، هما إن صح القول صناعتان زائدتان على الفلسفة، وبحسب تعبير الفارابي نفسه في كتابه «الحروف»، «متأخرتان بالزمان عنها وتابعتان لها»، فضلاً عن أنهما بحكم اتجاههما إلى الجمهور دون الخواص، أوهن منها وأضعف[٢٩].

وجاء في كتاب «فلسفة الفكر الديني» (الترجمة العربية) «أن تصنيف الفارابي لعلم الكلام في كتابه «إحصاء العلوم» هو مصطنع في الوجه الذي عليه يستوعب العلوم الاسلامية كالفقه والكلام. حيث أن هذه العلوم تلتصق التصاقاً شديداً بمجموعة العلوم الأخرى».

ونلاحظ أيضاً أن الطابع الكلي لكتاب «إحصاء العلوم» ليس فيه شيء إسلامي خاص[٣٠]. ويضيف غارديه وزميله «ربما كان ذلك سبب انتشاره وشهرته لدى اليهود والمسيحيين في القرون الوسطى، فإن إقبالهم عليه ببعض التغييرات أتاح لهم أن يضعوه بين جملة معارفهم حتى الدينية منها، وتلك هي الفائدة التي جناها الغرب من الفارابي»[٣١].

لقد نال كتاب «إحصاء العلوم» شهرة واسعة في القرون الوسطى ومكانة مرموقة في الحضارة العربية الإسلامية وكذلك في الحضارة اللاتينية، فمنذ القرن الثاني عشر الميلادي تُرجم الكتاب إلى اللاتينية[٣٢]. وقد عرف كتاب «إحصاء العلوم» في القرون الوسطى بعنوان «في العلوم» أو «في مخرج العلوم» وظنّ مدة طويلة أنه مفقود بنصه العربي ولم ينشر في العربية إلا سنة ١٩٢١م، في مجلة العرفان في صيدا في لبنان تحقيق الاستاذ الشيخ محمد رضا الشبيبي[٣٣]، وبعد ذلك طبع الكتاب عدة طبعات جيدة في العالم العربي وخارجه.

وبعد ظهور كتاب «إحصاء العلوم» لأبي نصر الفارابي ظهر كتاب آخر في تصنيف العلوم في عام ٩٧٦م من تأليف الموسوعي أبي عبد الملك

محمد الخوارزمي، وهو كتاب «مفاتيح العلوم». ثم إن الشيخ الرئيس ابن سيناء ألف رسالة «في أقسام العلوم النظرية» شبيهة بكتاب الفارابي في إحصاء العلوم إلا أنها دونه إحاطة، ولا يزيد ابن سيناء فيها شيئاً يذكر عما وصفه الفارابي(٣٤).

ولقد كان العرب يُنزلون كتاب «مفاتيح العلوم» أرفع منزلة. والكتاب عظيم الفائدة خصوصاً أنه يطلعنا على علوم ذلك العصر ومعارفه وعلى العلوم التي تناولها الخوارزمي في دقة وإحكام. فلكتاب «مفاتيح العلوم» من الأهمية ما لكتاب احصاء العلوم للفارابي وما لكتاب «الفهرست» لابن النديم. وجدير بالذكر أن ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ ـ ١٤٠٥م) في مقدمته يذكر عند تصنيفه للعلوم المتداولة في عصره أن هناك علوماً نقلية وضعية مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي. والعلوم الأولى تشترك فيها كل الأمم، أما الثانية فهي مختصة بالملّة الاسلامية وأهلها، وإن شاركها من بعد أمم أخرى وفي أمور مجملة(٣٥).

أما مسألة تصنيف العلوم والتصنيف الأرسطي لها، هذا التصنيف الذي انتقل انتقالاً مباشراً إلى العرب في القرن الثامن الميلادي، وقد عاد إلى اوروبا متخذاً طريقه بواسطة العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين(٣٦)، نجده عند الفارابي خصوصاً عند تقسيمه الفلسفة إلى نظرية وعملية وذلك في قوله: «صارت صناعة الفلسفة صنفين:

ـ صنف به تحصل معرفة الموجودات التي ليس للإنسان فعلها وهذه تسمى النظرية.

ـ والثاني به تحصل معرفة الأشياء التي شأنها أن تفعل والقوة على فعل الجميل منها وهذه تسمى الفلسفة العملية»(٣٧).

ويستمر الفارابي في تصنيفه فيقول: «والفلسفة المدنية صنفان:

- **أحدهما** تحصل به علم الأفعال الجميلة والأخلاق التي تصدر عنها الأفعال الجميلة والقدرة على أسبابها وبه تصير الأشياء الجميلة قنية لنا وهذه تسمى الصناعة الخلقية.
- **والثاني** يشتمل على معرفة الأمور التي بها تحصل الأشياء الجميلة لأهل المدن والقدرة على تحصيلها لهم وحفظها عليهم وهذه تسمى الفلسفة السياسية»(٣٨).

وينهي الفارابي تصنيفه برسم منهج علمي، قويم وسليم للسموّ بالخلق الإنساني، وذلك باتّباع الحق وتجنّب الباطل وذلك بالاستفادة من صناعة المنطق. «لما كانت الفلسفة تحصل بجودة التمييز وكانت جودة التمييز إنما تحصل بقوة الذهن على إدراك الصواب... وقوة الذهن إنما تحصل متى كانت لنا قوة بها نقف على الحق أنه حق يقين فنعتقده وبها نقف على ما هو باطل أنه باطل بيقين فنتجنبه، ونقف على الباطل الشبيه بالحق فلا نغلط فيه ونقف على ما هو حق بذاته وقد أشبه الباطل فلا نغلط فيه ولا ننخدع، والصناعة التي بها نستفيد هذه القوة تسمى صناعة المنطق»(٣٩).

إذن نرى بوضوح أن الفارابي في كتابيه «إحصاء العلوم» و«التنبيه على سبيل السعادة» لم يُرد إحصاء العلوم فحسب بل أراد أيضاً تصنيفها وتوظيفها لخدمة الإنسان.

وتصنيف العلوم يتصل اتصالاً وثيقاً بالمنهج العلمي، وقد أوضح الفارابي هذا المعنى في مقدمة كتابه «إحصاء العلوم» وذلك في قوله: «قصدنا أن نخص العلوم المشهورة علماً علماً ونعرف ما يشتمل عليه كل واحد منها وأجزاء ما له منها أجزاء، وجمل ما في كل واحد من أجزائه»(٤٠).

واضح إذن أن مثل أمثال «إحصاء العلوم» و«مفاتيح العلوم» وغيرهما كانت بمثابة تنظيم عقلي للعلم الانساني[٤١]، وقد كتبت في عصر بلغ فيه الفكر العربي الذروة في تفهم أمور العلم واللغة وضرورة التعبير الصحيح عـمّـا ينظر الإنسان فيه ويعقله.

فالتصنيف العربي الذي امتد من جابر بن حيّان إلى الكندي، فالفارابي، فالخوارزمي، فإخوان الصفا فابن سيناء، فابن النديم، حتى ابن خلدون، كان بمثابة مرآة تعكس المعرفة البشرية آنذاك، وطريقاً ممهداً لنشأة البحث التجريبي وتمهيداً حقيقياً لكثير من العلوم في القرون الحديثة.

المصادر والمراجع

(١) التوحيدي، أبو حيّان: كتاب الإمتاع والمؤانسة، نشره أحمد أمين، وأحمد الزين، بيروت ـ منشورات دار مكتبة الحياة، الليلة الثامنة، ص ١٠٧ ـ ١٢٨.

ـ محسن مهدي: مقدمة كتاب الحروف للفارابي، بيروت ١٩٧٠، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) التوحيدي: الإمتاع، ص ١٠٧ ـ ١١٥.

(٣) التوحيدي: الإمتاع، ص ١٠٧، ١٢٨، ١٢٩.

(٤) التوحيدي: الإمتاع، ص ١٢٠.

(٥) محمد أبو ريان: دراسة تحليلية ـ مقارنة بين المنطق والنحو ضمن كتاب «الفارابي والحضارة الإنسانية»، بغداد ١٩٧٥، ص ١٨٩.

(٦) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٦٥، ص ٦٠٣ وما بعدها.

(٧) محسن مهدي: مقدمة كتاب الحروف، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٨) محسن مهدي: ن. م، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٩) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٦٠٦.

(١٠) محسن مهدي: مقدمة كتاب الحروف، ص ٤٨.

(١١) الفارابي: كتاب إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين ـ القاهرة ١٩٦٨، ص ٦٤، ٧٤، ٧٦.

(١٢) محمد أبو ريان: دراسة تحليلة، ص ١٩٤.

(١٣) الفارابي: إحصاء العلوم، ص ٦٤.

(١٤) الفارابي: التنبيه على سبيل السعادة، من كتاب رسائل الفارابي، طبعة حيدر آباد الدكن، سنة ١٩٢٦، ص ٢٣.

(١٥) فهمي جدعان: الفارابي: مجلة أفكار العدد الثامن والعشرون، تموز ١٩٧٥، عمان ص ٢٦.

(١٦) الفارابي: التنبيه على سبيل السعادة، ص ٢٢، ٢٤.

(١٧) الفارابي: إحصاء العلوم، ص ٢١٢، ٢١٨، ٧٧.

(١٨) ت.ج. دي بور: تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده، القاهرة ١٩٣٨، ص ١٣٥.

(١٩) ت.ج دي بور: ن. م، ص ١٣٥.

(٢٠) **القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي**: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، لايبسك ١٩٠٤، ص ٢٧٧.

(٢١) **ابن سبعين**: عن مقالة للأستاذ مصطفى عبدالرزاق، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مجلد ١٢ جزء ٨،٧، ص ٣٩٥.

(٢٢) **ابن أبي أصيبعة**: عيون الأنباء، ص ٦٠٣.

(٢٣) **ابن صاعد الأندلسي**: كتاب طبقات الأمم ـ تحقيق الأب شيخو اليسوعي، بيروت ١٩١٢، ص ٥٣.

ـ **القفطي، جمال الدين**: تاريخ الحكماء، بغداد، ص ٢٧٧.

(٢٤) **دي بور**: تاريخ الفلسفة، ص ١٣١، ١٣٢.

ـ **عثمان أمين**: مقدمة كتاب إحصاء العلوم، ص ٣٦.

(٢٥) **ابن صاعد الأندلسي**: كتاب طبقات الأمم، ص ٥٣.

(٢٦) **ابن أبي أصيبعة**: عيون الأنباء، ص ٦٠٣.

ـ **ابن خلكان**: وفيات الأعيان، تحقيق وداد القاضي وغيرها، بإشراف إحسان عباس، ج ٥، بيروت، ص ١٥٣.

(٢٧) **الفارابي**: إحصاء العلوم، ص ٥٣.

(٢٨) **الفارابي**: ن.م. ص ٥٤.

(٢٩) **لويس غارديه، وج قنواتي**: فلسفة الفكر الديني ـ الترجمة العربية، بيروت ١٩٦٧، ج ١، ص ١٩٢.

ـ **الفارابي**: كتاب الحروف ـ بيروت، دار المشرق ١٩٧٠، ص ١٣١.

(٣٠) **غارديه وقنواتي**: فلسفة الفكر الديني، ج ١، ص ١٩٢.

(٣١) ن. م. ص ١٩٢.

(٣٢) **عثمان أمين**: مقدمة كتاب إحصاء العلوم، ص ٨.

(٣٣) راجع مجلة «العرفان» اللبنانية، المجلد الرابع ١٩٣١، ص ١١ ـ ٢٠ ـ ١٣٠ ـ ١٤٣ ـ ٢٤١ ـ ٢٥٧.

(٣٤) **ماجد فخري**: تاريخ الفلسفة الاسلامية (الترجمة العربية)، بيروت ١٩٧٤، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣٥) ابن خلدون: المقدمة ــ الفصل الرابع من الباب السادس في أصناف العلوم، طبعة القاهرة ١٩٤٨، ص ٤٣٥.

(٣٦) غارديه وقنواتي: فلسفة الفكر الديني، ج ١، ص ١٨٢.

(٣٧) الفارابي: التنبيه على سبيل السعادة، ص ٢٠.

(٣٨) ن.م. ص ٢٠ ــ ٢١.

(٣٩) ن.م. ص ٢١.

(٤٠) الفارابي: إحصاء العلوم، ص ٥٣.

(٤١) غارديه وقنواتي: فلسفة الفكر الديني، ج ١، ص ١٨٦.

حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين
في القرن ٤ هـ = ١٠ م
(من خلال مجالس النعمان ومقتبس ابن حيّان)

إعداد
د. / لقبال موسى
(أستاذ التاريخ الإسلامي ـ كلية الآداب ـ جامعة الجزائر)

١ ـ منشأ الصراع ومبرّراته:

بجهود الدعاة الإسماعيلية وأشهرهم في بيئة المغرب العربي، أبو عبد الله الشيعي المحتسب، وبسيوف قبيلة كتامة البرنسية الجزائرية، وبدعم أحلافها البرانس والبتر، قامت الدولة الفاطمية العلوية في بيئة المغرب الإسلامي على حساب دول إقليمية ووسط محيط سني يخالفها في الاتجاه المذهبي. فكان قيامها بحق أول نصر حاسم أحرزه الشيعة العلويون ضد العباسيين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي لكن بتأثير عرب المغرب الإسلامي.

ومنذ قيام هذه الدولة، وإعلانها خلافة إسلامية، أول خلفائها عبيد الله المهدي، ظهرت في الأفق السياسي والمذهبي في بلاد المغرب قوة إسلامية كبرى تنافس العباسيين لقب الخلافة الإسلامية.

فبدأت منذ هذا الوقت مرحلة من الصراع[١] بين الخلافتين الإسلاميتين،

---

(١) عن هذا الموضوع انظر: لقبال موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، محمود مكي الشيخ في الأندلس، العبادي: سياسة الفاطميين في المغرب والأندلس، النعمان: المجالس

الناجمة أو الناشئة بالمغرب، والعباسية العريقة الممتدة الأرجاء والظلال. وقد تنوّعت صور هذا الصراع وأشكاله ونتائجه، كما تعدّدت ميادينه بدءاً بالمغرب ومروراً من عالم الشام ومصر، والحجاز واليمن إلى العراق: المحطة النهائية للاستقرار والراحة.

وفي هذا الوقت أيضاً، ونتيجة لظهور الفاطميين على أرض كانت تابعة للعباسيين، وعلى صلة وثيقة سياسياً واقتصادياً، واجتماعياً وثقافياً، ومذهبياً، بأرض العدوة القصوى، وهي شبه جزيرة الأندلس؛ التي كانت مركزاً لنظام إمارة عربية إسلامية شرقية سنية منافسة للعباسيين، وهي الإمارة الأموية في قرطبة، التي أرسى دعائمها بجهد مغربي، أحد الناجين من السيوف العباسية، عبد الرحمن ابن هشام الملقّب بصقر قريش منذ سنة ١٣٨ هـ.

ورث الفاطميون، نتيجة لذلك، موقف العباسيين من الإمارة الأموية، وهو موقف عداء تقليدي. وانضاف إلى ذلك الخلاف المذهبي الحاد بين الفاطميين الشيعة الإسماعيلية، والأمويين السنّة المالكية، وزاده حدة عداء جمهور السكان في أفريقية والمغرب لنظام الإسماعيلية، واتجاههم المذهبي إما إلى العباسيين، أو إلى أرض الأندلس. ولأن هذا الوضع كان مقلقاً للفاطميين، ولأن الدولة الفاطمية، دولة مذهبية وسياستها التمكين لمذهبها وايديولوجيتها فقد بدأت تهتم بالأندلس، نظاماً وسكاناً وأرضاً، من زاوية تحقق للفاطميين أغراضهم في التوسّع السياسي والمذهبي، واستراتيجيتهم التي أسسوها على مبدأ السيادة الإقليمية في إطار المغرب الإسلامي، وفيه الأندلس، في المرحلة

= والمسايرات، ص ١٦٤ ـ ١٨٣، ط تونس ١٩٧٨، نشرها اليعلاوي بالاشتراك.
Levi Provencal: Histoire de l'Espagne Musulmane TVP 78 et 184.

الأولى، ومعنى ذلك إزاحة نظام الأمويين، وفي المرحلة الثانية تحقيق السيادة العليا في العالم الإسلامي، وذلك بإزاحة العباسيين.

وهذه الإستراتيجية أملت على الفاطميين نشاطاً متعدد الجوانب ضد نظام الأمويين في قرطبة الذي تحوّل إلى شكل خلافة إسلامية جديدة، وضد كل القبائل والقوى المؤيدة لهم حتى لا يبقى في أرض المغرب والأندلس غير نظام الخلافة الشيعية التي أقاموها قبلة لجمهور السكان. وعندئذ تبدأ عملية التصفية النهائية من أجل السيادة العليا في العالم الإسلامي، بينهم وبين عصبيتهم وأبناء عمومتهم العباسيين.

ولقد كان الصراع سياسياً ومذهبياً، وتميز أحياناً بالحسم وبالمواجهات الساخنة، هذا فضلاً عن تبادل إرسال الدعاة والعيون، وتخذيل الأنصار، والموالين، وعقد المحالفات والهُدَن الجانبية(١).

وقد لعبت الأنظمة السياسية والإمارات المحلية في المغرب دوراً معيّناً، في حلبة الصراع، كما مثّلت القبائل المغربية دوراً إيجابياً لفائدة هذا الطرف أو ذاك. وفي غمرة الصراع بين الفاطميين والأمويين تواطأ معظم البترو وتآلفوا وراء زناتة بفرعيها الكبيرين: مغراوة وراء كتامة وصنهاجة وعجيسة، لفائدة الفاطميين.

وأما العلويون التاريخيون وهم «الأدراسة» فقد اضطرب وضعهم بين الفريقين المتصارعين، واضطرابهم أثّر على قوتهم، وتماسكهم وهيبتهم، فخسروا نظامهم، وامّحى تأثيرهم في بيئة يعتبرون أقدم الرواد فيها.

---

(١) النعمان: المجالس والمسايرات، ج ١٦٦ ــ ١٦٧.

٢ ـ مـدى الصراع وأسلحة كل طرف فيه:

إن صراع الفاطميين والأمويين من أجل السيادة الإقليمية في المغرب الإسلامي ابتدأت فصوله منذ مبايعة عبيد الله المهدي بالخلافة، وامتدت حتى عهد الحاكم بأمر الله في الدور المصري للخلافة الفاطمية.

أما أسلحة الصراع فقد اتخذ كل فريق منها النوع الحاد والحاسم للنيل من خصمه وإحداث ثغرة في أساس وجوده.

ولئن بدا أن الأمويين قد التزموا في أغلب الأحيان أسلوب الدفاع عن كيانهم السياسي والمذهبي، ضد ما يعتبر عملاً هجومياً من جانب الفاطميين، فقد اضطرتهم ظروف المعركة الحادة إلى عدم التزام الدفاع، والمبادرة إلى الهجوم أحياناً.

٣ ـ وسائل الأمويين في الصراع:

فمن وسائل الأمويين:

تحويل نظام الإمارة الأموية إلى نظام الخلافة في عهد عبد الرحمن الثالث الذي لقّب نفسه بالناصر، وبأمير المؤمنين وذلك اقتداء بالعباسيين[١]، وكرد فعل لما فعله عبيد الله المهدي قبله أيضاً، وأصبح هذا التقليد منذ ٣١٧ هـ = (٩٢٩ـ ٩٣٠م) ساري المفعول بالنسبة إلى كل أمراء بني أمية بعده حتى سقوط نظام الخلافة سنة ٤٢٢ هـ، في قرطبة، وظهور نظام ملوك الطوائف (الإقطاع).

والهدف من هذا الإجراء عدم ترك جمهور السنة في الأندلس والمغرب بدون خلافة حتى لا يتجهوا بعواطفهم نحو خلافة الفاطميين.

(١) المقري: نفح الطيب، ج ٢، ص ٣٣٠، ابن حيان: المقتبس، ج ٥، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

وقد تلا إعلان الخلافة الأموية احتلال مدينة سبتة (٣١٩هـ = ٩٣١ ــ ٩٣٢م) وتحصينها، وتقوية حاميتها، وطرد كل العناصر المشكوك في ولائها للفاطميين، أو للأدارسة الذين كان موقفهم غامضاً. وقد تم تعيين عامل أموي كفيّ على سبتة، وهو الذي قاوم قائد المعزّ الفاطمي، جوهر الصقلي، واحتفظ باستقلال مدينة سبتة المغربية بعيداً عن النفوذ الفاطمي[١].

وفي فترة تالية أسقط الخليفة الأموي، الحكم المستنصر، جميع الوظائف المخزنية والمغارم السلطانية على سكان مدينة سبتة، ووظّف ما هو مطلوب منهم على سكان أشبيلية الأندلسية[٢].

وقد عمل الخليفة الناصر الأموي بهمة وعزيمة من أجل جذب أنصار الخلافة الفاطمية وولاتها على المدن والنواحي مستخدماً في ذلك مختلف الإغراءات، وقد حصل على نتائج إيجابية، فثار موسى بن أبي العافية المكناسي، والي الفاطميين، ضدهم، وأعلن ولاءه للأمويين، كما ثار أحمد بن بكر الجذامي في فلس، وأعلن ولاءه لقرطبة، وعمل كل منهما على تصفية النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب الأقصى.

ودعم الأمويون ثورات بني يفرن، ومغراوة، الزناتيين ضد الفاطميين واعتمدوا على بعض زعمائهم في إقلاق راحة الفاطميين، ومن هؤلاء: محمد بن خزر، وابنه الخير، وحفيده محمد، وهم من مغراوة، ثم يعلى بن محمد، وابنه يدو، وهم من بني يفرن[٣].

---

(١) نفسه، ص ٣٣١.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج ٢، ص ٣٣١ ــ ٣٦١؛ ابن حيان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٥٥، وما بعدها.

ولم يخف الأمويون تأييدهم لكل ثورة أو حركة عصيان ضد الفاطميين، سواء في مدينة نكور بني صالح الحميريين، أو في تاهرت مركز زناتة، أو في سجلماسة مركز صفرية مكناسة.

وقد هلّلوا لثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، المعروف بصاحب الحمار، لأنها كانت ضد وجود الفاطميين. واستقبل الناصر الأموي في الزهراء سفراء ومبعوثين من طرف أبي يزيد الثائر، فاحتفى بهم، وشجعهم معنوياً ومادياً على الاستمرار في إضعاف نفوذ الفاطميين[1].

وقد حرص الناصر من جهة أخرى على منح الرعاية والحماية لكل جمهور المالكية في أفريقية والمغرب، وفي مصر أيضاً.

ولقد أرسل إلى فقهاء المالكية في مصر الأخشيدية أموالاً كي يقووا بها في تنشيط الدعوة ضد امتداد النفوذ الفاطمي إلى مصر. وكانت مصر هدفاً رئيسياً للفاطميين[2]. ولا غرابة في ذلك فإن أنشط عناصر المعارضة لمد هذا النفوذ كان أندلسياً من قرطبة، يقيم في مصر، ويعرف بأبي إسحاق محمد بن شعبان، أو بابن القرطبي، وكان من أعمدة المدرسة المالكية في مصر، وأثر عنه أنه كان يدعو على نفسه بالموت حتى لا يرى رايات الفاطميين في مصر.

ويشبهه في كراهيته لامتداد نفوذهم إلى المشرق وإلى الشام خاصة مالكي

---

(١) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص ٣٩؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، ص.

آخر، هو أبو بكر محمد بن علي النابلسي، الذي تزعّم ثورة ضدهم في طرية؛ وأفتى باستحلال دم كل من جاء من المغرب في ركابهم.

وقد رحّب الأمويون أيضاً بكل من فرّ من بطش الفاطميين وطلب اللجوء إليهم، بل أسندوا إلى بعض هؤلاء مهمات كبرى تتعلّق بالاشتراك في المجهود الدعائي والحربي ضد الفاطميين. ومن هؤلاء بنو حمدون أمراء المسيلة (المحمدية) من طرف الفاطميين: علي، ويحيى، وجعفر، ثم حميد بن يصل المكناسي أمير تاهرت من طرف الفاطميين أيضاً.

واستخدم الأمويون سلاح التجسس، ضد الفاطميين، فأرسلوا عيوناً ورقباء إلى جهات كثيرة من بلاد المغرب وأفريقية لاستطلاع والأوضاع، وبث الأفكار المضادة للفاطميين، والدعوة إلى خلع طاعتهم والاتجاه شطر الأمويين في الأندلس. وجلّ هؤلاء العيون كانوا يتخذون التجارة والرواية، والمرور للحج، والزيارات الودية ستاراً يخفون به أغراضهم الحقيقية.

وقد كانت مدن أفريقية والمغرب تحتضن جاليات أندلسية نشيطة لها علاقات متينة بالسكان، وبرجال الحكم أيضاً. ولا شك في أن هؤلاء قدموا خدمات للأندلسيين، المارين بهم، أو الذين استقروا في مدن أفريقية والمغرب.

وقد أشارت النصوص إلى حادثة تعذيب أبي جعفر محمد بن خيرون من أبناء التجار الأندلسيين في القيروان، بسعي خاص من قاضي عبيد الله المهدي، وهو المروزي، والمبرر الظاهر أنه كتم وديعة كانت في عهدته[1].

كما أشارت إلى ظهور حركة تشهير كبرى بالحكم الفاطمي في مدينة المحمدية (المسيلة) تزعمها عثمان بن أمين، الذي «قيل إنه كان يقدح في الدولة، ويكاتب بني أمية ويرعون ذمامه هناك ويقضون حوائجه».

---

(١) ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٥؛ الدبّاغ: معالم الإيمان، ج ٢، ص ١٩٧.

وعندما وصلت أخبار هذه الحملة إلى المعزّ لدين الله في المهدية عن طريق رقباء الفاطميين، استاء من تقاعس والي المحمدية جعفر بن علي بن حمدون، وتركه عثمان بن أميـة يشهّر بنظام الدولة، وما ذلك في نظر المعزّ إلا لتعاطفه معه وتأييده سراً لحركته الموالية للأمويين حُماة السنَّة في الأندلس وأفريقية[1].

كذلك عمد الأمويون إلى طرد العناصر المتشيّعة والمشبوهة وقتل من تظاهر بالدعوة للفاطميين، ومراقبة السكان والتشديد عليهم لاتباع مذهب أهل الحجاز، مذهب مالك بن أنس، والالتزام به في العبادات والمعاملات. وكان ذلك من بين الوسائل التي قصد بها خلفاء بني أمية مواجهة حركات أعدائهم الفاطميين، والمحافظة على وحدة المذهب والتوجيه بـين أولايائهم ورعاياهم.

ولم يتورّع الأمويون عن استعمال سلاح القراصنة لتحدي القوة البحرية لأعدائهم الفاطميين، وللاطلاع عما يطبع علاقتهم بالأنظمة السياسية المجاورة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

إذ تشير النصوص إلى حادث استيلاء بحّارة أندلسيين كانوا عائدين من الإسكندرية في مهمة خاصة، على مركب فاطمي من جزيرة صقلية كان يحمل رسولاً وكتاباً إلى المعز لدين الله. ولما علم هذا الأخير عهد إلى الحسن الكلبي والي صقلية في مهمة قيادة أسطول لتأديب الأمويين والثأر للحادث المثير. فنزل الحسن بمرسى المرية، وكانت قاعدة الأسطول الأموي، وأحرقه واستولى على مركب الخليفة الناصر الذي رجع لحينه من مهمته في الإسكندرية، كما نزل بحّارة الأسطول الفاطمي إلى برّ الأندلس، فارتكبوا أعمالاً سيئة، ثم رجعوا ورجع الأسطول الفاطمي إلى قاعدته في المهدية غانماً[2].

---

(١) العزيزي: سيرة الأستاذ جوذر، ص١٢٣ ــ ١٢٤.

(٢) النعمان: المجالس والمسايرات، ١٦٤ ــ ١٦٦، ط تونس.

وقد استاء الناصر الأموي لهذه الأعمال الجريئة التي تمّت في عمق بلاده وأمر بإنفاذ عدة حملات للثأر من الفاطميين في عمق أفريقية والمغرب الأوسط. وقد نتج عن هذه الحملات إحراق مرسى الخرز (القالة) وسلب موانىء سوسة، وطبرقة، وشرشال (الجزائر)[1].

وقد استمر العداء الأموي للفاطميين حتى بعد رحيلهم إلى مصر، ووصل إلى غايته القصوى في حركة أبي ركوة سنة ٣٩٥ هـ =(١٠٠٤ م) الوليد بن هشام الذي ادّعى انتماءه إلى بني أمية، واستبد بشؤون برقة كخطوة للزحف ضد مصر لإسقاط الخلافة الفاطمية وتصفية نظام الخليفة الحاكم بأمر الله. وقد استعان لتحقيق هذا الهدف بكل أعداء النفوذ الفاطمي في المغرب وفي مصر، وهم لواته، وزناته، وعرب بني قرة وقد ارتضى هؤلاء إمامة أبي ركوة، وأصبحوا طوع إرادته، بعد أن صدّقوا ادعاءاته بأنه «هو الذي يملك مصر ويقتل الجبابرة».

وخطورة حركة أبي ركوة تبدو في مزاياها، ومنها:

ـ الاعتماد على عصبية قبلية قوية من العرب والبربر.
ـ التظاهر بدعوى دينية سلفية.

ـ والأهم من ذلك، تمركزها في برقة أي بقرب حدود مصر، مركز هدفها وهو الحاكم ونظام الخلافة الفاطمية[2].

إن حركة أبي ركوة في طابعها الهجومي والمذهبي أشبه بثورة أبي يزيد

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٤٩٦؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٠ ـ ٣٣٣؛ النعمان: المصدر السابق، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٧٤ ـ ٧٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ورقة ٥٤ وما بعدها.

النكاري في الدور المغربي للخلافة الفاطمية، ثم بحركة القرامطة، وسياسة الحسن الأعصم في الدور المصري للخلافة الفاطمية.

إن هذه الحركات كلها جعلت الوجود السياسي والمذهبي للخلافة الفاطمية محل شك كبير، لكن لم يقدّر لها جميعاً الوصول إلى هدفها النهائي. ومعنى حركة أبي ركوة أن الأمويين استطاعوا في مرحلة «ضعف» الخلافة الفاطمية بسبب سياسة الحاكم، أن يصعّدوا المعركة الهجومية ضد أعدائهم التقليديين، كرد مناسب على محاولات الفاطميين في الدور المغربي ابتلاع أرض الأندلس، وإسقاط الخلافة الأموية فيها.

٤ ـ الفاطميون وأسلحتهم في الصراع:

وفي الجانب الآخر، جانب الفاطميين، نلاحظ أنهم اعتمدوا في صراعهم مع الأمويين:

ـ على ربط الصلات المتينة مع الثوار، والمنتقضين في أطراف الخلافة الأموية، وتشجيعهم بمختلف الأساليب على بث الفوضى والاضطراب، لتضعف قوة الدولة وتتأثّر هيبتها في أوساط السكان.

ـ ولقد عملوا جهدهم من أجل تحدّي الخلافة الأموية بإرسال الحملات الضاربة مثل حملة أبي الحسين جوهر الصقلي إلى أقصى حدود بلاد المغرب، بقصد بث الرعب في الموالين للأمويين، وإظهار قوة الفاطميين، وعجز أعدائهم عن توفير الحماية لرعاياهم.

ـ وقد كانت كل من طنجة وسبتة هدف كثير من حملات الفاطميين التي كانت ترمي إلى الاستيلاء عليهما للوثوب إلى أرض الأندلس، مثلما فعل العرب الفاتحون منذ عدة قرون.

ـ وكان الفاطميون يهدفون إلى إحكام الحصار الاقتصادي والبحري ضد الأمويين لإضعافهم، تمهيداً لإلحاق الهزيمة بهم في ميدان الحرب في عمق أرض الأندلس وهو الشيء الذي لم يظفر به الفاطميون على رغم الجهود المضنية.

ـ وقد كان تأديب أنصار الأمويين، والموالين لهم، أسلوباً جرى عليه الفاطميون وشقي به بعض زعماء زناتة، وأمراء نكور والأدارسة أيضاً. ويدل على هذا قول المعزّ في أحد مجالسه يخاطب بعض الوفود «ومن ذا يعد لنا بالأرجاس من بني أمية، ومن هو في مثل حالهم، إلا من أعمى الله قلبه، وغلبت عليه شقوته وحَيْنُه»[1].

ـ ومن أقوى الأسلحة الفاطمية التي استخدمت ضد الأمويين سلاح التشهير بماضيهم وبموقفهم من الإسلام والحركة الإسلامية، ومن الرسول (ص) ثم من آل البيت بدءاً بعلي بن أبي طالب وابنيه.

وتصدّر المعزّ لدين الله الفاطمي حملة التشهير والقدح في الأمويين، فكان يصفهم بالأرجاس، و«الفسقة» وطرداء رسول الله، و«المتغلّبين». ويبالغ في الطعن في أنسابهم وفي تحقيرهم إلى درجة أنه أجاب أحد السائلين عن نسبهم بقوله «إلى أي ينسبون إلى الكلاب أو إلى القردة أو إلى الخنازير؟ والله إنها لخير ممن انتسبوا إليه، وإن من انتسبوا إليه أسوأ حالاً منها فدعوهم، وما أدعوه فكفاهم عاراً وخزياً بانتسابهم إليه»[2].

وقد كان المعزّ يصف عبد الرحمن الناصر بالمتغلّب، ويلعنه كلما ذكر اسمه في مجالسه، ويبالغ فيرميه بالفجور، والانحراف الجنسي[3].

---

(١) النعمان: المجالس والمسايرات، ج ٢، ورقة ٤٩٩، مخطوط جامعة القاهرة.

(٢) نفسه، ج ١، ورقة ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) نفسه، ص ١٨٠، ط تونس.

وقد أحنق المعزّ الأمر بلعن الفاطميين من على المنابر في الأندلس، وقال إنْ هو إلا صورة لما كان يفعله معاوية بالنسبة إلى علي، وهو صدى للتنافس القديم بين بني عبد شمس وبني عبد مناف، وهو أسلوب لا يشرّف أموي الأندلس وخليفتهم الناصر إن كان يعتقد نسبنا العلوي، ولن يفيده إن كان ينكر ذلك مثلما لم يستفد أسلافه في بدء الدعوة الإسلامية، وعندما كانوا يطلقون على الرسول (ص) لقب المذمم تحاشياً لألقابه الشريفة التي اشتهر بها بين قومه[1].

أما أشد الأسلحة فتكاً بنظام الأمويين فكان بدون ريب سلاح الدعوة المذهبية، فقد أرسل الخلفاء الفاطميون منذ استقرار المهدي برقادة إلى رحيل المعزّ إلى مصر، دعاة مختارين إلى أطراف بلاد المغرب وإلى الثغور القريبة من حدود الأندلس مثل طنجة وسبتة، وإلى عمق شبه جزيرة الأندلس نفسها. وقد نجحوا أيضاً في جذب بعض الأندلسيين إلى الدعوة الإسماعيلية واصطنعوهم دعاة في بلدانهم للمذهب الإسماعيلي وللخلافة الفاطمية، وكلفوهم نشر ما يخذِّل السكان عن الولاء للخلافة الأموية، ويثير القلاقل والفوضى ضدها وضد الفقهاء المالكية، الذين كانوا سدّاً منيعاً يحول دون انتشار المذهب الإسماعيلي، وفي الوقت نفسه يغذون الفتن والصراعات المذهبية، على نحو يظهر استبداد المالكية، وانحياز الخلفاء الأمويين ويلوحون بالعدل والاستقرار والأمن التي ستظلّ السكان تحت راية الخلافة الفاطمية العلوية.

وفي الوقت الذي كان فيه المعز لدين الله يقود حملة التشهير ببني أمية «المتغلّبين» في أفريقية والمغرب، أثمرت حركة الدعاة في عمق بلاد الأندلس

---

(١) النعمان: المصدر السابق، ص ١٧٦ ــ ١٧٧، ط تونس.

وفي عاصمة الخلافة الأموية قرطبة ذاتها، حيث ظهرت حركة إسماعيلية تدعو إلى الثورة ضد الحكم المستنصر، وإعلان الولاء لأبي تميم بن اسماعيل وهو المعزّ لدين الله. وقد تزعّمها داع إسماعيلي من بين سكان قرطبة يعرف بأبي الخير عند الإسماعيلية، وبأبي الشر عند أعدائهم.

وكانت هذه الحركة من بين أخطر الحركات التي واجهها نظام بني أمية في الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وقبل انتقال المعزّ لدين الله إلى مصر.

وخطورتها تظهر في تأثيرها وفي كونها:

(أ) لم تقتصر على قرطبة والزهراء، وإنما تجاوزتهما إلى سائر جهات الأندلس «وليس في الأندلس بلد وإلا هو يغلي بالشهادات عليه بما أذاع فيهم من هذا الإلحاد»[1].

(ب) ولم يكن أبو الخير الداعي وحده، بل كان له أعوان ومؤيدون في جهات كثيرة من بلاد الأندلس «وقد بلغني أن جماعة على مذهبه وأمرت الحكام بالتشدد عليهم وإخناقهم»[2].

(ج) وكان أبو الخير صريحاً في الدعوة الى الغلوّ والثورة المسلحة ضد الحكم المستنصر لإزاحته بالقوة «ما كان أملي من الدنيا إلا خمسة آلاف فارس أدخل بهم الزهراء وأقتل من بها وأقوم بدعوة أبي تميم وكذلك يكون»[3].

---

(١) ابن سهل: الإعلام بنوازل الأحكام (قطعة منه) ٧٦، حوليات جامعة تونس ١٩٦٤.

(٢) نفسه، ٧٤.

(٣) نفسه، ٦١.

(د) وكان ينادي بأن قتال بني أمية والفقهاء المالكية أفضل من قتال المشركين، ويعترف بأن «جراية الشيعي عليه، وعلى أصحابه جارية» وبأنه لو استطاع حرب بني أمية وقتل أنصارهم وسبي نسائهم وذراريهم لما تأخّر لحظة واحدة «ولو كانت تسعة أسياف لكان سيفي العاشر، ثم أضع سيفي في باب القنطرة فلا يبقي أحداً»[١].

وقد لوحظ على أبي الخير تعاطفه الكامل مع أحداث الفاطميين في بلاد المغرب، ومع العلويين في المشرق، فقد اعتبر حملة جوهر الصقلي ضد بلاد المغرب (٣٤٧ هـ) مقدّمة لفتح بلاد الأندلس، وأنكر على أحد المهاجرين من القيروان إلى قرطبة خروجه من بلده بدعوى أن الفاطميين «هم أهل الحق والسنّة ولا ينجي منهم الفرار».

وقد سأل أبو الخير أحد القادمين من المشرق عن حال العثمانية والبكرية والعلوية، ولما أجابه بغلبة النزعة العلوية ونشاطها رد عليه بقوله: «هذا الحق كأنك ترى الألوية خارجة من داري»[٢].

(هـ) وعندما استفاضت أخبار دعوة أبي الخير، الغالية، وآراؤه المتطرفة حول القرآن والسنة والخلفاء وعائشة والملائكة والمساجد، وما نُقِل عنه من أنه تمنّى أن يقلع الحجر الأسود من مكانه مثلما فعل غلاة القرامطة من قبل، فضلاً عما أشيع عن تهتّكه وانحلاله الخلقي، وتركه الفرائض، وشهد عليه أربعة وأربعون شاهداً ينتمون إلى طبقات، وإلى كُوَر مختلفة في الأندلس واعتمدت شهادة ثمانية عشر منهم، أفتى منذر بن سعيد قاضي الجماعة، وأحمد بن مطرف صاحب الصلاة، وإسحاق بن إبراهيم، بوجوب قتله دون إعذار واستحسن الحكم

---

(١) ابن سهيل: المصدر السابق، ٦٦.

(٢) نفسه، ٦٥ ـ ٦٦.

المستنصر هذا الرأي وأمر بتنفيذه وبالتشدّد تجاه كل المنحرفين عن مذهب مالك وجاء في سجلّ أرسله إلى وزيره عيسى بن فيطس قوله: «ورأيت هذا الأمر (أي التشيّع) قد كثر، وكان ممنوعاً مطروحاً فتقدّم إلى القاضي والحكام بالأخذ على أيدي الناس في هذا، فمن خالف مذهب مالك بن أنس بالفتوى أو بغيره وبلغني خبره أنزلت من النكال ما يستحق»[1].

وعندما هنأ الفقهاء الخليفة على النجاح في قطع دابر الإلحاد والتطرّف ردّ بالشكر وبأنه أمر بملاحقة كل من يشتبه في أمره في سائر الأندلس، أو يفتي بغير مذهب مالك بن أنس. ويبدو أن حركة أبي الخير لم تكن الوحيدة في طابعها العنيف في شبه جزيرة الأندلس، غير أن انتقال الخلفاء الفاطميين إلى مصر (٣٦٢ هـ)، كان حدثاً أضعف أنصارهم في كل الجهات المغربية، وجعل حركات الدعاة ضعيفة وأصداءها خافتة، لأن مركز الثقل انتقل إلى مصر باب المشرق العباسي الذي عرف فصولاً من صراع الفاطميين والعباسيين.

٥ ــ الأمراء الأدارسة وحركة الصراع:

وأثناء حركة الصراع يلاحظ أن الأمراء الأدارسة، وهم علويون حسنيون، كانوا سلاحاً ذا حدين[2] استخدمه كلا الطرفين ضد الآخر ووجد كل من الأمويين والفاطميين في الأمراء الأدارسة المذبذبين صنائع وأعواناً، فيحيى بن إدريس من فرع بني عمر تعاون مع الفاطميين، والحسن الحجام من فرع بني القاسم حاربهم وعمل لنفسه حتى هزم. وموقف حسن، وقنون وابراهيم من فرع بني القاسم من حملة ميسور الفني قائد المهدي كان إيجابياً، لذلك لقوا

(١) نفسه، ٧٠ ــ ٧١.

(٢) ابن عذاري: المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٦ ــ ٣٢٤ وغيرها؛ ابن حيان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٠.

جزاء مناسباً فملكوا على النواحي. بيد أن الحسن بن قنون من هذا الفرع، أظهر الولاء للأمويين خوفاً من بطشهم لقرب بلاده من بلادهم، لذلك خشي من بطش قائد الفاطميين جوهر الصقلي وفرّ منه ملتجئاً إلى قرطبة. وعندما انجلت الأخطار وأنس الحسن بن قنون من نفسه القوة قطع الصلة مع المروانيين وانحاز إلى أنصار الفاطميين ونوابهم في أفريقية وهم الأمراء الزيريون. غير أن الأمر لم يطل، إذ أسر الأمويون الحسن في قرطبة فترة، ثم طردوه فالتجأ إلى مصر في عهد العزيز بالله الفاطمي[1]، الذي احتفى به ووعده بالمساعدة لإحياء دولة الأدارسة العلويين في الريف، وقد بَرَّ في الوعد وحث الأمير الزيري بلكين على مساعدة الحسن. بيد أن توالي الضغط الأموي عليه ألجأه إلى طلب الأمان والحماية، وفي طريقه إلى قرطبة قتل بتحريض الحاجب المنصور، (٣٧٥هـ)[2]. وبقتله ينتهي الدور السياسي للأدارسة ومُحي كيانهم وتتلاشى أسرهم وسط محيط السكان في الريف وبقية المغرب الإسلامي.

ويعقب ابن أبي زرع الفاسي على سقوط الأدارسة وسر تقلّبهم بقوله: «كان الأدارسة ينابذون مملكتين عظيمتين وغالبين كبيرين وكانوا ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة، ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم فكان سلطانهم إذا اشتد وقوي إلى مدينة تلمسان وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة وأصية وحجر النسر إلى أن اعتراهم الإدبار والرقّة، وانقضت أيامهم وانقطعت مدتهم»[3].

---

(١) المغري: نفح الطيب.

(٢) وهو القائل:

لي ديون بالشرق عند أناس قد أحلّوا بالمشعرين الحراما
فإن قضوها نالوا الأماني وإلا جعلوا وزنها رقاباً وهاما
عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشآما

(٣) روض القرطاس، ص ٦٦.

أما السلاوي فيعقب بقوله: «وركدت ريح العلوية بالمغرب، وتفرّق جمعهم وانقرضت دولتهم وتفرّقت الأدارسة في قبائل المغرب، ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا إشارة ذلك النسب الشريف واستحالت صنيعتهم إلى البداوة»[1].

وصنيع الأمويين بالحسن بن قنون أثار العزيز بالله الفاطمي، فأرسل إلى الحكم المستنصر يشهّر به ويهجوه، فما كان من هذا الأخير إلا أن رد على العزيز بطعن في نسبه وفي نسب الفاطميين. «أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك» فكان هذا الرد صدمة كبرى للعزيز بالله الفاطمي[2].

٦ ــ بعض نتائج الصراع:

إذن، هذا عن منطق الصراع، ومبرّراته، ومداه، وأسلحة كل فريق فيه. أما عن النتائج فالملاحظ أنه لا شيء من ذلك في ما يمس ناحيتين جوهريتين:

(أ) ناحية تعديل الحدود السياسية والمذهبية التي بقيت عموماً على وضعها.

(ب) ناحية الولاء أو كسب مزيد من الأنصار لقضية الشيعة الفاطميين وبالعكس. فقد كانت النتائج السلبية كثيرة ومنها:

ــ ضعف أطراف النزاع مادياً ومعنوياً.

ــ تأثير الصراع على تماسك أسرة الزيريين، وعلى سائر القبائل بالمغرب الإسلامي. وضعف البحرية الإسلامية في الحوض الغربي من البحر المتوسط في وقت نشطت فيه البحرية البيزنطية، ثم النورمانية في ما بعد، للتوسع الإقليمي ولتمثيل دور الوسيط في التجارة بين الحوضين الشرقي والغربي.

---

(١) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، ج ١، ص ٨٩.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١١٤؛ الثعالبي: يتيمة الدهرج، ج ١، ٢٥٥.

وفي ظل هذه النتائج، سقطت أقريطش (٣٥٠هـ) بمصر في يد البيزنطيين[1] وقبرص، باب سورية. وتدهورت شؤون صقلية التي كانت تحمي شواطىء بلاد المغرب. وقد أثّر ذلك كله إلى حد ما على الصورة العامة للبحر المتوسط وقوى الصراع حوله، وإن استمر لفترة أخرى بحيرة للنفوذ الإسلامي.

فهل يرشدنا هذا الماضي السحيق إلى ضرورة التغلّب على الخلافات الإقليمية والأسرية واستبعادها، والتفرّغ لبناء قوة عربية إسلامية موحّدة الأهداف والسبل لما يفيد عالم العروبة والإسلام؟

(١) النعمان: المصدر السابق، ص٤٤٣ وما بعدها وبخاصة ص٤٤٦، ط تونس.

نحو نظرة جديدة
إلى التاريخ الحضاري للسودان القديم

إعداد
د. / أسامة عبد الرحمن النور
(جامعة الفاتح ـ طرابلس)

إن المواد العينية الجديدة التي تم الكشف عنها نتيجة أعمال التنقيب الأركيولوجي في مناطق السودان المختلفة، تسمح بالتوصل إلى الرفض الكلي لمجمل الفرضية السائدة حول مسألة التطور التاريخي الحضاري والاجتماعي للسودان القديم والتي تم التعرض لها في بحث سابق(١). فالفرضية السائدة تنطلق من قاعدة منهجية خاطئة إذ ترى أن كل تقدم وكل تحول في عملية التطور التاريخي للسودان القديم، ما هو إلاّ مجرد نتاج لعملية الهجرات السلالية المختلفة الوافدة من خارج حدود البلاد. وبالتالي، فإن هذه الفرضية لا ترى في تاريخ السودان الحضاري القديم سوى حلقات منعزلة في شكل أنساق حضارية تجلبها هذه السلالة الغازية أو تلك ـ وعليه فالفرضية السائدة ترفض الاعتراف بوجود نوع من الاستمرارية في الأنساق الحضارية المميزة للسودان القديم، أي أنها ترفض وجود نسق حضاري محلي له سماته الخاصة وعناصره المركّبة الذاتية. كما أن الفرضية السائدة لا تعطي اعتباراً للتفاعلات الاجتماعية والاقتصادية في عملية التطور التاريخي للسودان القديم، وبالتالي لا تطرح أكثر من «تقسيم مرحلي» يعتمد فقط على المعطيات الأركيولوجية المأخوذة في حالة عزلة تامة عن نشاطات الإنسان ـ الذات الفعلية في العملية التاريخية.

إن الفرضية السائدة التي تتخذ من نظرية «الانتقال الحضاري» قاعدة منهجية لها لدراسة تاريخ السودان الحضاري، مثلها مثل كافة نظريات الانتقال الحضاري، تطرح من قبل علماء لجأوا في بحثهم عن قانونية التطور التاريخي إلى المناقشات النظرية حول الإمكانيات الإبداعية لهذه السلالة أو تلك ولهذا الشعب أو ذاك.

إن الدراسة الجادة للمعطيات الأركيولوجية الجديدة تدفع بقوة متزايدة في اتجاه الدحض الكلي والشمولي لتلك الفرضية، وتعطي «المفتاح» لإنشاء منظور جديد لتاريخ السودان القديم الحضاري والاجتماعي. والأمر كذلك ما هي إذن الفرضية الجديدة التي تطرح نفسها كبديل علمي تدعمه المعطيات الأركيولوجية، والتاريخية، والأثنوغرافية المتوافرة في ترسانة العلم التاريخي المعاصر للسودان القديم؟

الفرضية الجديدة يمكن تلخيصها في الآتي: إن حضارة السودان القديم تشكل نتاجاً للتطور المتميز بالاستمرارية للتقاليد ابتداء من العصر الحجري الحديث وانتهاء بانتشار المسيحية في السودان. إذا ما تَم الاتفاق على هذه الفرضية وتقرر اعتمادها فإن تاريخ السودان القديم يمكن تقسيمه إلى مرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى ويمكن أن نطلق عليها تسمية «المرحلة البدائية ــ العشائرية»، والثانية «مرحلة تأسيس الدولة». المرحلة الأولى تشمل الحضارات الأركيولوجية التالية: حضارة الشهيناب النيوليتية، وحضارة المجموعة الأولى، وحضارة المجموعة الثالثة. المرحلة الثانية تشمل عصر المملكة المصرية الحديثة، وعصر مملكة نبتة ــ مروى، وعصر الحضارة المجهولة وأخيراً العصر المسيحي. أما ما أسماه ريزنر «حضارة المجموعة الثانية» فما هو إلاّ مجرد استمرارية لحضارة المجموعة الأولى كما سنوضح لاحقاً. وتقف حضارة كرمة[٢] كمرحلة انتقالية وسيطية تفصل ما بين المرحلة البدائية العشائرية ومرحلة تأسيس الدولة.

وسنتناول في هذا البحث «المرحلة البدائية ــ العشائرية» كما تبدو في ضوء أحدث المعطيات الأركيولوجية التاريخية المتوافرة.

المرحلة البدائية ــ العشائرية
في تاريخ السودان القديم

١ ــ المرحلة المبكرة
ــ حضارة المجموعة الأولى:

تم الكشف عن أقدم موقع يرجع تاريخه الى العصر الحجري الحديث في النوبة الشمالية بواسطة كل من ريزنر[٣] وفيرث[٤] في خوربهن الواقع على بعد حوالي عشرة كيلومترات جنوبي السد العالي. هذا، وقد أعطت أعمال التنقيب الأركيولوجي كميات هائلة من المصنوعات الفخارية، بخاصة الأواني المصقولة الحمراء ذات الشريط العنقي الأسود. وعُثر أيضاً على مصنوعات فخارية ذات لون بني يميل إلى السواد غطيت جدرانها بزخرف مغطى بلون أبيض. ويرى ريزنر أن هذه المصنوعات تنتمي إلى الحضارة المصرية المعروفة باسم «الحضارة الأمراتية» (نقادة الأولى)[٥]. إلّا أن باومجارتيل يعتقد بانتمائية هذه المصنوعات الأخيرة إلى الحضارة المصرية الجرزية «نقادة الثانية»[٦]. أما أعمال التنقيب التي أجراها فيرث فقد كشفت عن مدافن تنتمي الى حضارة نقادة الثانية، وعليه فقد طرح وريزنر فرضية مؤداها أن ما تم الكشف عنه من ألقاء أركيولوجية يشير الى انتشار حضارة نيوليتية واحدة في الربع الأخير للألف الرابع ق. م. في كل من إقليمي مصر العليا والنوبة الشمالية[٧].

والواقع أنه حتى مطلع العام ١٩٦٠، كانت قد تمت دراسة لموقعين فقط من المواقع الأركيولوجية النيوليتية في السودان: الأول في عبكة الواقعة في منطقة الشلال الثاني[٨]، والثاني في الشهيناب الواقعة على بعد نحو ثلاثين

كيلومترا شمالي مدينة أمدرمان(٩). والواضح أن الموقع الثاني شكل المرحلة اللاحقة لتطور الموقع الميزوليتي الذي اكتشفه آركل، في وقت سابق، في الخرطوم(١٠). وتجدر الإشارة إلى أن الأواني الفخارية وغيرها من الألقاء الأركيولوجية المميزة لحضارة الشهيناب النيوليتية تمّ العثور عليها في مناطق عديدة في أواسط السودان(١١).

لقد تم الكشف عن العديد من الألقاء الأركيولوجية المميزة لموقعي عبكة والشهيناب النيوليتيين في أعقاب أعمال التنقيب الأركيولوجي الأخيرة في السودان. وقد أصبح واضحاً الآن أن موقع عبكة هو الأقدم وأنه يشكل تفرعاً مباشراً لما يسمى بالحضارة الميزوليتية الكاراكية(١٢). أما حضارة الشهيناب فإنها تركت الكثير من بصماتها الواضحة على تطور حضارات السودان القديم اللاحقة(١٣). وسيأتي توضيح ذلك.

إذا ما تناولنا المجموعات الحضارية في سلسلة التطور التاريخي الحضاري للسودان القديم نجد أن ما يسمى بحضارة المجموعة الأولى تشكل الحلقة الأولى. وكما تمت الإشارة إليه، فإن الكشف عن مخلفات هذه الحضارة تم على يد ريزنر في بداية أعمال التنقيب الأركيولوجي التي أجراها في النوبة. وتشكل حضارة المجموعة الأولى نسقاً نيوليتياً خاصاً يحتوي على بعض المصنوعات النحاسية والألباسترية والفخارية المستوردة من مصر. وكانت المصنوعات الفخارية المصرية المستوردة من النوع الذي يصنع على عجلة الفخاري. وبعد انتهاء الموسم الأول لأعمال التنقيب قام ريزنر بإجراء المحاولة الأولى لمعالجة الألقاء الأركيولوجية وطرح فرضية مؤداها أن حضارة هذه المجموعة تشكل استمرارية للحضارة المصرية ما قبل الأسرية، والتي افترض ريزنر وصولها إلى النوبة عبر مجموعات من المهاجرين المصريين(١٤).

هذا، وقد أعطت أعمال التنقيب الأركيولوجي في السنوات الأخيرة نتائج هامة تتعلق بانتشار هذه الحضارة. فقد تم الكشف على امتداد المنطقة

الواقعة بين الشلالين الأول والثاني، وفي صرص الواقعة جنوبي الشلال الثاني، عن المواقع المميزة لحضارة المجموعة الأولى. ويتم حالياً تحديد تاريخ فترة ازدهار هذه الحضارة بالمرحلة ما قبل الأسرية المتأخرة والمرحلة الأسرية المبكرة(١٥). وتتميز حضارة المجموعة الأولى بالمصنوعات الفخارية المصقولة الحمراء المغطاة بالزخرف المتموج والتي يغلب وجودها في المدافن الخاصة بهذه المجموعة. أما في المواقع السكنية فقد تم العثور على كميات هائلة من الأواني المخصصة للاستعمال اليومي والتي تغلب فيها المصنوعات الخشنة أو المصقولة ذات اللون البني.

أغلبية الأواني المزخرفة التي تم العثور عليها في موقع حضارة المجموعة الأولى في صرص(١٦)، تحمل الكثير من أوجه الشبه إذا ما قورنت بالأواني المميزة للمواقع النيوليتية التي تم الكشف عنها في أواسط السودان مثل الشهيناب(١٧) وشقدود(١٨). هذا وقد كشفت البعثة الاسكندنافية خلال الحفريات التي أجرتها في مواقع هذه المجموعة الحضارية عن وجود المصنوعات المصقولة الملساء المميزة لهذا النسق الحضاري مقترنة بالمصنوعات ذات الزخرف المميز لنسق الشهيناب الحضاري(١٩). هذا التشابه بين المصنوعات الفخارية الخاصة بالمجموعة الأولى من جانب وبحضارة الشهيناب من الجانب الآخر، ينعكس في المقام الأول في تقنية تشكيل السطح. كذلك فإن العديد من الزخارف المميزة للمصنوعات الفخارية لحضارة المجموعة الأولى في صرص تجد ما يماثلها في مصنوعات الشهيناب(٢٠). هذا إضافة إلى أن عنق الأواني الخاصة بحضارة المجموعة الأولى يحمل النمط نفسه من الزخرف المميز للعديد من مصنوعات الشهيناب(٢١). وقد توصل نورد ستروم من خلال دراسته لتلك المصنوعات الفخارية إلى أن تشابه تطور التقاليد والخبرات الحرفية في أواسط السودان والنوبة الشمالية بالامكان تفسيره فقط عبر طرح فرضية انتمائية الأقليمين إلى نسق حضاري مشترك(٢٢).

أما في ما يتعلق بمسألة التركيب السلالي لسكان موقع خوربهن فقد تم طرح

فرضيتين: الأولى ترى أن حضارة بهن تمثل المرحلة الأولية للهجرات إلى النوبة الشمالية[٢٣]. ويرى فيرث وريزنر أن الهجرة من مصر كانت نتيجة للانفجار السكاني في عصر الحضارة الأمراتية (نقادة الأولى)، وعصر الحضارة الجرزية (نقادة الثانية). أما شتايندورف[٢٤] وجريفيث[٢٥]، اللذان ينطلقان من هذه الفرضية نفسها فيعتقدان بأن خور بهن والمواقع المشابهة كانت عبارة عن معسكرات تجارية أنشئت في عصر نقادة الثانية على أيدي المصريين للتبادل التجاري مع أقاليم أواسط أفريقيا. أما الفرضية الثانية والتي كان يونكر أول من قام بطرحها فتشير إلى الخصائص المميزة لحضارة بهن والتي تجعلها مختلفة عن الحضارة التي سادت في مصر في تلك الفترة[٢٦]. ويتوصل يونكر للاستنتاج أن خور بهن شكل مركزاً لمجموعة سلالية مختلفة عن سكان مصر العليا، بالرغم من تعرض الأولى للتأثيرات الحضارية المصرية الواضحة. ويرى يونكر أن وجود المواقع في الكبانية الجنوبية إنما يدل على انتشار تلك المجموعة السلالية شمالاً حتى جبل سلسيلا. لكن الملاحظ أن استنتاج يونكر يحتوي على بعض نقاط الضعف. فإذا ما افترضنا أن حملة حضارة نقادة الثانية قد هاجروا بالفعل للاستقرار في النوبة الشمالية، فقد يصبح من الممكن اعتبار الاختلافات النمطية الحضارية التي يشير إليها مجرد تفرعات إقليمية ناتجة عن انتشار الحضارة الجرزية في المناطق الواقعة جنوباً. ثم إن هناك احتمالاً نظرياً بأن يكون سكان النوبة الشمالية في تلك الفترة منتمين إلى مجموعات سلالية مختلفة وليس إلى مجموعة واحدة.

إن الأساس الذي تم اعتماده في تحديد تاريخ مدافن ذلك العصر، انحصر في المصنوعات المميزة للحضارة الجرزية التي عثر عليها داخل تلك المدافن. لكن الأواني المصنوعة من الحجر والمميزة لحضارة مصر في تلك الفترة سجلت غياباً كلياً في هذه المدافن، بينما تم العثور في هذه المدافن، ولأول مرة، على المصنوعات الفخارية ذات العنق الأسود والتي شكلت في الغالب، حسب رأي فيرث، منتوجاً سودانياً محلياً[٢٧]. وعلى الرغم من وجود

العديد من المصنوعات الفخارية المستوردة من مصر، فإنه من الممكن اعتبار ظهور الفخار ذي العنق الأسود بداية مرحلة محددة لتطور التقاليد الحضارية المحلية في السودان القديم، وبالتالي فإن هذه الحقيقة تنفي استنتاجات كل من ريزنر وفيرث حول الهجرات المصرية إلى النوبة الشمالية كمرتكز فهم وإدراك للمراحل الأولى لتطور الحضارة السودانية القديمة.

إن ازدياد عدد السكان في النوبة الشمالية في تلك الفترة، حسب تريجر[٢٨]، يمكن إرجاعه إلى أسباب ثلاثة:

١ ـ التزايد السكاني الطبيعي الذي شهدته مصر العليا في المرحلة السابقة لحضارة بهن.

٢ ـ انتشار النمط الحضاري المميز لموقع بهن وسط سكان النوبة الشمالية.

٣ ـ وصول دفعات من المهاجرين إلى النوبة الشمالية من مصر.

أياً يكن الأمر فإن النقطة الجوهرية تنحصر في حقيقة كون الاختلافات بين الحضارة الجرزية وحضارة النوبة الشمالية أخذت في الوضوح والتمايز أكثر فأكثر في ما بعد. وفي اعتقادنا أن في هذا دليلاً واضحاً على وصول الحد الأدنى من الهجرات المصرية، إذا ما وجدت، إلى النوبة الشمالية. ويبدو لنا أن وجود المصنوعات المصرية يشكل أرضية لطرح فرضية وجود نوع من العلاقات بين الإقليمين بدون أن تكون تلك العلاقات ناشئة بالضرورة عبر الهجرات الفعلية.

لقد أوضحت أعمال التنقيب الأركيولوجي في بوهين أن المصريين قاموا في عصر المملكة القديمة باستغلال مصادر النحاس المتوافرة في النوبة الشمالية[٢٩]. وما من شك في أن هذه الحقيقة تفسّر وجود العديد من المصنوعات النحاسية في مقابر حضارة المجموعة الأولى.

استناداً إلى ما تقدم يصبح بالإمكان تقديم فرضية جديدة تختلف عن الفرضيتين السابقتين، وهي أن حضارة المجموعة الأولى تشكل نتاجاً محلياً مباشراً لحضارة الشهيناب النيوليتية، وما الاختلاف بين هاتين الحضارتين إلاّ مجرد اختلاف فراغي جغرافي وكرونولوجي. وقد سبق أن تم طرح هذه الفرضية بشكل معمم من قبل آدمز في عام ١٩٦٧[٣٠]. إن الدراسات الأركيولوجية الأخيرة التي أجريت في النوبة الشمالية تشير إلى أنه كلما ازداد ابتعاد مواقع حضارة المجموعة الأولى جنوباً، قلَّت التأثيرات الحضارية المصرية وازدادت أوجه الشبه مع نمط حضارة الشهيناب. ولا شك في أن حضارة مصر ما قبل الأسرية تركت تأثيراً على تطور حضارة المجموعة الأولى. ونفي مثل ذلك التأثير غير وارد، لكن التوصل من خلال تضخيم التأثيرات الى الاستنتاج أن مبدعي هذه الحضارة كانوا من المهاجرين المصريين الذين وصلوا إلى النوبة الشمالية هو ما يمكن الاعتراض عليه. فكل الدلائل تشير في وضوح إلى أن فرضية ريزنر وفيرث المبنية على نظرية الانتشار الحضاري لا تجد من المعطيات الأركيولوجية ما يكفي لدعمها وتبريرها.

كذلك تنعدم المعطيات التاريخية التي تدعم الفرضية الخاصة بالعلاقة العدوانية من قبل مصر تجاه النوبة الشمالية في الفترة ما قبل الأسرية، أي في الفترة السابقة لتوحيد مصر. تأخذ الأوضاع في التبدل فقط بعد توحيد شطري مصر. فقد تم العثور على لوحة يرجح جداً أنها تعود إلى فترة حكم حور-اخا كرست لتمجيد انتصار حققه هذا الفرعون على قبائل النوبة الشمالية[٣١]. كذلك عثر على نقش في منطقة النوبة الشمالية يشير إلى الحملة التي أرسلها الفرعون دجر. وقد مرت الحملة بالقرب من جبل شيخ سليمان وهي في طريقها إلى الجنوب، وخلفت هناك النقش الشهير الذي أثار تفسيره جدلاً بين العلماء[٣٢]. فبعض العلماء يرى أن حملات الفرعونين دجر وأوادجي على النوبة الشمالية كانت ذات طابع تجاري وليست حملات عدوانية استيطانية. أما آركل فإنه يرى أن

نقش دجر يحمل إشارة واضحة إلى احتلال إقليم النوبة الشمالية من الشلال الأول حتى وادي حلفا. ومما لا شك فيه أن فراعنة الأسرة المصرية الرابعة حتى نهاية حكم بيوبي (بيبي) الأول كانوا قد نجحوا في فرض سلطاتهم ونفوذهم على حكام الإقليم الجنوبي لمصر، وبالاعتماد عليهم امتدت السلطة الفرعونية أكثر فأكثر نحو الجنوب. لكن القول بأن مصر في فترة حكم دجر وأوداجي استطاعت احتلال الأراضي النوبية يظل فرضية لا تجد من الوقائع ما يدعمها.

انطلاقاً من المعطيات الأركيولوجية المتوافرة من المدافن الخاصة بحضارة المجموعة الأولى، يمكن القول إن فترة ازدهار هذه الحضارة تميزت بالتطوير اللاحق للحرف، الأمر الذي تدل عليه الأدوات النحاسية والمصنوعات الفخارية الأكثر دقة، وبعض مظاهر التطور في التكنيك الزراعي بالرغم من عدم نشوء شبكة للري الاصطناعي في النوبة الشمالية في تلك الفترة.

٢ ــ حضارة المجموعة الثانية بين الحقيقة والوهم:

يرى الأكاديمي السوفياتي بياتروفسكي أنه منذ مطلع الأسرة المصرية الثالثة أخذت حضارة النوبة الشمالية في التفرد، وأخذ التركيب السلالي في التبدل بوصول هجرات القبائل الرعوية من الأقاليم الجنوبية، وأخذت السمات الزنجية تبدو أكثر وضوحاً من الناحية الفيزيائية[٣٣].

والملاحظ أن علماء الآثار يرجعون الى هذه الفترة ظهور نسق حضاري جديد أعقب حضارة المجموعة الأولى. وقد أطلق ريزنر على هذا النسق الحضاري الجديد مصطلح «حضارة المجموعة الثانية ــ B-Group» التي ظل حملتها يسكنون أقاليم النوبة الشمالية في عصر المملكة المصرية القديمة. ولكن نظراً الى غياب أي نوع من المواقع السكنية في النوبة الشمالية التي يمكن إرجاع تاريخها الى تلك الفترة، فإن فرضية ريزنر اعتمدت كلياً على التحليل المقارن للمواد والألقاء الأركيولوجية التي عثر عليها في مدافن تلك الفترة. ففي أعمال

التنقيب التي قام بها بين عامي ١٩٠٧ و١٩٠٨ في منطقة الشلال (الجبانة الرقم «٧») والتي ترجع الى حضارة الجبانة الثانية (؟)، بحسب رأيه، اتضح أن واحدة وثلاثين مقبرة من مقابر تلك الجبانة احتفظت بالوضع الأصلي للجثمان. وكان وضع الجثمان فيها جميعها ملتوياً، إلاّ أنه في عشرين منها اتخذ الجثمان الملتوي رقدة على الجانب الأيسر، وفي عشر على الجانب الأيمن، أما في الأخيرة فكان الجثمان الملتوي يرقد على ظهره. ومن بين مجمل مدافن هذه الجبانة والبالغ عددها أربعة وخمسين مدفناً يرجع تاريخها الى العصر الأسري المبكر، سجل ريزنر الوضع الملتوي على الجانب الأيسر في اثنين وخمسين منها، وعلى الجانب الأيمن في المدفنين الباقيين[٣٤]. ويلاحظ ريزنر أن ما يميز مدافن حضارة المجموعة الثانية هو الوضع الملتوي على أحد الجانبين الأيسر أو الأيمن، خلافاً لما يميز حضارة المجموعة الثالثة اللاحقة[٣٥]. ويلاحظ ريزنر أيضاً عدم الوحدة من حيث اتجاه الدفن في مدافن حضارة المجموعة الثانية. فمن بين الأربعة والخمسين مدفناً التي سبق ذكرها كان الاتجاه الجنوبي هو المميز لخمسين منها، بينما كان اتجاه الأربعة المتبقية إلى الغرب[٣٦]. وفي الوقت نفسه يؤكد ريزنر الالتزام الحديدي بالاتجاه الشرقي المميز لمدافن حضارة المجموعة الثالثة[٣٧]. ومن اللافت للنظر وجود أعداد ضخمة من مدافن المجموعة الثانية الخالية من المرفقات الجنائزية بما في ذلك المصنوعات الفخارية. ويشير ريزنر إلى ندرة الفخار في المدافن الفقيرة التي ترجع إلى عصر المملكة القديمة، وبخاصة عصر الأسرتين الرابعة والخامسة[٣٨]. كما أن المصنوعات الفخارية تفتقر إلى التنوع في الشكل المميز للمصنوعات الفخارية في المرحلة ما قبل الأسرية والمرحلة الأسرية المبكرة. ويلاحظ ريزنر أن أكثر السمات المميزة للفخار الذي عثر عليه في مدافن المجموعة الثانية هي الكؤوس ذات الجدران السميكة بما في ذلك ذات اللون الرمادي والعنق الأسود[٣٩].

لقد حاول ريزنر تحديد الخصائص المميزة لكل من المرحلتين المبكرة والمتأخرة لحضارة المجموعة الثانية إذ يرى أن الاتجاهين الشرقي والغربي

للمدافن، بالمقارنة مع الاتجاه الجنوبي، وكذلك الوضع الملتوي للجثمان على الجانب الأيمن هي ما يميز في الغالب مدافن المرحلة المبكرة. أما مدافن المرحلة المتأخرة فتتميز بوجود الفخار «النوبي» الخشن ذي العنق الأسود(٤٠)، وبغلبة الاتجاهين الشمالي والشرقي على الاتجاهين الجنوبي والغربي، ووضعية الجثمان في معظم الحالات على الجانب الأيسر(٤١). كما أن ريزنر يلاحظ وجود قطع من الحجارة في مدافن عصر المملكة القديمة والتي يعتقد أنها بقايا لمبانٍ فوقية صغيرة(٤٢). كذلك سجل فيرث وجود بقايا مبان فوقية مستديرة من الحجر فوق سطح بعض المدافن التي قام بدراستها والتي يرى أنها تشبه المباني الفوقية المميزة للمرحلة الانتقالية من العصر الأسري المبكر إلى عصر حضارة المجموعة الثانية(٤٣).

وقد لخص ريزنر استنتاجاته كالآتي:

«بعد انقضاء المرحلة الأسرية المبكرة حتى بداية المملكة الحديثة ضعفت الصلات بين مصر والنوبة الشمالية. في هذه الفترة كانت النوبة الشمالية خالية من السكان. والمدافن المميزة التي يمكن إرجاعها إلى تلك الفترة هي التي نطلق عليها تسمية مدافن حضارة المجموعة الثانية وحضارة المجموعة الثالثة في الشلال. مقارنة مدافن المجموعة الثانية ٧: ٢٠١ ـ ٢٦٨ بمدافن العصر الأسري المبكر ٧: ٣٠١ ـ ٣٦١ تشير إلى أن الأولى تعقب الثانية كرونولوجياً بصورة مباشرة. وتختلف الأولى عن الثانية من حيث اتجاه المدفن ومن حيث المصنوعات الفخارية. أما من حيث نوع المقابر والدفن والمرفقات الجنائزية فإن الأولى تعقب الثانية بلا أدنى شك»(٤٤).

بهذا يصبح واضحاً أن ريزنر بدأ أعماله بأمل الكشف عن مدافن للمملكة القديمة في إقليم النوبة الشمالية، وأن إفرازه لحضارة «المجموعة الثانية» اعتمد في الأساس على تحليل ريزنر الذاتي لأنواع المدافن في جبانة الشلال التي تحمل الرقم «٧».

وقد تقبل فيرث من جانبه تحديد ريزنر وتأريخه لحضارة المجموعة الثانية. وأكد فيرث في عمله المكوّن من ثلاثة مجلدات «الاستكشاف الأركيولوجي للنوبة» على استنتاجات ريزنر(٤٥). وبين عامي ١٩١٠ و١٩١١، نجح يونكر في الكشف عن جبانة كبيرة في الكبانية الجنوبية احتوت على مواد مشابهة لما عثر عليه كل من ريزنر وفيرث. وتقبل يونكر فرضية ريزنر واستنتاجاته المتعلقة بحضارة المجموعة الثانية، لكنه اقترح تصنيفاً جديداً للمواد والألقاء الأركيولوجية التي عثر عليها حيث قسمها إلى: مبكرة، وأصيلة، ومتأخرة(٤٦). ولم يحدد يونكر هذه المراحل الثلاث على أساس تحليل مستقل وإنما اعتماداً على التحديد الذي طرحه كل من ريزنر وفيرث لأنه كان يهدف إلى تسهيل عملية الدراسة المقارنة للمعطيات التي حصل عليها في الكبانية الجنوبية والمعطيات التي أسفرت عنها أعمال ريزنر وفيرث.

أما أيمري وكيروان فقد عثرا خلال أعمال الاستكشاف الأركيولوجي التي أجرياها في المنطقة الممتدة من وادي السبوا حتى الحدود السودانية جنوباً، عثرا على جبانتين فقط حددا انتمائيتهما الى حضارة المجموعة الثانية. إلا أن أيمري وكيروان لم يستطعا تحديد تاريخ دقيق لمعظم المدافن التي قاما بحفرها، ولذلك لجأ كل منهما إلى إعطاء تاريخ معمم بعض الشيء (المرحلة المبكرة أو المتأخرة لحضارة المجموعة الثانية)(٤٧). هذا بينما نجد أن سميث حظي، خلال أعمال التنقيب الأركيولوجي التي أجراها في النوبة الشمالية، بالعثور على مدفن واحد فقط ينتمي الى حضارة المجموعة الثانية(٤٨). أما البعثة الأركيولوجية التابعة لأكاديمية العلوم السوفياتية فقد تمكنت من الكشف عن جبانة تنتمي الى حضارة المجموعة الثانية (؟) بالقرب من قرية كشتامانة الغربية(٤٩). لكن لا بد من الإشارة هنا إلى حقيقة ذات أهمية لموضوعنا وهي أن أعمال التنقيب الأركيولوجي الأخيرة في النوبة الشمالية لم تكشف عن أية معطيات يمكن إرجاعها إلى حضارة المجموعة الثانية.

وعليه، فإن فرضية وجود مجموعة حضارية مستقلة تسمى بالمجموعة الثانية ضمن المجموعات والأنساق الحضارية السودانية القديمة، أصبحت اليوم بمثابة إشكالية علمية لم يبت في أمرها نهائياً خصوصاً إذا ما وضعنا في اعتبارنا الكميات الهائلة من المعطيات الأركيولوجية التي تم الكشف عنها في المدة الأخيرة. من هنا جاء اعتراض سميث على فرضية ريزنر حول وجود هذه المجموعة الثانية كنسق حضاري مستقل(٥٠). وتوصل سميث انطلاقاً من دراسته المقارنة للمدافن ذاتها التي اعتمدها ريزنر من الجبانة ٧:٢٠١ ـ ٢٦٨ إلى الاستنتاجات التالية:

١ ـ استنتاجات ريزنر حول أن الجبانة ٧:٢٠١ ـ ٢٦٨ تشكل مجموعة مستقلة غير واضحة وغير مؤسسة.

٢ ـ المعلومات التي تعطيها تلك المدافن غير متجانسة. وقد أشار ريزنر نفسه إلى اختلافها عن المدافن الأسرية المبكرة في نفس الجبانة ٧:٣٠١ ـ ٣٦١.

٣ ـ المرفقات الجنائزية الموجودة في مدافن الجبانة ٧:٢٠١ ـ ٢٦٨ مجانسة لتلك المميزة لمدافن المجموعات الحضارية ما قبل الأسرية الأخرى في السودان القديم.

وعلى ذلك يرى سميث أن الجبانة ٧:٢٠١ ـ ٢٦٨، لا تنتمي إلى عصر المملكة القديمة كما يؤكد على ذلك ريزنر وغيره من الباحثين، وإنما تعود إلى مراحل أخرى، ولا سيما المرحلة ما قبل الأسرية.

لقد قام سميث بدراسة الألقاء الأركيولوجية التي اكتشفها كل من ريزنر وفيرث، وأيمري، وكيروان، ويونكر، وانتهى الى الاستنتاجين التاليين:

١ ـ المعطيات المتوافرة حالياً غير كافية للتأكيد على فرضية ظهور مجموعة سكانية جديدة تحمل نسقها الحضاري الخاص المتميز في النوبة الشمالية في عصر المملكة القديمة.

٢ ـ لا يوجد مدفن واحد يمكن إرجاع تاريخه الى عصر الأسرتين الأولى والثانية. هذا مع ملاحظة أن ذلك لا يدعم غياب أي نوع من المدافن التي يمكن إرجاع تاريخها إلى تلك الفترة نظراً إلى وجود آلاف المدافن المسروقة في المنطقة الواقعة بين أسوان وسمنة، والتي لم يحدد تاريخها حتى الآن.

أما المعطيات الأبيجرافية المتوافرة فإنها تشهد بحقيقة أن النوبة الشمالية كانت مأهولة بالسكان. وقد ساعدت تلك الحقيقة ريزنر على الدفع بفرضيته الخاصة بحضارة المجموعة الثانية معتمداً على المواد الأبيجرافية التالية:

١ ـ مسلة الفرعون خع ـ سخم من هيراكليوبول حيث صور عدو الفرعون وفوق رأسه رمز ستي (Sti)[٥١].

٢ ـ ما يعرف بحجر باليرمو حيث يذكر: با ـ نحسي ـ و ـ انت سقر ـ و ـ عنخو ٧٠٠٠ منمنت ٢٠٠٠٠٠ (إخضاع بلاد النحسي ـ وجلب سبع آلاف من الأسرى، ومئتي ألف رأس من المواشي)[٥٢].

وتوجد نقوش سابقة عثر عليها في مقطع الحجارة الواقع في الصحراء غربي توشكي[٥٣]، وفي قلعة بوهين[٥٤]. من نقوش بوهين التي يرجع تاريخها الى فترة حكم الفرعون خوفو يتضح أن القبائل التي أخضعها خع ـ سخم والتي قام سنغرو بتهجيرها كانت تسكن المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثاني.

وعليه، فإن المعطيات الأبيرجافية تشير إلى كثرة تعداد سكان النوبة الشمالية في تلك الفترة، بينما لا تشير المعطيات الأركيولوجية إلى وجود جبانات يرجع تاريخها إلى تلك الفترة. كيف يمكن إذن تفسير هذا التضارب بين نوعي المصادر التاريخية المشار إليهما؟

لقد سبق أن أشار فيركوتي إلى أن نسبة السكان بالمقارنة مع المواشي التي غنمها سنغرو من النوبة الشمالية تشكل ١ : ٣. وفي رأي فيركوتي أن هذه الحقيقة إنما تدل على الطابع الرعوي لنمط حياة تلك القبائل[٥٥]. هذا النقش

نفسه يمكن بالتالي أن يعطي إمكانية طرح فرضية بشأن الطابع البدوي المتنقل المميز للنمط الاقتصادي الحضاري لتلك القبائل. لقد أثبت جاكسون أن المناطق الصحراوية الواقعة شرقي النيل وغربه كانت في مرحلة ما مغطاة بالنباتات ولم تكن قاحلة بالشكل الذي هي عليه اليوم(٥٦) وتؤكد على ذلك المعطيات الأركيولوجية التي حصل عليها موري في الصحراء الشرقية حيث تم العثور على جبانة تحتوي على بقايا عظمية لبعض المواشي(٥٧)، وكذا معطيات التنقيب الأركيولوجي في الصحراء الكبرى في منطقة «الوادي الأخضر» حيث تم العثور على مدافن بشرية(٥٨). كما أن البعثة الأركيولوجية التابعة لأكاديمية العلوم السوفياتية عثرت على مدافن للحيوانات في الجبّانة الغربية في قرية كشتامانة والتي أرخ لها فينوجرادوف بعصر حضارة المجموعة الثانية(٥٩).

حسب رأي سميث، فإن الغطاء النباتي في المرحلة المعنية لا يعطي أساساً كافياً للاستنتاج بالطابع المستقر للنمط الاقتصادي الحضاري لسكان النوبة الشمالية بقدر ما قد يشير فقط إلى إمكانية نشوء الرعي المتنقل(٦٠). ويعتمد في طرح هذه الفرضية على حقيقتين:

١ ـ في الموقع الذي عثر عليه أيمري في بوهين والذي يرجع تاريخه إلى عصر المملكة القديمة فإن ٥ ٪ فقط من مجمل الجماجم التي عثر عليها حددت انتماءيته «النوبية»(٦١)؛

٢ ـ النقش الهيروغليفي الذي عثر عليه في الصحراء غربي توشكي يدل على أن عمال المناجم هناك كانوا من المصريين وليس من السكان المحليين(٦٢). هاتان الحقيقتان تشيران، في رأي سميث، إلى غياب السكان المحليين حملة حضارة المجموعة الأولى عن هذه المنطقة في تلك الفترة المحددة.

إذا ما تم اعتماد فرضية سميث بشأن الطابع الرعوي المتنقل للنمط الاقتصادي الحضاري في النوبة الشمالية، فإن غياب المدافن في تلك الفترة

المحددة بالإمكان تفسيره لأن الرعاة، خلافاً للسكان الزراعيين المستقرين، لم تكن لديهم أماكن محددة لدفن موتاهم.

لكن كيف يمكن تفسير حقيقة كون النوبة الشمالية التي كانت مأهولة بالسكان المستقرين خلال العصر ما قبل الأسري، وفي عصر سيادة حضارة المجموعة الأولى، أصبحت فجأة خالية من السكان في الفترة الممتدة من الأسرة الأولى حتى الرابعة، لتعود وتصبح مأهولة من جديد ابتداء من أواخر عصر الأسرة الرابعة. إجابة سميث على ذلك تنحصر في أن نهاية عصر سيادة حضارة المجموعة الأولى ترتبط بسنوات حكم دجر وليس بفترة لاحقة في أي حال. وما دام الأمر كذلك، فإنه من المحتمل أن يكون النشاط العسكري الذي قام به دجر، كما هو واضح من نقش جبل شيخ سليمان المشار إليه آنفاً، ومن الحملة العسكرية التي قام بها حور ــ اخا على النوبة الشمالية، هو ما دفع السكان المحليين المسالمين من حملة حضارة المجموعة الأولى إلى الهجرة ابتعاداً عن أسنة الرماح المصرية. وأغلب الظن أن ما نتج عن حملة دجر يشابه ما نتج عن حملة سنغرو في ما بعد. إن سياسة السبي، والأسر، والنفي، والتدمير لا بد أن تدفع السكان المحليين إلى البحث عن مكان آمن بعيداً عن الغزاة، أي إلى الهجرة جنوباً نحو الأقاليم الأكثر بعداً عن حدود مصر الجنوبية.

إن الفرضية الخاصة بوجود حضارة المجموعة الثانية كنسق حضاري مستقل لا تجد من المعطيات الأركيولوجية ما يؤكد صحتها. وقد كتب سيودبيرج:

> «مسألة تحديد تاريخ انتهاء أو زوال حضارة المجموعة الأولى ما زالت تواجه حتى الآن صعوبات كبيرة. إن دراسة المنطقة الواقعة على ضفتي النيل امتداداً من صرص في الشمال حتى وادي حلفا في الجنوب لم تعط أية مواد يمكن تحديد انتمائيتها إلى حضارة المجموعة

الثانية. وليس في المعلومات المتوافرة ما يفيد أن بعثة من البعثات الأركيولوجية العاملة في السودان حققت نجاحاً في تسجيل مثل هذا النوع من المواد»[٦٣].

هذه الحقيقة فضلاً عن المصنوعات الفخارية المميزة لحضارة المجموعة الأولى والتي عثر عليها في بوهين تشير إلى أن حضارة المجموعة الأولى في السودان القديم شغلت حيزاً زمنياً أطول مما تصوره الباحثون. وقد حلت محلها مباشرة حضارة المجموعة الثالثة بدون وجود أي نسق حضاري انتقالي كما يعتقد ريزنر. وحقيقة الألقاء الأركيولوجية التي يرى ريزنر وغيره من الباحثين انتمائيتها إلى ما يسمى بحضارة المجموعة الثانية، ليست في نهاية المطاف إلاّ مجرد آثار تنتمي إلى الفئات الأكثر فقراً من حملة حضارة المجموعة الأولى.

وعليه فإن معطيات الحضارة المادية المتوافرة تشير بدون أدنى شك، إلى أن الاختلاف بين نوعي المدافن ـ (المجموعة الأولى وما يعرف بالمجموعة الثانية) هو مجرد اختلاف ذي طابع اجتماعي ـ اقتصادي، وهو بالتالي أبعد ما يكون عن كونه اختلافاً كرونولوجياً. هذه الحقيقة ذات دلالة كبيرة بالنسبة الى دراسة التاريخ الاجتماعي الاقتصادي للسودان القديم. فقد سادت في السابق الفكرة القائلة بأن مقابر حضارة المجموعة الأولى لا تعطي مؤشرات إلى وجود اختلافات جوهرية على صعيد الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية. إن اعتماد فرضية عدم وجود حضارة المجموعة الثانية إنما يعني طرح فرضية جديدة حول وجود نوع من الاختلاف في الوضع الاجتماعي الاقتصادي وفي علاقات توزيع العائد الإنتاجي في إطار النسق الحضاري للمجموعة الأولى.

٣ ـ حضارة المجموعة الثالثة (C-Group):

عندما كشف ريزنر النقاب للمرة الأولى عن آثار حضارة المجموعة الثالثة (C-Group) قرر أن فترة انتشار هذه الحضارة تتزامن مع عصر المملكة

المصرية الوسطى(٦٤). وذهب جريفيت في ما بعد إلى أن معظم آثار هذه الحضارة تتزامن مع الفترة التاريخية المعروفة بـ «المرحلة الانتقالية الأولى» في تاريخ مصر القديم. ويرى جريفيث أن احتلال سنوسرت الثالث للمنطقة الشمالية من النوبة شكل الضربة القاصمة بالنسبة إلى وجود هذه الحضارة(٦٥).

حالياً، تأكدت حقيقة أن فترة انتشار هذه الحضارة تشمل حيزاً زمنياً طويلاً يمتد من الأسرة السادسة حتى الأسرة المصرية الثامنة عشرة أي أنها تشمل المرحلة الانتقالية الأولى، وعصر المملكة المصرية الوسطى، والمرحلة الانتقالية الثانية، وبداية عصر المملكة المصرية الحديثة. وتؤرخ آثار حضارة المجموعة الثالثة اعتماداً في الأساس على بعض الأواني الشبيهة بالأواني المصرية التي عثر عليها في جبانات هذه المرحلة، وكذلك بالاعتماد على بعض البضائع المستوردة القليلة التي عثر عليها في تلك الجبانات(٦٦).

ومنذ بداية الأعمال الأركيولوجية الأولى في النوبة أجريت محاولة لتحديد كرونولوجي أكثر تفصيلاً لهذه المرحلة التي شغلت حيزاً زمنياً يقرب من ألف عام. وقد ساعدت المصنوعات الفخارية المصرية التي تشبه من حيث الشكل ما تم العثور عليه في النوبة على تحديد تاريخ بعض المجموعات المتفرقة من المدافن، وعلى إنشاء كرونولوجية نسبية للأنماط والأنساق المختلفة لعادات الدفن(٦٧). ومن أكثر عادات الدفن شيوعاً وضع الجثمان على جانبه الأيمن مع الاحتفاظ بالتوجه الجغرافي شرق ــ غرب، واتجاه الوجه ناحية الشمال. وفي أواخر مراحل وجود هذه الحضارة يتم الانتقال إلى وضع جديد للجثمان بالاتجاه الجغرافي شمال ــ جنوب، ولكن مع بعض حالات الدفن بالوضع الممدد للجثمان على الجانب الأيسر. ويتبدل إلى حد ما تركيب المدفن بحيث تبنى غرفة صغيرة من الطوب غير المحروق على الجدار الشمالي للمبنى الدائري، وكذلك تظهر مقابر مشيدة على شكل قبو (أي ما يسمى بالمقابر المعقودة). ويتبدل موضع المرفقات الجنائزية إذ يتحول وضع الأواني من الجانب الشرقي للمقبرة حيث

كانت توضع في السابق إلى الجانب الشمالي. كما تلاحظ بعض التبدلات في التفاصيل الأخرى للمدافن.

في عام ١٩٣٥، قام شتايندورف بطرح تقسيم مرحلي جديد أكثر تفصيلاً لأطوار حضارة المجموعة الثالثة(٦٨)، معتمداً في ذلك على الاختلافات في طقوس الدفن وفي المرفقات الجنائزية. وقد أفرز شتايندورف أربع مراحل تبدأ من نهاية الأسرة المصرية السادسة وتستمر حتى بداية المملكة المصرية الحديثة(٦٩). وما دامت دراسة كرونولوجية المصنوعات الفخارية محدودة للغاية فإن التقسيم المرحلي يعتمد فقط على طقوس وعادات الدفن. ويفرز فيرث سبع مجموعات للمصنوعات الفخارية التي تم العثور عليها في جبانات هذه المجموعة الحضارية نذكر منها: (٧٠)

١ ــ الكؤوس والأقداح المصقولة الحمراء ذات العنق الأسود؛

٢ ــ الكؤوس المصقولة الحمراء ذات العنق الأسود والزخرف المحزز على جدرانها الخارجية والذي يغطى عادة بلون أبيض؛

٣ ــ الأقداح أو القلل الخشنة الصنع ذات العنق الضيق والمتميزة بالزخرف المحزز؛

٤ ــ الأواني الكبيرة التي تستخدم لحفظ الماء، والقلل الكبيرة الصفراء أو البرتقالية اللون ذات الجدران النحيفة (من نوع ما يعرف حالياً باسم الزير)؛

٥ ــ الأواني المصنوعة على عجلة الفخاري والشبيهة بالأواني المصرية في شكلها الخارجي، والتي تصنع محلياً أو تستورد من مصر.

ولقد سادت في أوساط العلماء فرضية مؤداها أن حضارة المجموعة الثالثة أخذت في الظهور مع بداية المرحلة الانتقالية الأولى. ولكن ــ وانطلاقاً من بعض المعطيات، وبخاصة ما يسمى بـ «الأختام الزرارية» ــ يحتمل أن يعود

تاريخ ظهور هذه الحضارة إلى نهاية عصر المملكة المصرية القديمة. وكان فلندرز بيتري هو أول من قام بدراسة هذه الأختام التي يرجع تاريخها الى الفترة الواقعة بين عصر الأسرة الرابعة والمملكة المصرية الوسطى[٧١]. وقد عثر شتايندورف في جبانة حضارة المجموعة الثالثة في عنيبة على عدد من الأختام الزرارية التي يرجع تاريخها الى عصر الأسرة المصرية السادسة[٧٢]. وعثر أيمري وكيوان خلال أعمال الاستكشاف الأركيولوجي التي أجرياها في النوبة الشمالية، على ختم زراري من ذلك النوع بجانب قلة ذات عنق أسود من نوع القلل المميزة لحضارة المجموعة الثالثة[٧٣]. ويشيران أيضاً إلى عثورهما على أربعة أختام أخرى يرجع تاريخها الى عصر الأسرة السادسة في جبانات حضارة المجموعة الثالثة في دكة[٧٤]. أما سيودربيرج فقد حظي بالعثور على ختمين من هذا النوع في دبيرة[٧٥]. ويتحدث مييرز عن عثوره في أرمانتا على بعض الشقوف التي يرجع تاريخها الى المرحلة المبكرة لانتشار حضارة المجموعة الثالثة. ويرى مييرز أن تاريخها يرجع الى عصر الأسرة السادسة أيضاً[٧٦]. وطرح تريجر فرضية مؤداها أن المواقع السكنية النوبية التي مر خويفخور عبرها في طريقه إلى يام كانت قرى للسكان النوبيين من حملة حضارة المجموعة الثالثة. ويرى تريجر أن المعطيات الأبيجرافية المتوافرة تدعم فرضيته هذه[٧٧].

بعد أعمال التنقيب الأركيولوجي الأولى التي أجريت في النوبة افترض ريزنر أن حضارة المجموعة الثالثة تشكل حلقة لاحقة في تطور الحضارة السابقة لها في هذا الإقليم[٧٨]. ولكن انتشرت في ما بعد الفكرة الخاصة بظهور عناصر جديدة كلياً تميز حضارة المجموعة الثالثة والتي لم يكن لها وجود في الأنساق الحضارية السابقة، وبالتالي تم طرح الفرضية التي مؤداها أن هذه العناصر الجديدة ظهرت نتيجة وصول قبائل رعوية أخرى إلى التوبة الشمالية[٧٩]. فمثلاً يرى فيرث أن حملة حضارة المجموعة الثالثة وصلوا إلى النوبة الشمالية إما من الصحراء الشرقية أو من الأقاليم الواقعة على نهر

عطبرة[٨٠]. ويطابق ميردوك بين هذه المجموعة وقبائل البجة مؤكداً أن حملة المجموعة الثالثة جلبوا معهم إلى النوبة تقليد الاستفادة من ألبان الأبقار[٨١]. ويوافق يونكر على فرضية الأصل الحامي لحملة حضارة المجموعة الثالثة[٨٢]. أما بيتس[٨٣]، وأيمري، وكيروان[٨٤] فيحتفظون بالرأي القائل بالأصول الغربية ـ الليبية لحملة حضارة المجموعة الثالثة.

كل هذه النظريات التي تعتمد على مبدأ «الانتشار الحضاري» ليس لها أساس علمي جاد يدعمها. وفي هذا المجال يرى رووز أن طرح مثل هذه الفرضيات يتطلب بالضرورة إعطاء إجابات على عدد من المسائل ذات الأهمية القصوى:

١ ـ هل تختلف آثار الحضارة المادية للقبائل المدعى قدومها عن آثار الحضارة التي سادت في الإقليم الذي تمت الهجرة إليه؟

٢ ـ هل تم الكشف عن آثار مميزة بصفة خاصة لحملة الحضارة الجديدة؟

٣ ـ هل بالإمكان تحديد المنطقة التي وصلت منها الهجرات، وهل يوجد في تلك المنطقة شيء من الآثار المميزة لهذه الحضارة الجديدة؟

٤ ـ هل تمت دراسة الامتداد الجغرافي لهذه الآثار وتسلسلها الكرونولوجي؟

٥ ـ هل تمت مراعاة مجمل العناصر الحضارية والجغرافية، وكذلك مجمل الإمكانيات الضرورية والظروف الدافعة الى الهجرة؟

إن اللغات التي كانت سائدة في شمال شرق أفريقيا في العصر السابق لانتشار الإسلام تؤكد الاستقرارية طويلة الأمد للتركيب السلالي في هذا الإقليم. فحسب جرينبرج[٨٦] فإن اللغات الكوشية للصحراء الشرقية، واللغات التشادية والبربرية للصحراء الغربية، واللغة المصرية القديمة، واللغات السامية

تشكل خمسة فروع لما يسميه بـ «عائلة اللغات الأفرو ـ آسيوية»، في حين أن معظم اللغات التي سادت في المناطق الواقعة جنوب مصر في فترة ما قبل الإسلام لا تنتمي إلى عائلة اللغات الأفرو ـ آسيوية، لكن إلى عائلة اللغات السودانية الشرقية، وهي تشكل، في نظره، لغات محلية أصيلة على الأغلب.

تجدر الملاحظة أن ثلاثة فروع من الفروع الأساسية لعائلة اللغات الأفرو ـ آسيوية وجدت وما زالت موجودة في إقليم وادي النيل على كلا ضفتيه الشرقية والغربية. هذه الفروع الثلاثة بالرغم من استقلالية كل فرع منها حالياً إلّا أنها ترتبط بعضها بالأخرى من حيث الأصل المشترك. ويشير هذا التتابع إلى أن التحولات الحضارية في إقليم شمال شرق أفريقيا لم تحدث نتيجة لإحلال مجموعة سلالية مكان الأخرى، بل نتيجة لعملية الارتقاء الطبيعية من جيل إلى جيل ـ إن المصادر المكتوبة التي وصلت إلينا تشير إلى أن القبائل التي سكنت وادي النيل والصحارى الواقعة إلى غربه وإلى شرقه لم تنعزل تماماً بعضها عن بعض بالرغم من البعد الجغرافي الذي يفصل بينها.

ومعروف أيضاً أن سكان النوبة الشمالية قاموا بشن الحملات الحربية على مناطق الواحات إذ تذكر النقوش التي يرجع تاريخها الى عصر المملكة المصرية الوسطى، والتي تم العثور عليها في سمنة، معلومات عن المدجاي الذين كانوا يأتون الى وادي النيل من الصحراء الشرقية بغرض التجارة(٨٧). ثم إن الإقليم الواقع جنوبي الشلال الثاني عبارة عن سهل ممتد يساعد على إقامة صلات دائمة بين سكان تلك المنطقة. إذن، فالشروط الطبيعية كانت ملائمة لنشوء علاقات التبادل التجاري في إطار هذا الإقليم مما ساعد على التطور اللاحق لإمكانية التبادل الحضاري والاقتباس الثقافي بين مختلف المجموعات السلالية، مع الاحتفاظ بالسمات والخصائص المستقلة المميزة لكل مجموعة. هذا هو إذن ما يفسر ظهور الأنساق الحضارية المتتابعة التي تتميز بالمصنوعات الفخارية ذات العنق الأسود والتي كانت نتيجة تطور الإنتاج الحرفي الذي لم يخل من

التأثيرات المصرية بالطبع. انتشار هذا النوع من المصنوعات الفخارية وأنماط الزخرف المميزة لها لا يمكن أن يصبح إثباتاً نهائياً وحيداً لأي نوع من الهجرات السلالية، بقدر ما يشهد فقط على مدى تطور العلاقات الثقافية المتبادلة.

إن معطيات الحضارة المادية المتوافرة تثبت بالتحديد أصالة حضارة المجموعة الثالثة وطابعها المحلي. لا شك أن حضارة المجموعة الثالثة تشكل استمرارية طبيعية لتطور حضارة المجموعة الأولى، مما يشير إليه التقارب الكبير بين النسقين الحضاريين. فالألقاء الأركيولوجية المميزة لكلا الحضارتين تم العثور عليها في نفس الإقليم الأركيولوجي، كما تم الكشف عن الجبانات والمواقع السكنية التي توجد فيها مواد مميزة للنسقين(٨٨).

ويرى آدمز أن مثل هذا التوافق لا يمكن أن يكون نتيجة ضيق في الأرض مما يفرض على حملة حضارة المجموعة الثالثة استخدام ذات الجبانات الخاصة بالمجموعة الحضارية الأولى(٨٩). إذا ما تمت الموافقة على وجهة نظر آدمز هذه، فإنه يصبح من الممكن الاستنتاج أن حملة حضارة المجموعة الثالثة سكنوا في نفس المواقع التي سبق أن عاش فيها حملة حضارة المجموعة الأولى، واستخدموا ذات الجبانات عن قصد وإدراك ووعي تام. انطلاقاً من هذا الاستنتاج يمكن طرح فكرتين:

١ ــ إن حملة حضارة المجموعة الثالثة شعروا بانتمائيتهم الى حملة حضارة المجموعة الأولى وبكونهم استمرارية لذات السلالة؛

٢ ــ لم يكن هنالك فاصل كرونولوجي طويل ــ ٧٠٠ عام ــ بين النسقين الحضاريين كما كان سائداً في السابق، إذ لو وُجد مثل ذلك الفاصل لما تم الحفاظ على بقايا المواقع السكنية السابقة.

لكن ذلك لا يعني بالطبع رفض مبدئية وجود فاصل كرونولوجي محدد بين النسقين إذ أن الأستراتيجرافيا تشير بوضوح الى وجوده. وفي أي حال فإن مسألة

الصلة والعلاقة بين النسقين الحضاريين مازالت تشكل أحد الإشكالات الأساسية في الدراسة الأركيولوجية للسودان، إذ أن العديد من العناصر الثقافية المميزة لحضارة المجموعة الأولى يمكن تتبعها في حضارة المجموعة الثالثة مع إفراز الأخيرة لبعض عناصرالمميزة الخاصة ولا سيما منها الطابع الرعوي المميز لها(٩٠). أما الاختلافات المتفرقة التي يمكن ملاحظتها بين النسقين الحضاريين فيمكن ردها الى عملية الارتقاء الطبيعية نفسها ليس إلاَّ.

إن النتائج التي تم التوصل إليها في أعقاب أعمال التنقيب الأركيولوجي الأخيرة تؤكد أن حضارة المجموعة الثالثة تشكل استمرارية مباشرة لتطور حضارة المجموعة الأولى السابقة. وكما ذكرنا آنفاً فإن حملة حضارة المجموعة الثالثة شعروا بحقيقة أنهم إنما يشكلون استمرارية سلالية وحضارية لحملة حضارة المجموعة الأولى، الشيء تشير إليه حقيقة استخدامهم لنفس الجبانات الخاصة بحملة حضارة المجموعة الأولى لدفن موتاهم. هذا الظرف بالتحديد، مضافاً إلى معطيات الحضارة المادية الأخرى يشكل قاعدة صلبة لدحض المقولة الخاصة بالهجرات وبالغزو الذي تعرضت له النوبة الشمالية. ويرى سميث أن حملة حضارة المجموعة الأولى اضطروا إلى هجر النوبة الشمالية نتيجة الحملات العدوانية المستمرة بلا انقطاع والتي شنها فراعنة مصر(٩١). وقد طرح أدمز فرضية مؤداها أن حملة حضارة المجموعة الأولى الذين هجروا موطنهم في النوبة الشمالية رجعوا ليستقروا فيه بعد أن حققوا الانتقال من النسق الحضاري المميز لهم إلى النسق الحضاري الجديد ـ حضارة المجموعة الثالثة ـ بعيداً عن موطنهم في الإقليم الجنوبي(٩٢).

وفي اعتقادنا أنه على الرغم من عدم وجود الأدلة المادية المحددة، يمكن طرح فرضية جديدة مؤداها أن الانتقال من نسق حضارة المجموعة الأولى إلى نسق حضارة المجموعة الثالثة قد أنجز خارج حدود النوبة الشمالية. وعليه يبدو لنا أن الحلقة التي تربط بين النسقين الحضاريين لا بد من البحث عنها في الإقليم

الواقع جنوبي الشلال الثاني حيث بدأت أعمال الاستكشاف الأثري في المدة الأخيرة من قبل مصلحة الآثار السودانية بالاشتراك مع القسم الفرنسي التابع لها[٩٣]. إن مثل هذه الفرضية يمكن أن يدعمها إلى حد ما وجود العديد من السمات المشتركة بين حضارة المجموعة الثالثة وحضارة كرمة. فالتشابه السلالي بين حملة الحضارتين يتضح من دراسة الطقوس الجنائزية نظراً إلى أن تقاليد دفن الحيوانات مع جثمان المتوفى يمكن تتبعها في مدافن الحضارتين. وقد عثر جريفيث في جبانة تنتمي الى حضارة المجموعة الثالثة في فرس على بقايا هياكل حيوانية عائدة إلى المعز بخاصة[٩٤]. كما أن البعثة الإسكندنافية كشفت عن آثار للقرابين الحيوانية في مدافن حضارة المجموعة الثالثة في دبيرة[٩٥]، وكذا على بقايا تشير إلى عادة الدفن على المرقد (العنقريب)[٩٦]. إضافة إلى التقارب والتشابه في المصنوعات الفخارية والحرفية الأخرى[٩٧]، وأنماط الزخرف المختلفة: الخطوط، والخطوط المتعرجة، والمثلثات التي تغطي جدران الأواني الفخارية[٩٨].

ويرى شتايندورف أن ثمة ما يبرّر القول باستقلالية حضارة المجموعة الثالثة عن حضارة كرمة على الرغم من انتمائيتها إلى جذور أفريقية، وذلك استناداً إلى مخطط الدفن لدى كل منهما من ناحية، وعدم وجود قرابين مميزة لحضارة كرمة في مدافن حضارة المجموعة الثالثة، من الناحية الأخرى[٩٩].

حالياً تم إثبات حقيقة أنه ومع بداية المملكة المصرية الحديثة كانت كل من حضارة المجموعة الثالثة في النوبة الشمالية وحضارة كرمة في النوبة الجنوبية قد قطعتا شوطاً بعيداً من حيث التطور المحلي المستقل[١٠٠]. ومما لا شك فيه أن بُعد كرمة عن الحدود الجنوبية لمصر ساعد في خلق ظروف أكثر ملائمة لإنجاز عملية التطور المستقل الطبيعي إذ كان بإمكان العشائر تحقيق التطور المستقل بمعزل عن تدخل الفراعنة في بنيتها الاجتماعية. لذلك سارت عملية تفكك

البنية الاجتماعية البدائية العشائرية سيراً طبيعياً. أضف إلى ذلك أن موقع كرمة الإستراتيجي على مفترق الطرق ساعد على تطور التجارة مما أدى الإسراع في عملية إثراء الزعامات القبلية التي استحوذت على العائدات الضخمة من مختلف العمليات التجارية(*). وبالتالي، وصل حملة حضارة كرمة إلى مستوى أعلى من حيث درجة التطور الاجتماعي ـ الاقتصادي كما هو الحال بالنسبة الى حملة حضارة المجموعة الثالثة في النوبة الشمالية الواقعين تحت السيطرة المصرية الفرعونية.

إن نظرية الأصل الأفريقي المشترك لحضارتي كرمة والمجموعة الثالثة (إذا ما تم فهم «الأصل الأفريقي» باعتباره مصطلحاً يدل على أصالة الحضارتين) الى جانب التشابه في المصنوعات الفخارية وغيرها من المنتجات الحرفية، وكذلك التشابه في الطقوس الجنائزية. إنما تشكل أساساً متيناً لطرح فرضية انتماء الحضارتين إلى نسق حضاري واحد. وانطلاقاً من هذا يمكن تأكيد ما سبقت الإشارة إليه من أن إشكالية حضارة المجموعة الثالثة ترتبط بالإقليم الواقع جنوبي الشلال الثاني.

وكما ذكرنا سابقاً(١٠١) فقد سادت في أوساط الباحثين في تاريخ السودان القديم النظرية القائلة بأن حملة حضارة المجموعة الثالثة تمصروا كلياً. ولكن ثمة وجهة نظر أخرى ترى أن الغزاة المصريين تمكنوا من الاستيلاء على النوبة الشمالية بعد إبعادهم لحملة حضارة المجموعة الثالثة عنها في بداية عصر المملكة الحديثة(١٠٢).

إلّا أنه تم الكشف خلال أعمال التنقيب الأركيولوجي الأخيرة عن العديد من الجبانات التي تنتمي الى حضارة المجموعة الثالثة والتي يرجع تاريخها الى المرحلة المبكرة لعصر الأسرة المصرية الثامنة عشرة.

(*) سوف نتناول في بحث لاحق كيفية ظهور امكانية الاستحواذ على الفائض بصورة عامة من قبل الزعامات القبلية.

وبالرغم من أن الزعيم النوبي دجحوتي حوتب شيَّد لنفسه مقبرة على النمط المصري التقليدي، فـإن المدافن البسيطة المحيطة بمقبرته كانت ذات طابع محلي مميز لحضارة المجموعة الثالثة(١٠٣). وقد تم إثبات حقيقة أن المدافن المميزة لحضارة المجموعة الثالثة في النوبة الشمالية يمكن تتبعها حتى فترة حكم الفرعون أمنحتب الثالث(١٠٤). كما أن قائمة أسماء الموظفين المصريين تضم بعض الأسماء النوبية الأصيلة. ونذكر على سبيل المثال أن أحد الموظفين العاملين في بوهين كان يحمل الاسم المصري أمنحتب مع أن والده كان أميراً نوبياً لمنطقة تيخيت (سرة الحالية)(١٠٥). هذه الحقائق قادت كلاً من يونكر(١٠٦) وسيودربيرج(١٠٧) إلى الاستنتاج أن السكان المحليين لم يهجروا موطنهم في النوبة الشمالية وإنما تم اختلاطهم بالغزاة المصريين حتى أنهم تمصَّروا كلياً في نهاية حكم الأسرة الثامنة عشرة. ونجد أن هذه النظرية الخاصة بـ«التمصُّر» الكلي هي التي هيمنت على اتجاه البحث التاريخي(١٠٨).

إن غياب الآثار المحددة التي تنتمي إلى حضارة المجموعة الثالثة في النوبة الشمالية في فترة ما بعد أواسط حكم الأسرة الثامنة عشرة، ويدحض نظرية «التمصّر» الكلي لحملة حضارة المجموعة الثالثة. لا شك في حقيقة أن جبانات هذه الحضارة التي يرجع تاريخها الى عصر الأسرة الثامنة عشرة تختلف عن الجبانات الأقدم عصراً من حيث وجود تأثيرات مصرية أكثر وضوحاً. لكن بغض النظر عن مدى تلك التأثيرات فإن جبانات حضارة المجموعة الثالثة ظلت محتفظة حتى أواخر فترة وجودها بطابعها المحلي المميز(١٠٩). ويؤكد ريزنر على ذلك عندما يثبت أنه لا توجد صعوبة في تحديد مدافن حضارة المجموعة الثالثة حتى عندما يتم العثور عليها في ذات الجبانة جنباً إلى جنب مع المدافن المصرية(١١٠).

لا بد من التأكيد أن ٧٥٪ من المدافن التي يرجع تاريخها الى عصر المملكة المصرية الحديثة في النوبة تعود عموماً للنصف الأول من حكم

الأسرة الثامنة عشرة، أي للفترة التي عاش فيها بالتحديد حملة حضارة المجموعة الثالثة في هذا الإقليم. وإذا ما أخذنا المدافن كأساس لدراسة تاريخ السودان القديم الحضاري في هذه الفترة، نجد أنه لا بد من أن نأخذ في الاعتبار الملاحظات التالية:

١ ــ **نهاية الأسرة السابعة عشرة**: أعداد هائلة من المدافن المميزة لحضارة المجموعة الثالثة مع وجود أعداد محدودة للمدافن المصرية.

٢ ــ **بداية الأسرة الثامنة عشرة**: أعداد محدودة لمدافن حضارة المجموعة الثالثة، مع وجود أعداد محدودة أيضاً للمدافن المصرية.

٣ ــ **نهاية الأسرة الثامنة عشرة**: أعداد غير كبيرة للمدافن المصرية مع ندرة وجود مدافن حضارة المجموعة الثالثة أو غيابها الكلي.

٤ ــ **الأسرة التاسعة عشرة**: أعداد محدودة للغاية للمدافن المصرية مع غياب كلي لمدافن حضارة المجموعة الثالثة.

٥ ــ **الأسرة العشرون ومابعدها**: غياب كلي لأي نوع من المدافن.

أمامنا إذن علاقة تناسبية بين المدافن المصرية والمدافن المحلية. كلما أظهر الكشف وجود أعداد كبيرة من المدافن الأولى وجدت أعداد كبيرة من المدافن الثانية. وعندما يسجل غياب الأولى يسجل غياب الثانية أيضاً. هذه الحقيقة تشير إلى أنه ابتداء من منتصف الأسرة الثامنة عشرة بدأت عملية الانخفاض المستمر في عدد السكان وليس في عملية «التمصّر» الكلي ــ يرى آدمز أن حملة حضارة المجموعة الثالثة اضطروا الى هجرة موطنهم في النوبة الشمالية ليس فقط بسبب الحملات العدوانية المصرية المتلاحقة وإنما أيضاً نتيجة لهبوط منسوب النيل وتقلص الأراضي الخصبة[١١١]. ولا ريب أن السيطرة المصرية على النوبة وفرض ضرائب باهظة وجّها ضربة قاصمة الى اقتصاديات البلاد مما أدى إلى هجرة السكان جنوباً حيث تمتد الأقاليم الخصبة جنوبي الشلال الثالث.

ولكن لا يوجد حالياً من المعطيات ما يكفي لدعم هذه الفرضية إذ لم يعثر بعد على آثار للحضارة المادية المميزة لحضارة المجموعة الثالثة جنوبي الشلال الثالث. ولكن الثابت أنه بعد مضي عدة عقود أخذت التقاليد المميزة لحضارة المجموعة الثالثة في البروز من جديد في عصر حضارة نبتة ــ مروى.

٤ ــ الخلاصة:

تشير مخلفات الحضارة المادية إلى أن بداية «المرحلة البدائية ــ العشائرية» في تاريخ السودان القديم تعود لمنتصف الألف الرابع (٣٥٠٠ق.م.)، وأن حضارة المجموعة الأولى التي تم الكشف عن بقاياها في النوبة الشمالية تشكل استمرارية مباشرة لحضارة الشهيناب النيوليتية في النوبة الجنوبية، بالرغم من أن الأولى تعرضت لبعض التأثيرات الحضارية المصرية.

إن الانتقال من النسق الحضاري المميز للمجموعة الأولى إلى النسق الحضاري المميز للمجموعة الثالثة، لم يكن نتيجة لهجرات سلالية جديدة، وإنما هو مجرد ارتقاء طبيعي للنسق الأول. وقد اكتمل الانتقال في إقليم النوبة الجنوبية بفضل هجرة حملة حضارة المجموعة الأولى من موطنهم في النوبة الشمالية هروباً من الحملات العدوانية المصرية المتلاحقة. ثم عاد هؤلاء السكان إلى موطنهم في النوبة الشمالية بعد أن حققوا القفزة إلى النسق الحضاري الجديد المعروف باسم حضارة المجموعة الثالثة. وظلوا يقيمون في النوبة الشمالية حتى احتل البلاد فراعنة الأسرة المصرية الثامنة عشرة.

على امتداد المرحلة البدائية ــ العشائرية، كانت حضارة النوبة الشمالية وثيقة الصلة بحضارة مصر ما قبل الأسرية، وقد اعتمدت مثلها مثل حضارة مصر ما قبل الأسرية على الجمع بين الزراعة والرعي. ومع ظهور حضارة المجموعة الثالثة في ما بعد أخذ عنصر الرعي يغلب على النسق الحضاري

المميز للنوبة الشمالية بالرغم من عدم وجود معطيات محددة تشير إلى ازدياد أعداد الماشية أو حصول تبدل جذري في القاعدة الاقتصادية.

في ما يتعلق بأشكال التنظيم الاجتماعي فالأغلب أن الأشكال العشائرية سادت حتى أواخر فترة ازدهار حضارة المجموعة الثالثة. وبالرغم من الكشف عن مدافن متمايزة من حيث المرفقات الجنائزية، ما قد يشير إلى عدم المساواة في الملكية في إطار حملة حضارة المجموعة الأولى، فإنه لا توجد حتى نهاية حضارة المجموعة الثالثة أية معطيات تشير إلى نشوء السلطة الفردية أو الانقسام الطبقي الذي يرتبط عادة في تاريخ الشرق الأدنى القديم بتطور أعمال الري الاصطناعي. والملاحظ في مجال العبادات الدينية أن لا وجود لطبقة الكهنة أو المعابد الضخمة. وعليه يمكن القول بأن القوة التي وحّدت الجماعات السودانية القديمة في المرحلة البدائية العشائرية تجسدت في القاعدة الاقتصادية الموحدة والشعور المشترك بالوحدة الحضارية، وليس في الجهاز الحكومي الاداري الفوقي الذي يهيمن على الجماعات الدنيا.

Abbreviations

—— ASAE: Annales du Service des Antiquites d'Egypte.
—— ILN: Illustrated London News.
—— JEA: Journal of Egyptian Archeaology.
—— LAAA: Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology.
—— SNR: Sudan Notes and Records.

المراجع

(١) الدكتور أسامة عبد الرحمن النور: التدوين التاريخي للحضارة السودانية القديمة (دراسة نقدية) المؤرخ العربي، العدد التاسع عشر، ١٩٨١.

(٢) الدكتور أسامة عبد الرحمن النور: عودة لمسألة تاريخ السودان الحضاري من المرحلة الانتقالية الثانية (١٧٠٠ ــ ١٥٨٠ ق. م.)، المؤرخ العربي، العدد الحادي عشر، ١٩٧٩.

(3) Reisner G.A., The Archaeological Suvey of Nubia, Report for 1907/08, Cairo 1910.
(4) Firth C.M., The Archaeological Survey of Nubia, Report for 1908/09, Cairo 1912; Report for 1909/10, Cairo 1915; id., Report for 1910/11, Cairo 1927.
(5) Reisner G.A., Op.Cit., P.319, fig.280.
(6) Baumgartel E.J., The Cultures of Prehistoric Egypt, Vol.I, London, 1955, p.100.
(7) Reisner G.A. Op.Cit., pp.324-332.
(8) Myres O.H., Excavations at Abka int he Sudan, ILN, 13th of October, 1948; id., Abka re-excavated, -«Kush», Vol.6, 1952, pp.131-141; id., Abka Again, -«Kush», Vol.8., 1960, pp.174-181$
(9) Arkell A.J., Shaheinab, London: Oxford University Press, 1953.
(10) Arkell A.J., Early Khartoum, London: Oxford University Press, 1949.
(11) Ibid., pp.93, 110/112; A.J. Arkell, Op.Cit., 1953, pp.97-101; H.N. Chittick, Two Neolithic Sites Near Khartoum,-«Kush», Vol.3, 1955, pp.75-81; K.H. Otto, Shagdud, a New Khartoum Neolithic Site Outside The Nile Valley, -«Kush», Vol.11, 1963, pp.108-115.
(12) Whdorff F. et al., The Combined Prehistoric Expedition,-«Kush», Vol.13, 1965, pp.50-54; id., The 1965 Field Season of the Southern Methodist University, «Kush», Vol.14, 1966, p.21; R. Carlson, A Neolithic Site in the Murshid District, -«Kush», Vol.14, 1966, p.62; W.Y.Adams. The Vintage of Nubia, -«Kush», Vol.14, 1966.
(13) lSave-Soderbergh T., Preliminary Report on the Scandinavian Joint Expedition,-«Kush», Vol.12, 1964, pp.25-29; H.A. Nordstrom, A-Group and C-Group in Upper Nubia, -«Kush», Vol.14, 1966, p.64.
(14) Reisner G.A., Op.Cit., pp.324-332; C.M. Fith, Op.Cit., 1927, pp.1-8.
(15) Nordstrom H.A., Op.Cit., 1966, p.62.
(16) Ibid., p.24.
(17) Arkell A.J. Op.Cit., 1953, pp. 88 ff.
(18) Otto K.H., Op.Cit., 1963, pp.108 ff.
(19) Save-Soderbergh T., Op.Cit., 1964, pp.25 ff.
(20) Nordtrom H.A., Op.Cit., 1966, Fig.1, p.60; A.J. Arkell, Op.Cit., 1953, pls.29:2:3.
(21) Arkell A.J., Op.Cit., 1953, pls.37, 1-2, 6-8, 12, 14, 16, 17, 29.
(22) Nordstrom H.A. op.Cit., 1966, p.66.
(23) Reisner G.A. op.Cit., 1910; C.M. Firth, Op.Cit., 1927, pp.1-8.
(24) Steindorff G., Aniba, Vol.I, Gluckstadt und Hamburg, 1935, p.2.

(25) Griffith G.L. Oxford University Excavations in Nubia;
(1) The Earliest Period at Faras;
(2) Nubia From the Old to the New Kingdom, -LAAA Vol.8, 1921, p.3.
(26) Junker H., Bericht Uber die Grabungen der Akademie der Wissenschaften in Wien auf den Friedhofen von El-Kubanieh-Sud, Winter 1910/11, -AWW-phk-Denksch-riften, 62 (T.3), 1919.
(27) Frith C.M., Op.Cit., 1912, p.10.
(28) Trigger B.G., History and Settlement in Lower ubia, New Haven, 1965, p.70.
(29) Emery W.B., A Preliminary Report on the Excavations at Buhen,-«Kush», Vol.7, 1959, pp.7-14.
(30) Adams W.Y., Continuity and Change in ,ubian Cultural History,-SNR, Vol.48, 1967, p.8.
(31) Save-Soderbergh T., Agypten and Nubien: Ein Beitrag fur Geschite attagyptischer Aussampolitik, Lund, 1941, p.7.
(32) Osama El-Nur, Mestiniye Korni Napatsko-Mecoitskovo Tsarstva, PHD Dissertation, Institue of Oriental Sudies, Soviet Academy of Sciences, Moscow, 1975, pp.37-39.
(33) Piatrovski B.B., Stranisti drevni Istori Servernoi Nubyi, -in «Drevnia Nubia», Resultati Archeologichiski Expeditsi A-USSR. Moscow-Leningrad, 1964, p.14.
(34) Reisner G.A., Op.Cit., 1910, p.43.
(35) Ibid., p.333.
(36) Ibid., p.43.
(37) Ibid., p.333.
(38) Ibid., p.334.
(39) Ibid., p.334.
(40) Ibid., p.45.
(41) Ibid., p.52.
(42) Ibid., p.315.
(43) Firth C.M. Op.Cit., 1912, pp.123-124.
(44) Reisner G.A., Op.Cit., 1910, p.332.
(45) Firth C.M., Op.Cit., 1912, pp.12-13; id.,Op.Cit., 1915, pp.9-10; id., Op.Cit., 1927, p.18.
(46) Junker H., Op.Cit., 1919, pp.16-20.
(47) Emery W.B. and L.P. Kirwan, The Excavations and Survey beteween Wadi-es-Sebua and Adindan, Cairo 1935, Vol.I, p.450-451.
(48) Smith H.S., Preliminary Report on the Egypt Expt Exploration Society Nubian Survey, Cairo 1952, p.36.
(49) Piatrovski B.B., Op.Cit., 1964, p.14.
(50) Smith H.S., The Nubian B-Group, -«Kush», Vol.14. 1966, pp.69-124.
(51) Quibell J.E., Hierakonopolis, Plates of Discoveries, London, 1900.
(52) Schafer H., Atlas Zur altaegyptischen Kulturgeschichte, Leipzig, 1923.
(53) Emery W.B., Prelimipary Report on the Work of the Archaeological Survey of Nubia, 1932/33, ASAE, Vol.33, 1933, pp.65 ff.; R. Engelbach, The Quarries of the Western of the Western Nubian Desert and the Ancient Road to Toshka, ASAE, Vol.38, 1938, pp.369-378.
(54) Emery W.B., A Preliminary Report on the Excavations at Buhen, -«Kush», Vol.II, 1963, pp.116-120.

(55) Vercoutter J., Ancient Egyptian Influence in the Sudan, SNR, Vol.40, 1959, p.10.
(56) Jackson J.K., Changes in the Climate and Vegetation of the Sudan, SNR, Vol.28, 1957, p.56.
(57) Murray G.W., Graves of Oxen in the Eastern Desert of Egypt, JEA, Vol.12, 1926, pp.248-249.
(58) Shaw W.B.K., The Burials from the South Libyan Desert, -JEA, Vol.22, 1956, pp.47-50.
(59) Venogradov A.V., Raskopki Mogilnekov V Raione sel. 3 apadnaia Koshtamna, in «Dreunia Nubia», Op.Cit., 1964, p.217.
(60) Smith H.S., Op.Cit., 1966, p.120.
(61) Emery W.B., Op.Cit., 1963.
(62) Save-Soderbergh T., Op.Cit., 1941, p.10.
(63) Save-Soderbergh T. op.Cit., 1964, p.29.
(64) Reisner G.A., Op.Cit., 1910, p.342.
(65) Griffith F.L., Op.Cit., 1921, pp.65-71.
(66) Junker H., Toschke, Bericht uber die Grabungen der Akademie der Wissenschaften in wien auf den Friedhofen von Toschke (Nubien), AWW-phk Denschriften, 68 (T.1), 1926, pp.10-13.
(67) Ibid., pp.13-14.
(68) Steindorff G., Op.Cit., 1935, pp.5-10.
(69) See: B.B. Piatrovski, Op.Cit., 1964, pp.19-20.
(70) Firth C.M., Op.Cit., 1915, p.19.
(71) Petrie F., Buttons and Design Scarabs, London, 1925, 1925.
(72) Steindorff g., Op.Cit., 1935, p.58.
(73) Emery W.B. and Kirwan, Op.Cit., 1935, p.451.
(74) Ibid.
(75) Save-Soderbergh T., Preliminary Report on The Scandinavian Joint Expedition, -«Kush», Vol.10., 1962, p.89.
(76) Nyers O.H., Op.Cit., 1960, p.178.
(77) Trigger B.G., Op.Cit., 1965, p.87.
(78) Reisner G.A., Op.Cit., 1910, p.333.
(79) Firth C.M., Op.Cit.,n 1915, pp.11-12; H. Junker, Op.Cit., 1919, pp.7-20; Emery and Kirwan, Op.Cit., 1935, p.4, O. Bates, The Eastern Libyans, London 1914; A.J. Arkell, History of the Sudan to 1821 (2nd ed.), London 1961, p.49.
(80) Firth C.M., Op.Cit., 1915, pp.11-12.
(81) Murdock C.B., Africa, its People and their Culture History, New York 1959, p.159.
(82) Junker H. Op.Cit., 1919, pp.7-12.
(83) Bates and Kirwan, Op.Cit., 1935, p.4.
(85) Rouse I., The Inference of Migrations from Anthopological Evidence, -in «Migrations in New World History», ed. R.H. Thompson, Tuscan 1958, pp.63-68.
(86) Greenberg J.H., Studies in African Linguistic Classification, New Haven, 1955.
(87) Smithers P.C., The Samna Despatches JEA, Vol.31, 1945, pp.3-9.
(88) Adams W.Y., An Introductory Classification of Nubian Christian Pott ry, -«Kush», Vol.10, 1962, p.13; Mills and Nordstrom, The Archaeological Survey from Gemmai to Dal, -«Kush», Vol.14, 1966, pp.45-49; J.Vercoutter, Excavations at Aksha, -«Kush», Vol.II, 1963, p.138; C.J. Vermers, Trial Excavations i the Faras Region, -«Kush»,

Vol.9., 1961. pp.17-20; id., The Survey from Faras to Gezira Dabarosa, -«Kush», Vol.10, 1962, p.224.
(89) Adams W.Y., Op.Cit., 1967, p.9.
(90) Reisner G.A., Op.Cit., 1910, pp.324-325; C.M. Firth Op.Cit., 1927, pp.15-23; W.B. Emery, Egypt in Nubia, London 1965, p.135; B.G. Trigger, Op.Cit., 1965, pp.87-90.
(91) Smith H.S., Op.Cit., 1966, p.122.
(92) Adams W.Y., Op.Cit., 1967, p.9.
(93) Sudan Antiquities Service-French Unit: Archaeological Survey South of the Second Cataract CA/SAS/FU/1972-73, Khartoum.
(94) Griffith F.L. Op.Cit., 1921.
(95) Save-Sodervergh T., Op.Cit., 1964, p.30.
(96) Baker M., The Relationship between the C-Group, Kerma, Vol.13, 1965, p.261.
(97) Steindorff G., Op.Cit., 1935; G.A. Reisner, Excavations at Kerma (2 vols.), Cambridge 1923.
(98) Ibis.
(99) Steindorff G., Op.Cit., 1935.
(100) Osama El-Nur, Problema groupi-C vistori Kulturi Dervneva Sudana, in «Meroe: Istoria Kulturi Drevnenva Sudana», Moscow 1977, p.255.
(١٠١) الدكتور أسامة عبد الرحمن النور: المرجع السابق، المؤرخ العربي، العدد ١٩.
(102) Save-Soderbergh T., Op.Cit., 19411, p.187.
(103) Save-Soderbergh T., Op.Cit., 1962, pp.88-96.
(104) Smith H.S. Op.Cit., 1952, p.49.
(105) Save-Soderbergh T., Op.Cit., 1941, p.184.
(106) Junker H., Ermenne, Berricht Uber die Grabungen der Akademie der Widdenschaften in Wien auf den Friedhofen von Ermenne (Nubien), AWW-phk. Denkschriften 67)T.1), 1925, p.37.
(107) Save-Soderbergh T., Op.Cit., 1941, pp.187/9.
(108) Arkell A.J., Op.Cit., pp.100-104; J. Breasted, A History of Egypt, New York 1905, pp.537/8.
(109) Save-Soderbergh T., Op.Cit., 1962, pp.90-95; id., Op.Cit., 1963, pp.57-58.
(110) Reisner G.A., Op.Cit., 1910, pp.335-336.
(111) Adams W.Y., Post-Pharaonic Nubia in the Light of Archaeology, pt.I, -JEA, Vol.50, 1964, p.107.

تـــرايشكـــه
فكره التاريخي وآراؤه السياسية

إعـــداد
د . / إبراهيم خليل أحمد
(كلية التربية ـ قسم العلوم الاجتماعية ـ جامعة الموصل)

١ ـ مقدمة :

في الإجابة عن السؤال المتعلق بديناميكية العملية التاريخية، ذهب المؤرخون مذاهب شتى. ولئن كان لكل حقبة تاريخية فلسفتها الخاصة عن التاريخ، فإن لفلسفة التاريخ نفسها تاريخاً خاصاً. وهذا يعني أن الرجال الذين اهتموا بأسباب الحركة التاريخية على مر العصور صاغوا أجوبة مختلفة[(١)]. ومن هؤلاء الرجال هنريش إدوارد فون ترايشكه (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) موضوع بحثنا هذا.

إن هذا المؤرخ الألماني غير معروف كثيراً لقراء العربية، علماً بأنه يمثّل نموذجاً للمؤرخين والمفكرين الألمان الذين سخّروا أنفسهم للدعوة إلى تحقيق الوحدة الألمانية. وهو من أبرز المؤرخين الذين أسهموا في صياغة العقلية السياسية الألمانية خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى. كما أنه من المفكرين الأوائل

(١) لتفاصيل هذه الفكرة راجع جورج بليخانوف، محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة جورج طرابيشي (بيروت، ١٩٧٣).

الذين كشفوا عن سيطرة اليهود على مقدرات الاقتصاد الألماني. وهو من الذين دعوا إلى ضرورة اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية التي يعيشون فيها. ولقد اتهم لذلك من قبل الصهيونيين بأنه عنصر متطرف. وفوق ذلك فقد كان لترايشكه إسهامات في ميدان تطوير الفكر التاريخي الأوروبي في القرن التاسع عشر. فمن هو ترايشكه؟.

٢ ـ حياته ومؤلفاته:

ولد هنريخ إدوارد فون ترايشكه (Heinrich Edward Von Treitschke) في ١٥ أيلول ١٨٣٤ وذلك في مدينة درسدن[١] عاصمة مقاطعة سكسونيا الالمانية[٢]. وهي الآن تقع في جمهورية ألمانيا الديمقراطية[٣]. وكان أبوه جنرالاً في الجيش السكسوني[٤] وأجداده من الجيك البروتستانت الذين هاجروا إلى سكسونيا في أعقاب انتصار الحركة المضادة للإصلاح الديني في بوهيميا. وفي نظر صديق ترايشكه هاوستراث بدا بشعره الأسود وملامحه الأخرى سلافيا أصيلاً. وكان ترايشكه متحيزاً ضد السلاف، لكنه كان فخوراً بأجداده. فقد أشاد بالجيك لأنهم حاربوا آل هبسبرك، العائلة النمساوية التي حكمت النمسا منذ القرن الثالث عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى[٥].

كان ترايشكه يطمح منذ صغره أن يكون ضابطاً، ولكنه تعرض لحادثة في صباه أدت به إلى أن يصاب بالصمم وهكذا أصبح غير صالح للدخول في

---

(١) The Encyclopedia Americana,New York, Vol. XXVII, 1960, p. 37.

(٢) Heinrich Von Treitschke, Politics, ed, by Hans Kans, (New York, 1963) p. IX.

(٣) The Encyclopedia Americana, p. 37.

(٤) Encyclopedia of Social Sciences, Vol, 15, (New York, 1954), p. 101.

(٥) Frederick Hertz, Nationality in History and Polotiss, (London, 1957), p. 397.

السلك العسكري، ومن هنا حدث الانعطاف الكبير في حياته إذ بدأ يميل نحو دراسة التاريخ والعلوم السياسية[1].

كانت سكسونيا، في مطلع القرن التاسع عشر مسرحاً للتوسع البروسي، ولم يكن ملكها وشعبها يكنان الحب لبروسيا. أما أبو ترايشكه إدوارد فقد كان موالياً لملك سكسونيا، بعكس ابنه الذي كان يبدو حزيناً ورافضاً لواقع وطنه ولواقع الدويلات الألمانية جميعاً. وقد استنكر والد ترايشكه موقف ابنه هذا في رسالة بعث بها إلى ابنته[2].

مال ترايشكه، منذ العاشرة من عمره، إلى الشعر، وقرأ كثيراً من كتب الأدب. ولعل من الطريف الإشارة إلى أن نتاجه الأول كان عبارة عن ديوان صغير من الشعر الوطني. ويشير الأستاذ كوج إلى أن قصائد ترايشكه الأولى كشفت عن تمتعه بموهبة شعرية لا مثيل لها[3].

بدأ ترايشكه حياته وطنياً ليبرالياً كما ساهم في ثورة ١٨٤٨ في سكسونيا وآمن منذ صباه بأهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه الجيش البروسي في تحقيق الوحدة الألمانية. وفي الوقت ذاته، شعر كبروتستانتي وكقومي بكره شديد للنمسا الكاثوليكية وللدويلات الألمانية الجنوبية الصغيرة معتقداً إمكانية ضمّها إلى موطنه سكسكونيا[4].

درس في جامعة بون وهناك تأثر بالأستاذ والمؤرخ المشهور فردريك كريستون دالمن (١٧٨٥ ـ ١٨٦٠) الأب الروحي للمدرسة البروسية في التاريخ. ولقد وجد فيه (دالمن) نبوغاً عظيماً. تحدث ترايشكه عن تأثير دالمن فيه

---

(١) Encyclopedia of Social Science, p. 101.

(٢) Treitschke, op.cit., p.X

(٣) Gooch, History and Historians in the Nineteenth Century, (London, 1952), p. 138.

(٤) Treitschke, op.cit., p.X

قائلاً: «قال لي دالمن، ينبغي أن تكون مخلصاً لوطنك» لقد علّمه دالـمن ضرورة حب الوطن والتفاني في سبيله. وكان لدالمن أثر كبير في صيرورة ترايشكه مؤرخاً[1].

قرأ ترايشكه تاريخ حياة المصلح الألماني شتاين لمؤلفه «بيرن» المشرف على المنيومنتا الألمانية. وأكمل دراسته في هايدلبرك وتخصص في الأدب والتاريـخ والعلوم السياسية[2]. وفي جامعة لايبزك عرف بأنه شاعر وطني متحمس. وفي ١٨٥٧ نشر الجزء الثاني من قصائده الوطنية وفي عام ١٨٥٩ نشر أطروحته للدكتوراه وهي بعنوان: «علم الاجتماع» (Gesellscha Fts Wisswnschaft) وفيها يحاول أن يوضح الروابط الوثيقة بين السياسة والاجتماع مؤكداً أن كل جهد في الحياة القومية، لابد أن ينعكس على السياسة والمجتمع والدين[3]. وأشار ترايشكه إلى أن العلم الذي ينبغي الاهتمام به هو علم الدولة وبذلك عارض عدداً من الكتاب المعاصرين له أمثال وليم هنريش ريل[4] (Riehl) (١٨٢٣ ـ ١٨٩٧) من الذين كانوا يؤكدون على دراسة المجتمع لا الدولة[5]. وذهب ترايشكه إلى أن الدولة طبيعية، وجـدت منذ الأزل، لهـذا فهي ضرورية، وهي لم توجد كما يقول بعض الكتاب وعلى رأسهم جان جاك روسو نتيجة للتعاقد الاجتماعي ومن هنا فليس ثمة ضرورة لخلقها. لذلك فإن على الدولة الألمانية أن تواجه قدرها وتحقق رسـالتها، وعـلى بروسيا أن تأخذ زمام المبادرة في هذا المجال. ويقول الأستاذ كوج: «لقد درّس ترايشكه في جامعة لايبزك

---

(١) James Westfall Thompson, A History of Historical Writing, Vol, II, (New York, 1942), pp. 219-220.

(٢) Gooch, op.cit., p. 139.

(٣) Thompson, op.cit., p. 220.

(٤) وهو من علماء الاجتماع الألمان.

(٥) Gooch, op.cit., p. 138.

أن بروسيا تستطيع أن تصبح بؤرة يجتمع حولها كل الألمان في دولة واحدة[1]».

وبين ١٨٥٨ ـ ١٨٦٣ عمل في جامعة لايبزك حيث أصبح أستاذاً لامعاً بفضل سلسلة من المحاضرات التي ألقاها عن التاريخ الدستوري الألماني[2] وكان عمره انذاك لا يتجاوز الـ (٢٥) سنة، وكانت محاضراته تستهوي أعداداً كبيرة من المستمعين، كانوا يستمعون إليه بشغف في القاعة نفسها التي كان فخته يلقي فيها محاضراته قبل ذلك بنصف قرن حين كان يحث الشعب الألماني على الوحدة ومقاومة المحتلين الفرنسيين ويشجعهم على التماسك والالتفاف حول بروسيا[3]. كذلك كان ترايشكه يركز في محاضراته، على أهمية الوحدة الألمانية بزعامة بروسيا[4].

وصف البروفيسور اندريس دوربالين، أول كاتب لسيرة ترايشكه، أسلوب محاضرات ترايشكه وتأثيرها قائلاً:

«لقد نما الموضوع بسرعة في هذا المعهد (جامعة برلين) إنه يعطي كل شيء، أصبح أكبر قسم في الجامعة: الطلاب في كل الأقسام، والناس من مختلف المهن: موظفون، ضباط، أساتذة، رجال أعمال، كتاب وناشرون، كانوا يحضرون لسماع محاضرات ترايشكه. وحتى طلاب الدراسات العليا كانوا يغادرون قاعاتهم ليستمعوا إلى المتحدث المشهور. كان الدرس يتحول فعلاً إلى مناسبة مهيبة»[5].

---

(١) Ibid, p. 138.

(٢) The Encyclopedia Americana, p. 37

(٣) Gooch, op.cit., p. 138.

(٤) The New Encyclopedia Britannica, Williun Benton, Publisher, 1943-1973, (Chicago, 1973) Vol, X, p. 108.

(٥) Treitschke, op.cit., p. XI.

ذهب ترايشكه إلى فرايبورك سنة ١٨٦٣ وبقي فيها حتى سنة ١٨٦٦. وفي جامعتها أصبح أستاذاً للعلوم السياسية وكان الرأي العام في جنوب ألمانيا كله آنذاك يسيطر عليه الولاء للوطن الصغير تحت حكم الحكام التقليديين. وكانت الكنيسة الكاثوليكية المسيطرة على الناس تعارض بطبيعة الحال سيادة بروسيا البروتستانتية على ألمانيا، ووقفت إلى جانب قيام رابطة وثيقة بين الأقطار الألمانية الصغيرة والنمسا. أضف إلى ذلك أن الآراء التحررية والديمقراطية كانت واسعة الانتشار في جنوب ألمانيا، وكثيراً ما كانت تتسم بعطف شديد على فرنسا. وقد اجتمعت هذه العوامل كلها لخلق جو معاد لبروسيا وتقاليدها وفكرة رسالتها القومية في ألمانيا. وكانت هذه التجربة سبباً في قلق ترايشكه الشديد، ففي رسالة إلى كوستاف فريتاج كتب يقول إنه على يقين تام بأن لا سبيل إلى تحقيق وحدة ألمانيا إزاء هذا التعصب المحلي في جنوب ألمانيا إلا بالغزو ولهذا السبب فإن سياسة بسمارك في زيادة قوة بروسيا صحيحة، حتى إذا كانت بروسيا تملك أفضل حكومة مؤلفة من رجال من نوع شتاين وهمبولت فإن كراهية ألمان الجنوب وغيرتهم من بروسيا لن تقلا فقد كانوا جميعاً يعتقدون أنهم الألمان الحقيقيون. أما الشمال فما زال نصفه غارقاً في الهمجية. وختم ترايشكه رسالته بالقول: «صدقني أن سيف الغازي وحده هو الذي يستطيع تحقيق الوحدة بين الولايات الجنوبية والولايات الشمالية»(١).

وفي جامعة فرايبورك قادته معارضته المستمرة للاتجاهات الحرة الحديثة إلى خلافات كثيرة مع برنتانو (Brentano) وشموللر (Schmoller) والاقتصاديين الآخرين، وجعله ذلك يستقيل ليعمل في جامعة كيل (Kiel) وذلك في سنة ١٨٦٦(٢).

---

(١) Hertz, op.cit., p. 399.

(٢) The Encyclopedia Americana, p. 37.

رأس ترايشكه بين ١٨٦٦ و١٨٨٩ تحرير مجلة دورية أكاديمية متخصصة تـدعى (Preussische Jahrbucher) أي الحوليات البروسية[١]. وفي ١٨٦٧ أصبح أستاذاً في جامعة هايدلبرك وبقي فيها حتى ١٨٧٣. وهناك تأثر بـ (لودفك هاوزر Ludwing Hausser) (١٨١٨ـ١٨٦٧) الذي كان تأثيره في ترايشكه لا يقل عن تأثير دالمن[٢]. وهاوزر هو أحد أعضاء المدرسة البروسية في التاريخ، وله مؤلفات عديدة منها كتابه عن تاريخ ألمانيا خلال الثورة الفرنسية وحروب نابوليون.

لقد أخذت أفكار ترايشكه تتسع وتتوضح أكثر فأكثر، وتنتشر بـين الناس، وقد ساعد على ذلك اكتشاف قصائد كلايست الوطنية. كـما حظي ترايشكه بدعم أمير همبورك. وقد أضفت دراسته للمتون، وبايرون ولسنك ودالمن نوعاً من البلاغة والقوة على حماسته لمفهوم الحرية[٣].

يقول الأستاذ كوج: لقد كتب ترايشكه رسالة إلى والده سنة ١٨٦٥ هاجم فيها البونابارتيين والسياسة الفرنسية ووصف نابليـون بأنه وحش، وليس رجل دولة، وهو مثل أتيلا وجنكيزخان اللذين قضيا حياتهما في الحروب[٤].

في ١٨٧٤ حصل ترايشكه على كرسي التاريخ والعلوم السياسة في جامعة برلين أول جامعة في بروسيا وأحدث جامعة في ألمانيا الموحَّدة[٥]. وكان ليوبولد فون رانكه يشغل هذا الكرسي من ١٨٣٤ حتى ١٨٧١[٦]. وفي ١٨٨٦ أصبح ترايشكه مؤرخاً رسمياً لبروسيا. لقد ظل رايشكه شديد الحماس لبروسيا،

(١) Treitschke, op.cit., p. XI.

(٢) Thompson, op.cit., p. 219.

(٣) Gooch, op.cit., p. 138.

(٤) Ibid, p. 140.

(٥) Treitschke, op.cit., p. XI.

(٦) The Encyclopedia Americana, p. 37.

ويكاد القارىء يلمس ذلك، بكل سهولة، في كتاباته التي تنطوي على غيرته الشديدة وآماله القوية في وحدة ألمانيا ورفع شأنها[1].

أصبح ترايشكه بين ١٨٧١ ـ ١٨٨٨ عضواً في الرايخشتاغ كوطني حر، مؤيد لسياسة بسمارك. كما ساهم في المناقشات حول صراع الحضارة (Kulturkamph) وهو الصراع الذي جرى بين النزعة العلمانية التي قادها بسمارك من جهة والكنيسة الكاثوليكية من جهة أخرى وبخاصة بعد أن أصدر البابا بيوس التاسع سنة ١٨٦٤ مرسوم الضلال، وفيه دعا إلى الوقوف ضد محاولات الدولة التدخل في شؤون التعليم والزواج، ودعا إلى نبذ النظريات العلمية وبخاصة نظرية دارون في أصل الأنواع وتنازع البقاء والأصل المشترك للإنسان والحيوان وإلى التمسك بالتقاليد الكاثوليكية. كما اتهم البابا الحضارة الحديثة في أوروبا بأنها حضارة جنسية تسمح للغرائز الحيوانية عند الإنسان بالبروز وتضعه في طريق اللذّات وتبعده عن القيم الروحية. وهاجم البابا في منشوره القومية معتبراً إياها السبب الرئيسي في إثارة الحروب بين الأمم والشعوب. ولم يقف البابا عند هذا الحد بل عقد مجمعاً دينياً أكد فيه أن منجزات الحضارة الأوروبية الحديثة ليست إلا أباطيل وفي هذا المجمع أعلن البابا ما يسمى بالعصمة البابوية وهي أن يتصرف البابا في العالم وكأنه المسيح[2].

ومع أن ترايشكه أصبح عضواً في البرلمان الألماني، فقد أعلن مرارا خيبة أمله في الحياة البرلمانية بأجمعها. وإلى شيء من هذا القبيل أشار في سنة ١٨٨٣ قائلاً: «من بين جميع مؤسسات أمبراطوريتنا الفتية ليس هناك أسوأ من الرايخشتاغ»[3]. مثل ليوبولد فون رانكه، كان ترايشكه مؤرخاً سياسياً.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شريف غربال، الدار القومية للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٥٩)، ص ٥٠٢.

(٢) Gooch, op.cit., 141.

وكذلك محمد محمد صالح، تاريخ أوروبا الحديث ١٨٧٠ ـ ١٩١٤ (بغداد، ١٩٦٩).

(٣) Gooch, op.cit., p. 141.

على أنه لم يعرف قط كما رغب رانكه في معرفة كيفية حدوث الوقائع، ولكنه كان يريد أن يعرف كيف يتم التأثير في التاريخ، وكيف يمكن استخدام التاريخ من أجل المستقبل(١). لذلك شكل ترايشكه مع اثنين من المؤرخين الألمان من المدرسة البروسية وهما هنريك فون سيبل، وجوهان كوستاف درويسن، في برلين عصبة وصفها المؤرخ البريطاني اللورد أكتون في عام ١٨٨٦ بأنها تمثل طليعة المؤرخين الكلاسيكيين الأمبرياليين(٢).

اشتهر ترايشكه بكثرة مؤلفاته التي ظل ينشرها على مدى نصف قرن. وفيما يلي عرض لأهم مؤلفاته:

1 — Deutsche Geschihte im 19. Jahrhundert, 5 Vols, Leipsig, 1879-1894.

German History in the Nineteenth Century.

أي تاريخ ألمانيا في القرن التاسع عشر. ويغطي هذا الكتاب تاريخ ألمانيا حتى آذار ١٨٤٨. وقد ترجم إلى اللغة الإنكليزية وطبع في نيويورك في سبعة مجلدات بين ١٩١٥ ـ ١٩١٩ من قبل (E. and C. Paul)(٣). ويقول الأستاذ كوج إن هذا الكتاب كان حلم ترايشكه الكبير، إذ قضى في كتابته قرابة عشر سنوات(٤). ويقال إن إدراكه لأهمية عائلة هوهنزرلن(*) وكرهه لمترنيخ وللإنكليز

---

(١) Treitschke, op.cit., p. XI.

(٢) Ibid, p. XI.

(٣) The Encyclopedia Americana, p. 37.

(٤) Gooch, op.cit., p. 141.

(*) آل هولنزرلن العائلة المالكة البروسية من ١٧٠٥ ـ ١٩١٨ ولم يتم هذا الحكم على أساس الأحزاب ولكن على تجنيد المصالح المحافظة ومعارضة الأحزاب اللبرالية والإشتراكية والكاثوليكية.

الأمير كليمنس فون مترنيخ ١٧٧٣ ـ ١٨٥٩ وزير خارجية النمسا بين عامي ١٨٠٩ ـ ١٨٢١. أصبح مستشاراً حتى عام ١٨٤٨. ولعب دوراً بارزاً في تكييف الدبلوماسية الأوروبية في عهد حروب نابليون. وبين ١٨١٥ و١٨٤٨ كان أبرز سياسي في اوروبا.

كانا وراء تأليفه هـذا الكتـاب. وهـو أبـرز مؤلفـات ترايشكه ويعـد في ألمانيا من الكتب الكلاسيكية، بسبب قوة أسلوبه ووضوح شخصية مؤلفه ووفرة الجانب القصصي فيه وبراعة تصويره الشخصيات[1]. وبفضل هذا الكتاب يوصف ترايشكه بأنه عميق التفكير، بليغ الأسلوب متحمساً وإن جـارت حماسته أحياناً على حقائق التاريخ[2]. وإلى شيء من هذا أشار ترايشكه نفسه حين قال في سنة **١٨٦٥** إن دمه حـار، فهو لهـذا لا يستطيع أن يكون مؤرخاً[3].

كان لترايشكه أبطال قوميون، وهم على التوالي: لوثر وهو أول بطل قومي ثـار ضد رومـا البابـوية. فـردريك الثـاني أبو الجيش البـروسي. بسمارك مؤسس الرايخ الجديد[4]. وهكذا فإن ترايشكه ركز في تاريخه على الأشخاص لكنه لم يهمل المؤسسات[5].

نشر ترايشكه المجلد الأول من كتابه سنة **١٨٧٩** وهو في جزئين.يدرو الجزء الأول منه حول الثورة الفرنسية والفترة النابوليونية. وبينما كان لودفيك هاوزر يبحث في الحكومات كان ترايشكه يقدم لوحة متكاملة للحياة القومية. يقول

---

(١) Encyclopedia of Social Sciences, p. 101.

(٢) The Encyclopedia Americana, p. 37.

(٣) Gooch, op.cit., p. 138.

(٤) أسسه بسمارك في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١. رسمياً كان الرايخ عبارة عن دولة اتحادية وبروسيا هي أحد أعضاء الاتحاد وإن كانت أكبر الولايات.

انظر: Treitschke, op.cit., p. XI

(٥) Gooch, op.cit., p. 139.

الأستاذ كوج: «إن مؤلف (الأشعار الوطنية) وجد في الشعر حقيقة الروح القومية. لذلك كان العمود الفقري لهذا الجـزء (قصـة بروسيا) وبخاصة فترة فردريك وليم الثاني. ولقد أنهى الجزء المذكور بفصل عنوانه: حرب التحرير ومؤتمر فينا»[١].

أما الجزء الثاني فتمتد حوادثه حتى عهود كارلسباد. وقد عرض فيه دور الأدب والفن، ودرس إعـادة بنـاء بروسيا بعد الحرب، مع فصل عن الدويلات الألمانية الجنوبية. وخصص القسم الأخير من هذا الجزء لوصف الصراع بين الروح التحررية التي كانت تنتشر آنذاك في الجـامعـات الضغـوط المترنيخية التي أجبرت الأمراء الألمان على أن يعملوا وفق ما يريد[٢].

لقد اتهم النقاد ترايشكه بأنه كان مؤرخاً لبروسيا وليس لألمانيا، وأن الفصـول المخصصة لبروسيا كانت أكثر جودة من غيرها. ومعظم النقد الذي واجهه ترايشكه جاء من بامكرتن (Baumgarten) الأستاذ في جامعة ستراسبورك، وهو مؤرخ ممتاز لتاريخ إسبانيا ولفترة حكم شارل الخامس. كان بامكرتن يكره ترايشكه لأنه كان يركز في كتاباته على بروسيا وليس على النمسا ولقد ظهرت هذه النقمة من خلال كتابه: (Treitschk's German History) والنقطة المهمة في هذا الموضوع هي أن نقده كان قبل ١٨٧٠ وليس بعدها لذا لم يلق أي صدى[٣]. أما الجزء الثالث فيغطي الفترة حتى ١٨٣٠ ويدرس فيه الاتحـاد الجمركي الألماني المعروف بالزولفراين وتاريخ الولايات الألمـانية الشمـالية. ويغطي الجزء الرابع العقد الأخير من الفترة الطويلة لحكم فردريك وليم الثالث ويبحث فيه تنامي الأفكار الدستورية. وفي الجزء الخامس الذي نشر سنة ١٨٩٤

---

(١) Ibid, p. 142.

(٢) Ibid, p. 142.

(٣) Ibid, pp. 142-143.

يدرس ترايشكه فترة حكم فردريك وليم الرابع وتطور القوة في ألمانيا، وتصل أحداث هذا الجزء إلى آذار ١٨٤٨.

كتب ترايشكه يقول إذا مد الله في عمره فسوف يكتب الجزء السادس[١]. ولكن صحته لم تساعده على ذلك فقد مرض وتوفي في ٢٨ نيسان ١٨٩٦ في مدينة برلين ولما يتجاوز سن الثانية والستين[٢]. وبعد موته حل هنريك فون سيبل محله في تحرير مجلة (Historische Zeitchrift, Historical Journal) والتي كانت تعتبر لسان حال المؤرخين الألمان الرسميين[٣].

أما الكتاب الثاني لترايشكه فهو بعنوان Politik أي (السياسة). وهذا الكتاب عبارة عن محاضرات جمعت من دفاتر تلامذة ترايشكه وكان قد ألقاها في جامعة برلين في مدة ٢٢ سنة[٤] ويعالج ترايشكه في هذا الكتاب موضوعات عديدة منها طبيعة الدولة، والأسس الاجتماعية لها، وهدفها، والدولة من وجهة نظر القانون الأخلاقي، وسقوط الدول، وأنواع الحكومات، والأرض، والشعب، والعائلة والعنصر والقبيلة، والأمم والطبقات والدين والتربية القومية، والاقتصاد وأشكال الدساتير، والملكية، والقيصرية، والاستبداد، والجمهورية والأمبراطورية والجيش والإدارة والقضاء والاقتصاد والقانون الدولي والعلاقات الخارجية[٥].

---

(١) Ibid, pp. 145-146.

(٢) The New Encyclopedia Britannica, p. 108.

(٣) Treitschke, op.cit., p. XI.

(٤) للتفاصيل انظر:

Hans Kohn, Nationalism and Realism 1852-1979, (London, 1968), pp. 162-163 Heinrich Von Treitschk, Politics,: English Trans, by Mrs Blanche Dugdale, (London, 1916) Queted from Kohn, op.cit., p. 163.

(٥) Treitschke, op.cit.

ومن مؤلفاته أيضاً:

عشر سنوات من الكفاح الألماني: (Zehn Jahre Deutsher Kampfe) وطبع مرتين في برلين الأولى سنة ١٨٧٤ والثانية سنة ١٨٧٩.

مقالات تاريخية وسياسية: (Historische und Politische Aufsatze).

وهو في ثلاثة أجزاء طبع في لايبزك بين ١٨٦٥ـ١٨٩٧. والكفاح الألماني الاشتراكي والبطولي (Deutsche Kampf Deresosialismunad der Meuchenmord) وطبع ببرلين سنة ١٨٧٨.

والاشتراكية ودعاتها (Der Socialismus und Seine Gonner) وطبع ببرلين سنة ١٨٧٥.

وكلمة حول يهودنا (Ein Wort uber Unser Judentum) وطبع ببرلين سنة ١٨٨٠.

وعلم الاجتماع (Die Gesellschaft Swissensch Aft) وطبع في لايبزك سنة ١٨٥٩. و (Reden im Deutschen Reichstage 1871-1884, ed. by O. Mittelsta dt (Leipsic, 1896) أي مقالات في الرايخشتاغ الألماني (١٨٥١ـ١٨٨٤).

وقيصران: (Zwei Kaiser, 1888 A Use Ewahlte Schriften (2Vols, 1907) وكتابات مختارة (Selections From the Politik) وظهر بالإنكليزية في لندن سنة ١٩١٤.

وظهر في الإنكليزية كتاب يجمع مقالات ترايشكه بين ١٨٧١ـ١٨٩٥ بعنوان: (Germany, France, Russia and Islam) وذلك سنة ١٩١٥[١].

---

(١) The New Encyclopedia Britannica, Vol, X, p. 108, Encyolopedia of the Social Sciences, Vol, 15, p. 101; The Encyclopedia Americana, Vol, XXVII, p. 37.

لم يكن ترايشكه مشهوراً بين الألمان فحسب، بل إن شهرته أصبحت واسعة في أوروبا، خصوصاً أنه كان المتحدث الرسمي باسم الرايخ. وبالفعل ظهرت عنه مجاميع عديدة من الكتب أبرزها ما يلي:

كتاب البروفسور أندريس دوربالين. (Andreas Dorplen). وهو أول كتاب يتحدث عن سيرة ترايشكه. وقد ظهر سنة ١٩٥٧ بعنوان:

Heinrich Von Treitschke

Davis, The Political Thought of Heinrich Von Treitschke (New York, 1915).

وكتاب: Schiemann, T. Heinrich von Treitschkes Lehr, und Wander Jahre ed. (Munich, 1898).

أي: سنوات تعلم هنريش ترايشكه ورحلاته.

Hausrath, A., Zur Erinnerung an Heinrich Von Treitschke (Leipzig, 1901).

أي ذكريات عن هنريش ترايشكه:

«Treitschke, His Doctrine and His Life (New York, 1914).

وكتاب: Mc Cabe, Joseph, Treitschke and Gerat war, (New York, 1914).

و. Mc Clure, E. «Germany's War Inspires», (New York, 1915).

و Mu gge, M., «Heinrich Von Treitschke» (New York, 1915).

٣ ــ فكره التاريخي:

وجّه كثير من المؤرخين، وعلى رأسهم ليوبولد فون رانكه، نقداً لاذعاً إلى ترايشكه[١]. ويقول الأستاذ كوج إن رانكه لم يرحّب بتعيين ترايشكه في جامعة

(١) أرنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، (القاهرة، ١٩٦١)، ص ٢٣.

برلين، لأنه كان يعده صحفياً أكثر منه مؤرخاً[1]. وكان رانكه يصف المؤرخين المنحازين إلى أية برامج وأفكار سياسية أو قومية أو دينية بأنهم كتاب (نشرات للدعوة). ولهذا السبب أقدم بعد ذلك على إنكار أي حق لترايشكه في لقب (مؤرخ) ووصف الأجزاء التي قرأها من كتاب ترايشكه (تاريخ ألمانيا في القرن التاسع عشر) بأنها مجرد نشرات تاريخية للدعوة قد كتبت بأسلوب برّاق[2].

ولقد قيل كذلك إن التاريخ عند ترايشكه ليس إلا مجرد منصّة للخطابة وإنه يحاول استخدامه للمجاهـرة بمطالبه السياسية، وسأل أحد المؤرخين هل كان امتناع ترايشكه عن الرجوع إلى وثائق المحفوظات البروسية لخشيته أن يتعرض رأيه المفصل في السياسة البروسية للمتاعب [3].

إن ما عمله ترايشكه لا يعد في نظر رانكه فقط خطيئة فادحة تتعارض مع روح الحقيقة التاريخية فحسب بل تعبيراً عن الضعف الشخصي، المتمثل في النقص في إرادة المعرفة[4]. وهذا ما جعل الأستاذ (Hearder) يقول إن آراء ترايشكه وأعماله السياسية تعبر عن وجهة نظر قومية ضيقة، وإن تحليلاته وتفسيراته للتاريخ تعتبر متحيزة وغير موضوعية[5].

أما الأستاذ فردريك هرتز فيقول إن آراء ترايشكه لم تحظ في معظم نواحيها بالقبول من الأغلبية الكبرى من العلماء والمثقفين الألمان وبخاصة من أولئك المشبعين بروح الفلسفة التحررية. فلقد تعرض كتاب تاريخ ألمانيـا لنقد شديد واعتبر كثير من المؤرخين أن ترايشكه كان صحفياً سياسياً لديه معلومات كثيرة عن التاريخ، أكثر منه مؤرخاً موضوعياً منزهاً عن الأهواء الشخصية[6].

---

(١) Gooch, op.cit., p. 141.

(٢) كاسيرر، المصدر السابق، ص ٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٥) H. Hearder, Europe, in the Nineteenth Century, 1830, (London, 1966), p. 346.

(٦) Hertz, op.cit., p. 402.

ينتمي ترايشكه إلى المدرسة البروسية في التاريخ، ولعل من أبرز ممثلي هذه المدرسة ينبور، ورانكه، ودرويسن، ودالمن، وMommsen، وسيبل. وكان لمعظم هؤلاء نشاط سياسي لذلك كافأتهم الحكومة البروسية بالعديد من المناصب وأحاطتهم بهالة من الشرف. ولعل من أبرز أهداف هذه المدرسة سعيها المتواصل إلى المزاوجة بين التاريخ والسياسة[1]. وانصرافها إلى تدوين العظمة البروسية وإبرازها[2].

إن ترايشكه، إذا ما قورن برانكه، يبدو كما يرى البعض مؤرخاً عملياً، ومن أبرز الذين أعطوا التاريخ المعاصر ما يستحقه من اهتمام[3]. ولكن ترايشكه ــ المؤرخ ــ كما يقول الأستاذ تومسون لم يلعب الدور الذي كان يجب أن يلعبه، فمؤلفه تاريخ المانيا، ربما اعتبر تحفة رائعة بالنسبة إلى الثقافة الأدبية الألمانية، فهو مكتوب بأسلوب بليغ، وبلغة شاعرية[4]، وبحماس دافق كان يطغى أحياناً على الحقيقة التاريخية[5].

لقد عرف ترايشكه كيف يكره، وكيف يحب، وكيف يؤثر، ولهذا فهو كما يقول الأستاذ تومسون، لم يكن مؤرخاً علمياً، وإنما كاتباً رائعا. كما إنه اشتهر كصحفي وكروائي أكثر منه مؤرخاً ونفوذه على الرأي العام داعية ومحرضاً سياسياً كان أكثر مما هو على الفكر التاريخي الألماني[6].

أما الأستاذ كوج فقال إن أسلوب ترايشكه كان بليغاً وقوياً فلقد كان فتاناً، بل ممثلاً لمدرسة قائمة بذاتها، تلك هي المدرسة البروسية. كان في

---

(١) Thompson, op.cit., p. 150.

(٢) Encyclopedia of the Social Sciences, p. 101.

(٣) Ibid, p. 101.

(٤) Thompson, Loc, cit.

(٥) الموسوعة العربية الميسرة، ص ٥٠٢.

(٦) Thompson, op.cit., p. 220.

أسلوبه يبزّ مومسن، ويضع المؤرخين الألمان الآخرين جانباً. لقد كان إنساناً، وبعكس رانكه الذي كان موضوعياً، كان ترايشكه زعيم المؤرخين (الذاتيين الألمان)، وكان أصدقاؤه يقارنونه بهوبستر (Hotspur) وسيد (Cid) وسيجفريد الصغير. وترايشكه يعد في نظر الاستاذ تومسن الممثل البارز للمدرسة البروسية[1]. وبعد وفاته ـ كما يقول ماكس لينز (Max Lenz) ـ ارتد المؤرخون إلى النموذج الرانكوي في الكتابة التاريخية[2].

وبعد تسع سنين من موت ترايشكه احتل أحد تلامذته ومستمعيه في جامعة هيدلبرك (ديترش شيفر) (Dietrich Schafer) كرسي التاريخ في جامعة برلين. وقد روى (Schafer) ذكرياته عن أستاذه قائلاً[3].

«كان ترايشكه يلقي محاضراته في التاريخ الحديث وقد رأى فيه الشباب الألماني تجسيداً لأمانيهم وطموحاتهم. لقد كان بمثابة النبي بالنسبة الى الوحدة الألمانية. آراؤه السياسية الثابتة الراسخة والواضحة أصبحت مرشداً لا يخطيء... إنني أشك في ما إذا كان أي أستاذ ألماني آخر منذ أيام فخته، له هذا القدر من التأثير على تلامذته مثل هنريخ فون ترايشكه».

أما تلميذه الآخر، البروفسور فردريك ماينخ (Friedrich Meinecke) الذي أصبح أستاذاً في جامعة برلين منذ ١٩١٤ حتى ١٩٢٨ فقد قال إن نفوذ ترايشكه وأفكاره كان لها أثر على المجتمع الألماني قبل ثورة تشرين الأول ١٩١٨. حتى في فترة فايمار من الرايخ الألماني فإن تأثير ترايشكه بقي قوياً، ومن ١٨٦٠ إلى ١٩٣٠ قدم ترايشكه المفهوم الألماني عن (طبيعة المجتمع)

---

(١) Gooch, op.cit., pp. 144-145.

(٢) Thompson, op.cit., p. 224.

(٣) Ibid, p. 220.

والدولة السياسية. ولا يوجد من المثقفين أو الكتاب الألمان من كان له مثل ذلك التأثير[1].

لقد أصبح لترايشكه نفوذ عظيم على الشباب الجامعي والفئات المثقفة بصفة عامة. ذلك أنه كان من أقوى الكتاب والمتحدثين السياسيين في تاريخ المانيا، وكانت موهبته البلاغية بصفة خاصة ساحرة وكان المستمعون إليه يقعون تحت تأثيره تماماً. ولم يكن نفوذه ككاتب بأقل من ذلك كثيراً. وقد اقترنت الانتصارات التي أحرزها بسمارك في السياسة بإنجازات ترايشكه الموازية لها في المجال الفكري، ونجح مجهودهما المشترك في وضع أسس النزعة القومية الألمانية الحديثة[2]. وهذا ما يجعلنا ننقلب إلى معالجة طبيعة العلاقة بين بسمارك وترايشكه.

٤ ــ بين بسمارك وترايشكه:

مرت العلاقة بين بسمارك وترايشكه بمرحلتين، امتازت الأولى بالعداء الذي كان يكنّه ترايشكه لبسمارك، في حين تميزت المرحلة الثانية بالتعاون بين الاثنين.

كان ترايشكه في بداية حياته متحمساً لثورات ١٨٤٨ وكان يعارض سياسة بسمارك المناهضة للتحررية[3]. كان ترايشكه تحررياً، وعندما أصبح بسمارك في ١٨٦٢ مستشاراً لبروسيا واشتبك على الفور في صراع حاد مع التحرريين الذين كانوا يتمتعون بثلثي الأصوات في البرلمان، ولم يهتم بالقانون الدستوري في القضاء على مقاومتهم[4]، هاجمه ترايشكه بعنف وقال عنه

(١) Treitschke, op.cit., p. XI.

(٢) Hertz, op.cit., pp. 397-398.

(٣) Encyclopedia of the Social Sciences, p. 101.

(٤) Hertz, op.cit., p. 400.

إنه كأي جانكرز (طبقة ملاكي الأراضي في ألمانيا) يفخر باستخدامه الحديد والنار. وكتب يقول: «يبدو أن بسمارك ليست لديه فكرة عن تأثير القوى الأخلاقية في العالم. وعندما كان يسمع بسمارك يتحدث فإنه كان يدرك أن هدفه هو أن يضع النير في رقبة الألمان لا أكثر ولا أقل»(١).

كما دعا ترايشكه إلى عودة بروسيا إلى الأوضاع الدستورية الشرعية التي خرقها بسمارك لكي تكسب الرأي العام وتزيد بذلك قوتها. وقال: «إن الأغلبية الساحقة من الألمان مشبعون أساساً بالتحررية ويعتبرون قوة الوطن مسألة ثانوية. وقد يكون ذلك مما يؤسف له، ولكن يجب ألا يغفل عنه. وأدرك ترايشكه أن حركة الوحدة القومية لا تتمتع بتأييد قوي من الجماهير ومن المشكوك فيه أن يكون لدى الشعب في أي وقت من الأوقات القدرة على القيام من أجلها. والسبيل الوحيد إلى الوحدة الألمانية هي السياسة التي سلكها ملك سردينيا وكافور(٢) في تحقيق وحدة إيطاليا، أي أسلوب الغزو المقرون بالتحررية(٣).

لقد كان ترايشكه يطالب الالمان بفعل ما يجب أن تفعله بروسيا ولقد كتب مقالاً عن كافور أظهر فيه تعاطفاً شديداً معه، إذ اعتبره بطلاً قومياً(٤).

وهنا يشير الأستاذ هانس كون إلى أن ألمانيا كانت تختلف عن إيطاليا آنذاك، فإيطاليا ذات مفهوم جغرافي محدد. أما ألمانيا فتتألف من ولايات مستقلة، وكانت النمسا وبروسيا تتنافسان على قيادة الحركة الوحدوية

---

(١) Werner Richter, Bismarck, Translated from the German by Brian Battershaw, (London, 1964) p. 122.

(٢) كاميليو كافور ١٨١٠ ــ ١٨٦١ سياسي إيطالي، كان رئيساً لوزراء سردينيا بين عامي ١٨٥٢ و١٨٥٩ وعامي ١٨٦٠و١٨٦١. يرجع إليه أكبر الفضل في تحقيق الوحدة الإيطالية.

(٣) Hertz, op.cit., p. 400.

(٤) Gooch, op.cit., pp. 139-140.

الألمانية. وكان الاتحاد الكونفدرالي بين بعض الولايات الألمانية يعتبر في نظر أوروبا بمثابة ضمان للسلام والأمن في القارة. وكان على ألمانيا التي فقدت وحدتها أن تعتمد على نفسها ضد أي عدوان، إذ أن عدم اتحادها جعلها مسرحاً لجيرانها[١]. ولقد فهم المثقفون الألمان، قبل تنامي الحركة القومية الألمانية، طبيعة الخطر الذي تتعرض له ألمانيا، ومن هؤلاء بخاصة جون ستيفن بوتر (Putter) قائد الاصلاح الدستوري في سنة ١٧٨٦ حتى ترايشكه نفسه كتب يقول إن بعض الألمان في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانوا مرتابين واعتدائيين حتى إزاء بروسيا التي اعتبرت دولة استبدادية يلعب فيها الجيش دوراً بارزاً[٢].

وفي سنة ١٨٦٦ عرض بسمارك على ترايشكه وظيفة مهمة وهي مرافقته في عملياته الحربية وكتابة البلاغات، أو بعبارة أخرى أن يستخدم قلمه في خدمة القضية البروسية. كما عرض عليه كرسي التاريخ في جامعة برلين، ولكن ترايشكه رفض ذلك كله، وفضل أن يظل مستقلاً معللاً أنه لا يستطيع أن يكون موظفاً بروسياً[٣].

ثم جاءت انتصارات بسمارك بين سنتي ١٨٦٦ و١٨٧٠ لتعزز وجهة نظر ترايشكه في أن تصبح بروسيا هي نواة الدولة القومية. كان يعتبر تلك الانتصارات بمثابة (حكم الله في التاريخ)[٤] عندئذ أبدى ترايشكه إعجابه ببسمارك ونظر إليه على أنه القادر على أن يجعل بروسيا مركزاً لأمبراطورية عظيمة ورأى أن في استطاعة فردريك وليم الثاني أن يقيم أعظم دولة ملكية في التاريخ. وقد

---

(١) Kohn, op.cit., p. 84.

(٢) Gooch, op.cit., p. 140, p. iX.

(٣) Kohn, op.cit., pp. 83-50.

(٤) Header, op.cit., pp. 48-50.

وضع تصوراته هذه على أساس تفوّق العنصر الجرماني ومن خلال دراسته التاريخية لنظام الفرسان التيوتونيين في العصور الوسطى. إن ايمان ترايشكه بنمو بروسيا وقيادة بسمارك استمر منذ ١٨٦٦ حتى ١٨٧٠[١]. ولم يكن هذا التغيير عند ترايشكه سوى انعكاس لما كانت تشعر به الطبقة الوسطى الألمانية نفسها إذ زعزعت الحرب ضد الدانمرك وما تمخضت عنه إيمانه التحرري بالسياسة التي تقوم على المشروعية والأخلاق وأثارت أمله في تحقيق الوحدة القومية بحد السيف البروسي[٢]. والجدير بالذكر أن قومية ترايشكه لم تبنَ على أساس النظرية السياسية القائمة على اللغة أو العنصر فحسب، وإنما كانت تأخذ في الاعتبار عامل القوة أيضاً. قال ترايشكه في إحدى محاضراته: «نحن بحاجة إلى أمبراطور لألمانيا، لأن النمسا لا تستطيع أن تمنحنا ما نريد، فهي ليست حرة كما أنها ليست دولة ألمانية) وفي اليوبيل الفضي لمعركة لايبزك قال: «إننا نحتاج إلى الدولة»[٣]. لقد تحوّل ترايشكه إذن عن مبادئه التحررية خطوة بعد أخرى وتقدم في أواخر حياته بوجهات نظر كانت على النقيض تماماً من تلك التي تقدم بها في أوائل حياته[٤].

٦ ـ آراء ترايشكه السياسية:

في محاضراته المشهورة عن (السياسة) وفي بعض مقالاته وأخيراً في أبرز مؤلفاته (تاريخ ألمانيا في القرن التاسع عشر) الذي لم يكمل، طرح ترايشكه آراء صارت الأساس الذي قامت عليه النزعة الألمانية القومية الحديثة، وكان لها أثر كبير على عقلية قسم كبير من أفراد الطبقتين الوسطى والعليا في ألمانيا. ومن

---

(١) Hertz, op.cit., p. 400.

(٢) Hearder, op.cit., pp. 49-50.

(٣) Hertz, op.cit., p. 402.

(٤) Ibid, p. 402.

الواضح أن ترايشكه لم يتخل كلية عن ماضيه التحرري. فحتى ١٨٧٩ كان ينتمي إلى حزب الأحرار القومي وكان هو أحد نوابه في الرايخشتاغ. وكان من وقت لآخر يشير إلى التأثير السيِّىء للحروب على الأخلاق ويظهر باستمرار فهمًا لمنجزات الأمم الأخرى ويعطف عليها؛ كما ظل فترة طويلة من المدافعين الأشداء عن حرية التجارة. وبدت له التيوتونية التي ينادي بها (ياهن) وأتباعه وتعصبهم ضد فرنسا انحرافاً خطيراً في الفكر الألماني[١].

كذلك حاول ترايشكه معارضة محاولة (التيتونيين المتطرفين) لتنقية اللغة الألمانية من كل الألفاظ التي من أصل أجنبي. كذلك بدا له اعتراف مكيا فيللي بأن السعي إلى القوة هو هدف السياسة ،من دون أي تبرير أخلاقي، شيئاً فظيعاً. ففي نظره أن لا شيء يبرر القوة سوى الهدف الأخلاقي. ولكن مبادىء ترايشكه في التطبيق لم تختلف كثيراً عن مبادىء مكيافللي فقد كانت سياسة القوة والهيبة التي تنتهجها بروسيا صحيحة دائمًا في نظره، بينما كان يهاجم في عنف الدول الأخرى إذا فعلت ما تفعله بروسيا[٢].

وكانت مفاهيم القانون الدولي، والأخلاق في السياسة، والإنسانية في القانون، والحرية السياسية، والمساواة الاقتصادية، وحقوق المرأة، والحركة العمالية، والثقافة الجماهيرية، والكنيسة الكاثوليكية، أموراً كريهة لديه... وقد كتب عن ألمان الجنوب والنمساويين والأمم الأخرى بعداءشديد. كذلك يعتبر ترايشكه مسؤولاً إلى حد كبير عن شيوع موجتي الخوف من الإنكليز والعمل ضد اليهود[٣].

سنة ١٨٦١ كتب ترايشكه مقالاً ممتازاً عن الحرية، وهو بمثابة جواب إلى

---

(١) Ibid, p. 402.

(٢) Ibid, p. 402.

(٣) Ibid, pp. 402-403.

جون ستيوارت مل[1] قال فيه: إن كل شيء جديد في القرن التاسع عشر هو نتاج التحررية وإن الحياة تبنى على الحياة السياسية الهادئة، والإدارة الجيدة أكثر مما تبني على البرلمان. وقال إن إنكلترا لديها دولة ولكنها لم تعط قيمة لهذه الدولة لأنها بالنسبة إليها شيء طبيعي، غير أن ألمانيا ليس لها دولة قومية ولذا فإن الدولة لديها شيء ثمين قيم بالنسبة إليها والألمان يقدرونها تقديراً عظيماً[2]. إن فكرة ترايشكه عن الحرية لم تكن هي فكرة الثورة الفرنسية التي جعلتها والمساواة شيئاً واحداً وانتهت بحكم استبدادي بشع. فقد كانت فكرته هي المفهوم الإنكليزي عن الحرية[3].

وفي سنة ١٨٦٤ كتب ترايشكه مقالاً عن (الدولة الموحدة والدولة الاتحادية) وكان هذا المقال بمثابة نداء قوي من أجل وحدة ألمانيا بروسيا، وكان للمقال صدى عظيم لدى الرأي العام فقد فند فيه جميع حجج اللامركزيين في تاريخ ألمانيا، وكانت رغبته أن تكتسح بروسيا الأسر المالكة المختلفة والولايات الصغيرة وتوحد ألمانيا كلها تحت حكم أسرتها المالكة. فالاتحاد الألماني الذي خلقه مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ ليس اتحاداً حقيقياً، بل هو مجرد تحالف بين الأسر المالكة ضد حرية الشعوب، ولا يستطيع أن يمنح ألمانيا مركزاً قوياً محترماً أما عن إمكان تحويل الاتحاد إلى وحدة حقيقية وشعار التطور العضوي، اللذين نادى بهما الرومانسيون فهما مضللان، فالدولة يمكن أن تكون في حاجة إلى طاقة ثورية[4].

اهتم ترايشكه كذلك بدحض الزعم القائل بأن التعصب الإقليمي الألماني مفيد للحرية والثراء والثقافة، وحاول إثبات أن الوحدة القومية وحدها تستطيع أن تضمن تقدم ألمانيا وازدهارها. فألمانيا لا تستطيع منافسة الأمم البحرية

---

(١) Hearder, op.cit., p. 50.

(٢) Gooch, op.cit., p. 139.

(٣) Hertz, op. 399.

(٤) Ibid, p. 399.

الاستعمارية الكبرى، لكنها تستطيع على الأقل أن تحقق لها مركزاً محترماً في أوروبا. ولهذا الغرض يجب أولاً استبعاد النمسا. فالنمسا دولة طابعها الغالب ليس ألمانيا ومنذ قرون أخذت تبعد عن الأمة الألمانية ونمت لها تقاليدها الخاصة وولاؤها الخاص، وبروسيا وحدها هي التي يحق لها أن تحقق الوحدة الألمانية ذلك أن إنجازاتها السياسية الكبرى هي نفسها إنجازات الشعب الألماني(١).

إلى ذلك درس ترايشكه في مقاله موضوع إمكانية تحقيق الوحدة الألمانية بالأسلوب الفدرالي وانتهى إلى جواب سلبي. وكان الاعتقاد السائد أن الحرية والقوة لا تجتمعان إلا في اتحاد فدرالي من الأقطار الصغرى. وفي الجمعية الوطنية في سنة ١٨٤٨ حاول اليسار الألماني المتطرف أن يقسم الولايات الألمانية الكبرى إلى جمهوريات صغرى. أما ترايشكه فكان يعتقد أن الحقيقة الأساسية للتجربة الألمانية تنطلق من أن طبيعة الدولة هي القوة في النهاية(٢).

كان ترايشكه واحداً من الأساتذة الألمان العظام في العلوم السياسية، وكان يرجع في محاضراته عن السياسة إلى أفكار العديد من الكتاب والمفكرين(٣)، أمثال أرسطو وماكيافللي ودالمن وستيل ودي توكفيل(٤). وفي محاضراته تلك كان يشرح النظام السياسي من وجهة نظر القوانين الأخلاقية والتاريخية في مواجهة القوانين الطبيعية(٥)، مركزاً على أهمية دور القوة

---

(١) Ibid, p. 399.

(٢) Ibid, p. 400.

(٣) Encyclopedia of the Social Sciences, p. 101.

(٤) ألكسيس دي توكفيل(١٨٠٥ ـ ١٨٥٩) سياسي فرنسي ومؤرخ وعالم بالنظريات السياسية، له كتاب بعنوان (الديمقراطية في أمريكا).

(٥) Encyclopedia of the Social Sciences, p. 101.

القوة الذي تمثله الدولة (Machtpolitik)[1]. كان يقول: «الدولة ليست أكاديمية فنون: إنها القوة»[2]. The State is not an Academy of Arts... it is Power!

كما أشار ترايشكه إلى أن الأبطال الأقوياء هم الذين يصنعون التاريخ. وهو عندما يتحدث عن مفاهيم الحرية، فإنما يقصد الحرية السياسية، وهي نظرة محددة من قبل الدولة. وقد انعكس هذا الموقف في عدم اعترافه لا بالنزعة الإنسانية الكلاسيكية ولا بالنزعة الكوزموبوليتية. وكانت فلسفته التربوية تقوم على فكرة البطولة[3].

يقول الأستاذ هيرد: لم يكن ترايشكه مثل مازيني، إنسانياً يشعر بعاطفة تجاه الأمم الأخرى. ولكنه كان يركز على الألمان[4]. كان يعتقد أن الألمان هم ورثة الأمبراطورية الرومانية المقدسة. لذلك أشار إلى أهمية العرق في تكوين القوة الأمبراطورية العظيمة[5]. وفي محاضراته عن التاريخ كان يؤكد باستمرار على أن القوة هي جوهر (Essence) الدولة[6]. ويضيف الأستاذ هيردر أن ترايشكه دعا إلى تقوية الجيش الألماني، لكي يبني أمة قوية ذات مؤسسات سياسية. كان ترايشكه يقول: «لم يكن للجرمان برلمان، ولكن كان لديهم جيش»[7]. لذلك مجّد ترايشكه الحرب في محاضراته في العلوم السياسية وفي مقالاته المتعددة. وكان يردد باستمرار أن «عصرنا هو عصر الحرب، عصرنا هو عصر

---

(١) Machtpolitik (Power Politics and Practical Politics.

(٢) Gooch, op.cit., p. 145.

(٣) Encyclopedia of the Social Sciences p. 101.

(٤) Hearder, op.cit., p. 40.

(٥) The New Encyclopedia Britann: ca, p. 108.

(٦) Treitschke, op.cit., p.X.

(٧) Hearder, op.cit., p. 50.

الحديد»[1] وقد كتب مرة يقول: «إن القوة هي قانون الحياة». ومن هنا يرى الأستاذ كوج أن النقطة الأساسية في فكر ترايشكه السياسي كانت تدور حول ضرورة قيام الدولة القوية[2]. فكان يثق بقيمة هذه الدولة وأهميتها في توفير العيش الرغيد للمواطنين[3] وكان يعتقد أن الحرب هي الطريقة المثلى لتكوين الدولة القومية. وهي، أي الحرب، ضرورة لابد منها وسيلة فعالة للحفاظ على الحضارة وحمايتها[4].

كان ترايشكه يكره اليهود وكانوا محوراً رئيسياً لمحاضراته[5]. ففي سنة ١٨٧٩ كتب يقول: «إن اليهود هم سبب كل مصائبنا»[6]. ويقول الأستاذ فردريك هرتز أن ترايشكه أكد في بادىء الأمر أنه يعارض الكراهية العنصرية ويقاوم أي تمييز في الحقوق المدنية، وأن كل ما يبغيه أن يهجر اليهود سماتهم المميزة ويندمجوا في المجتمع الألماني ويصبحوا ألماناً طيبين[7].

يشير بعض المؤرخين إلى أن هدف ترايشكه الحقيقي من حملته ليس اليهود بل التحررية، وأن اليهود استخدموا كوسيلة لإثارة الرأي العام ضد مبادىء التحررية الأساسية، ويدللون على ذلك بقولهم إن حملة ترايشكه لم تحظ بقبول واسع بين كبار المثقفين ولم يقف إلى جانبه عالم بارز واحد، وأكثر من هذا نشر بيان

---

(١) Gooch, op.cit., 145.

(٢) Ibid, p. 145.

(٣) The New Encyclopedia Britannica, p. 108.

(٤) Roger Chickering, Imperial Germany and World Without War, (Peinceton, 1973), p. 394.

(٥) Encyclopedia of the Social Science, p. 101.

(٦) Kohn, op.cit., p. 52-53.

(٧) Hertz, op.cit., p. 403.

عام وقعه عدد من الشخصيات المثقفة، يعبّر عن عدم القبول المطلق لحملة ترايشكه تلك[١]، ووجه أحد مؤرخي الألمان تيودر مومسن (١٨١٧ ـ ١٩٠٣) نقداً شديداً إلى ترايشكه بسبب موقفه ومعاداته لليهود. كما أخذ على عاتقه مهمة تنفيذ تلك الآراء[٢]. ومن هنا فقد اتهم الكثير من الكتاب، ولا سيما أولئك وقعوا تحت تأثير اليهود والحركة الصهيونية، ترايشكه بأنه عنصري متطرف[٣].

من جهة أخرى كان لترايشكه تأثير عظيم على الشباب الجامعي المثقف[٤]. لذا قسم كبير من طلبة الجامعات بحماس أفكار ترايشكه تلك، واستخدمها (ستويكر) وبعض رجال الدين البروتستانت للدعاية بين الطبقة العاملة التي كانوا يريدون اجتذابها. ولقد انضم ترايشكه (وكان من أنصار مذهب وحدة الوجود ويهزأ بالكنائس) إلى هذه الجماعة للدفاع عن المسيحية[٥].

كان موقف ترايشكه التاريخي من اليهود ثابتاً، وكان يكرر في حلقاته الدراسية الأكاديمية وفي مقالاته: اليهود في ألمانيا يسيطرون على التجارة، والمصارف، وحتى على الصحافة والفنون والآداب والمسرح[٦]. يقول الأستاذ جيمس سكيهان (Scheehan): «لقد كان لملاحظات ترايشكه أثر كبير في الكشف عن سيطرة اليهود على الاقتصاد الألماني، والحياة الثقافية، ليس في الاجتماعات العامة وفي الصحف وفي الكراريس فحسب ولكن داخل مناقشات الدايت

---

(١) Ibid, p. 403.

(٢) Gooch, op.cit., p. 145.

(٣) Hearder, op.cit., p. 50.

(٤) Kohn, op.cit., pp. 52-53.

(٥) Hertz, op.cit., p. 404.

(٦) Encyclopedia of the Social Sciences, p. 101; James J. Scheehan (ed) Imperial Germany, (New York, 1976), p. 98.

والرايخشتاغ كذلك». وكان موقف ترايشكه من اليهود قد أفسح له المجال في قلوب الشباب الالماني المثقف ثقافة برجوازية بشكل خاص[1].

كذلك هاجم ترايشكه الاشتراكيين في كتابه (الاشتراكية ودعاتها)[2] وحين ألّف بعض كبار علماء الاقتصاد سنة ۱۸۷۲ (اتحاد الاصلاحات الاجتماعية) ووضعوا له برنامجاً من الأبحاث في أوضاع الطبقة العاملة، بهدف وضع مقترحات للتشريعات الاجتماعية وللحيلولة دون تفاقم الفوارق الطبقية، اتهمهم ترايشكه بالميل إلى الاشتراكية مؤكداً أن تخفيف الصراع الطبقي ليس أمراً مرغوباً فيه، فالتفاوت الاجتماعي شيء سليم، والملايين يجب أن تكدح كي يكون في استطاعة بضعة آلاف أن يحكموا وينتجوا ثقافة. وقد أثارت هذه الآراء معارضة شديد. كما انضم معظم علماء الاقتصاد إلى الاتحاد وتعاونوا في وضع دراسات اجتماعية مهدت السبيل لكثير من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية في ألمانيا فيما بعد[3].

يشير أحد الكتاب إلى أن ردود فعل ترايشكه القوية إزاء الاشتراكية لم تكن فقط لرفضه أو نبذه لأي نوع من أنواع الاشتراكية، ولكن لفقدان اهتمامه بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية في سير حركة التاريخ ولمفاهيمه الأرستقراطية عن الحرية[4].

وقد هاجم ترايشكه الرأسمالية الانكليزية وقال إن بريطانيا تعيق نمو الامبريالية الألمانية والتوسع الكولنيالي الألماني. كان ترايشكه ـ في نظر بعض المؤرخين الانكليز خاصة مسؤولاً إلى حد ما عن شعور العداء لبريطانيا في المانيا في

---

(۱) Scheehan, op.cit., p. 98.

(۲) Gooch, op.cit., p. 145.

(۳) Hertz, op.cit., p. 403.

(٤) Encyclopedia of the Social Sciences. p. 101.

العقد الأخير من حياته[١]. حتى أن أحدهم يشير إلى ذلك صراحة في سنة ١٩٤٣ قائلاً: «إن أكثر جوانب ميراث ترايشكه ضرراً لعصرنا الحاضر هو التعصب ضد الإنكليز الذي نما لديه في أواخر حياته، والذي كان له نصيب كبير في تمهيد السبيل للحرب العالمية الأولى»[٢]. ومن هنا كان الهجوم على ترايشكه في انكلترا بعد اندلاع الحرب، بصفته أحد دعاتها. ولقد اتخذت أفكاره ضد إنكلترا والإنكليز كمظهر من مظاهر الصدام بين ألمانيا وبريطانيا[٣].

كان ترايشكه معجباً في البداية بالحرب الإنكليزية وبوحدة إنكلترا القومية، وأشاد بالنظام البرلماني الانكليزي والحكم الذاتي وبالطابع القومي والثقافة الإنكليزية[٤]. وفي ذلك الوقت كان يكره روسيا والنمسا وفرنسا. وكان يحتقر لويس فيليب[٥] وليوبولد ملك بلجيكا ويقول عنهما إنهما ملوك تجار[٦]. وبدا له أن أفضل سياسة لألمانيا هي التحالف مع إنكلترا. ولكن تغير موقفه من السياسة البريطانية في ما بعد بسبب حيادها والعطف السائد فيها على فرنسا، وزادت غضبه حدة سياسة إنكلترا حيال الشرق[٧].

صحيح أن ترايشكه كان يرى أن شعوب أوروبا الشرقية ليسوا سوى «رعاع» وأنهم بحاجة إلى حكام ألمان، إلا أن الانكليز كانوا في نظره أسوأ منهم ليس بطبيعتهم فحسب، ولكن لسياستهم الخاطئة أيضاً. ومن هنا قول ترايشكه بأن بريطانيا ليست سوى (قرطاجة جديدة) وانها بذلك تقف عقبة أمام سيادة الفكر الألماني والقوة الألمانية[٨].

---

(١) Hertz, op.cit., pp. 404-405.

(٢) Hertz, op.cit., pp. 404-405.

(٣) The Encyclopedia Americana, p. 37.

(٤) Hertz, op.cit., p. 404.

(٥) ملك فرنسا بين ١٨٣٠ ـ ١٨٤٨ جاء إلى الحكم في أعقاب ثورة ١٨٣٠.

(٦) Gooch, op.cit., p. 144.

(٧) Hertz, op.cit., p. 404.

(٨) Treitschke, op.cit., p. XI.

كانت العوامل الأساسية في هذا التغير، تحوله عن التحررية ونمو الديمقراطية في بريطانيا وكذلك توسعها الاستعماري وخيبة أمله في تحقيق رغبته القوية في قيام أمبراطورية استعمارية ألمانية كبرى. إذ كان من الواضح أن هذه الرغبة لا يمكن أن تتحقق إلا على حساب الامبراطورية البريطانية(١).

لقد وضع ترايشكه أمله فعلاً في حرب البوير إذ اعتقد أن بامكانهم طرد الإنكليز من جنوبي أفريقيا وإقامة محمية ألمانية هناك. بيد أن رغبته في التوسع لم تقتصر على الممتلكات البريطانية إذ عندما حصل بسمارك على الكمرون لألمانيا تساءل ترايشكه قائلاً: «الكمرون؟ ماذا نفعل بهذا الصندوق الرملي؟ دعنا نأخذ هولندا، وعندئذ تكون لنا مستعمرات»(٢).

وفي سنة ١٨٧٦ كتب يقول: «إن الأسطول الألماني يجب أن يحصل على أول أكاليل الغار بمحاربته الأسطول البريطاني»(٣). وأعرب في احدى محاضراته عن أمله في أن تصبح ألمانيا يوما ما أكبر قوة بحرية. وصار عداؤه لإنكلترا جنونا، وصار يرسم صورة السياسة البريطانية والطابع البريطاني زاخرة بالسمات المنفرة، واتهم إنكلترا بأنها كانت تعمل منذ قرون على إثارة العدوان بين دول القارة الأوروبية لتطلق يدها في الحصول على أمبراطورية عظيمة بالسرقة وحدها. وكان السبب الحقيقي لغضب ترايشكه على حد قول أحد المؤرخين أن بريطانيا كانت تمثل عقبة كأداء في سبيل صعود ألمانيا إلى السيطرة العالمية(٤).

ويبدو أن موقف ترايشكه من الإنكليز وإنكلترا هو السر وراء صدور العديد من المؤلفات عنه في إنكلترا وبخاصة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى.

---

(١) Hertz, op.cit., p. 405.

(٢) Ibid, p. 405.

(٣) Thompson, op.cit., p. 222.

(٤) Hertz, op.cit., p. 405.

يقول الأستاذ هانس كون: إن أفكار ترايشكه أخصبت سنة ١٩٣٣ ويقصد بذلك تنامي الأفكار النازية في ألمانيا وتعيين أدولف هتلر زعيم الحزب الاشتراكي القومي (النازي) مستشاراً (رئيس وزراء) لألمانيا في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ ومن الممكن القول إن ترايشكه نفسه لم يكن راضياً عما حدث بعده[١].

خاتمة:

مهما يكن من أمر فإن ترايشكه يعد، في نظر بعض المؤرخين، الناطق الرسمي المتحمس باسم القومية الألمانية في عصر بسمارك. كما أنه من المفكرين الذين يضعون الوحدة فوق الحرية، ويعتقدون ضرورة قيام الوحدة كحل طبيعي لكثير من التناقضات التي تواجهها الأمة. لذلك فقد ظهر من خلال كتاباته ومحاضراته العديدة أنه كان يمتلك نفوذاً كبيراً على أجيال عديدة من المثقفين والشباب الألمان. وقد بدا واضحاً الأثر البارز لنظرياته السياسية في الحربين العالميتين الأولى والثانية...

(١) Kohn, op.cit., pp. 52-53.

المصادر

(1) Kohn, Hans, Nationalism and Realism 1852-1879, (London, 1968).
(2) Heinrich Von Treistchke, Politics, Abridged, Edited and With an Introduction by Hans Kohn, (New York, 1963).
(3) Scheehan, James J. (ed) Imperial Germany (New York, 1976).
(4) Chickering, Roger, Imperial Germany and World Without War, (Princeton, 1973).
(5) Richter, Werner, Bismarck, Tr, from the German by Brian Battershaw (London, 1964).
(6) Thompson, James Westfall, A History of Historical Writing, Vol, II, (New York, 1942).
(7) Gooch, History and Historians in the Ninteenth Century, (London 1952).
(8) Frederich Herts, Nationalityin History and Politics, (London, 1957).
(9) Hearder H. Europe in the Nineteeth Century, 1830-1880, (London, 1966).
(1) The New Encyclopedia Britannica, (Chicago, 1973) Vol X.
(11) Encyclopedia of the Social Sciences, Vol, 15, (New York, 1954).
(12) The Encyclopedia Americana, New York, 1960) Vo, XX VII.

(١٣) بليخانوف، جورج، محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة جورج طرابيش، (بيروت ١٩٧٣).
(١٤) كاسيرر، أرنست، في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، (القاهرة ١٩٦٢).
(١٥) الموسوعة العربية الميسّرة، بإشراف محمد شريف غربال، (القاهرة ١٩٥٩).

المؤرخ المصري الكبير: أحمد عزت عبد الكريم
(١٩٠٨ ــ ١٩٨٠)

إعداد
أحمد عبد الرحيم مصطفى
(أستاذ التاريخ الحديث ــ جامعة الكويت)

افتقدنا في شهر أغسطس (آب) الماضي علماً من أعلام الدراسات التاريخية ليس فقط في مصر بل في الوطن العربي الكبير، هو الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذي ملأ الساحة جيلاً من الزمان كان خلاله موجهاً وطاقة محركة ليس فقط للمجموعة التي تحلقت حوله من تلامذته ومريديه، بل لغيرهم ممن أنسوا إليه والتمسوا منه النصح والإرشاد. فهو بذلك يذكرنا بالمبرزين من علماء الإسلام ممن فتحوا بيوتهم وأنفسهم لطالبي المعرفة لا يفصلهم عنهم حاجز أياً كان بحيث أفادوا ورعوا وأسهموا في الازدهار الثقافي الذي تميّزت به الحضارة الإسلامية في أوجها، ثم عملوا على حفظ التراث خلال العهود التي جارت فيها عوادي المحن والضعف على الأمة ردحاً طويلاً من الزمان.

كان ــ رحمه الله ــ معلمًا وأستاذاً قبل كل شيء. حقيقة أنه تقلد بعض المناصب القيادية، إلا أنها لم تصرفه عن تلامذته ومريديه ــ بل إنهم كانوا باستمرار يجدون أبوابه مفتوحة لا تصدهم عنه مظهريات المناصب التي يتمسك بها من لهم بها ولع في حد ذاتها. وهكذا نجده لا يني عن حفز الدراسات التاريخية وإرساء قواعدها ودعمها إلى أن خلف رعيلاً كبيراً من تلامذته

الدارسين الذين يتبوأون مكانتهم في جامعات بلادهم ومعاهدها العلمية، يتابعون المسيرة في مشارق الوطن العربي ومغاربه ويؤصلون الدراسات التاريخية الحديثة وفقاً للمناهج العلمية الحديثة.

وبعد ـ فالفقيد ينتمي إلى المجموعة الأولى من خريجي كلية الآداب بالجامعة المصرية التي جرى افتتاحها في القاهرة في أواسط العشرينات بعد ما أصاب مشروعها من مد وجزر منذ أوائل القرن العشرين. فلقد أدرك الوطنيون المصريون أن لا خلاص لهم من الاحتلال البريطاني إلا بنهضة تعليمية كانت الجامعة نقطة الارتكاز فيها برغم ما كان يذهب إليه اللورد كرومر من أن مصر ليست بحاجة إلى التعليم العالي بقدر ما هي بحاجة إلى الكتاتيب والتعليم الأولي ـ وهي حجة استعمارية هدفها وأد الحركة الوطنية، على اعتبار أن المثقفين في ذلك الوقت كانوا هم أعدى أعداء الاحتلال وأكثر المصريين إدراكاً لضرورة الاستقلال.

وهكذا كان افتتاح الجامعة المصرية ثمرة من ثمار ثورة ١٩١٩ التي اشتركت فيها مصر بشتى طبقاتها من الإسكندرية إلى أسوان. وطبيعة مناهج هذه الجامعة ـ في الحقول النظرية على الأقل ـ كانت تعكس طموحات الوطنيين من حيث الاحتفاظ بما في التراث مع الانفتاح في الوقت نفسه على التقدم العالمي، ومن ثم الاهتمام ليس فقط باللغات الأوروبية الحية، وفي مقدمتها الإنجليزية والفرنسية، بل ببعض اللغات الكلاسيكية أيضاً كاللاتينية واليونانية.

وإزاء عدم وجود كادر متكامل من الأساتذة الوطنيين، استعانت الجامعة بعدد كبير من أبرز الأساتذة الأجانب الذين كانوا ينتمون إلى مختلف الجنسيات الأوروبية ممن قاموا بالتدريس جنباً إلى جنب مع المبرزين من الأساتذة المصريين. ومن هؤلاء الأخيرين وفد على الجامعة المصرية شاب لامع عاد لتوّه من بريطانيا حيث تتلمذ على المؤرخ البريطاني المشهور أرنولد توينبي الذي قيض

له فيما بعد أن يطبق الآفاق بنظريته الخاصة بالتحدي والاستجابة وانتقال الأثر الحضاري عبر الزمان والمكان. ذلك الشاب هو محمد شفيق غربال الذي شد إليه تلامذته ــ ومنهم موضوع المقال ــ بما اصطنعه من إيثار للتحليل وربط الأحداث والتغاضي إلى حد ما عن التفاصيل التي درج كتاب التاريخ في السابق على إعطائها الأسبقية في العرض التاريخي دون تدقيق أو تمحيص لفحواها وهكذا أولع أحمد عزت عبد الكريم بشفيق غربال منذ أن استمع إليه إلى أن رحل غربال في أوائل الستينات، وظل يذكره بكل التبجيل والاحترام إلى أن افتقدناه. فكم روى لنا أحاديث أستاذه وأورثنا حبه واحترامه له، وعلمنا كيف نفسر صيغه المنتقاة ذات المعاني الظاهرة والباطنة معاً.

ولما كان غربال يعقد حلقات دراسية منتظمة يتابع فيها نشاط تلامذته سواء في مرحلة الإجازة أو في حيز الدراسات العليا، ولما كان لا يعدّ محاضراته ذلك الإعداد المفصل الذي يقرأه البعض وكأنه نوع من الإملاء، بل يؤثر الارتجال والنظر إلى الأحداث التاريخية من علٍ مع ربطها بعضها بالبعض الآخر، فكذلك عودنا عزت عبد الكريم على التحليق في أفق الأحداث التاريخية، يساعده على ذلك إطلاعه الواسع المنتظم وتمكنه من أساليب اللغة العربية وتراثها وذاكرته القوية التي لم تخنه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. ولست أعرف مجالاً من مجالات الدراسات التاريخية الحديثة لم يحاضر فيه عزت عبد الكريم: فمن تاريخ مصر الحديث إلى تاريخ العرب الحديث إلى تاريخ السودان وأفريقيا. . . إلى التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر. وكان من رأيه أن يتصدى الناشئون من المدرسين الجامعيين لتدريس شتى المناهج التاريخية الحديثة، برغم اتساع مداها، حتى لا ينغلقوا في تخصص ضيق يفوِّت عليهم عملية الربط التاريخي على اعتبار أن حلقات التاريخ العالمي الحديث والمعاصر مترابطة ومتشابكة. ولعل قراءات عزت عبد الكريم المتشعبة، وخشيته المطبعة، مما جعله مقلاً في التأليف، ساخراً من الكثيرين الذين يؤلفون أكثر

مما يقرأون!! وكان كثيراً ما يستشهد بقول غربال حين سئل عن أهم مؤلفاته، فأشار إلى تلامذته المتحلقين حوله باعتبارهم الإجابة عن هذا السؤال.

وقليلاً ما اعتز تلامذة بأستاذهم مثل ما اعتز تلامذة أحمد عزت عبد الكريم به واعتز بهم[1] فلم يكن في تعهده لجيل الناشئين يقتصر على التوجيه العلمي، بل إنه كان يتعدى ذلك إلى الاهتمام بأحوالهم الشخصية لما لذلك من أثر واضح على نشاطاتهم. وهكذا نجده يسعى إلى حل مشاكلهم ويسخّر طاقاته لتعيينهم في وظائف التعليم الجامعي مردداً باستمرار أن الإشراف الجيد هو الذي يتمخّض عن دارس جيد برغم أن الإشراف وحده لا ينقش العلم في العقول، بقدر ما يصقل المواهب الشخصية ويرعاها. على أنه خلال تبوُّئه لكرسي التاريخ الحديث بجامعة عين شمس استطاع أن يعزِّز قوة كثير من الجامعات العربية بتلامذته ومريديه. ولا أقول إنه صاحب «مدرسة» تاريخية على على اعتبار أن مثل هذا المصطلح يتضمن منهاجاً تاريخياً محدداً من تلك المناهج أو الفلسفات التي قد يولع البعض بجعلها التفسير الأوحد للأحداث التاريخية. فهو معلم قبل كل شيء ومؤرخ يدقق في حقيقة الأحداث ويهتم بربطها وتحليلها، ناحياً نحو أستاذه شفيق غربال في عدم الارتباط بنظرة واحدة في تفسير التاريخ. ولكنه ــ من ناحية أخرى ــ أورثنا حب الوطن الأصغر والأكبر على حد سواء، فلقد خرج بنا عن القوقعة المصرية، وانطلق بنا إلى آفاق الوطن العربي الكبير يحكي لنا أمجاده ونكساته وينتقد أوضاعه ومسار بعض أحداثه... ويتحمس لبعض أبطاله حماسة عاطفية، اختلفنا معه أحياناً حول بعض بواعثها: ومن ذلك مثلاً أنه لم يكن يتحمل نقداً أو مساساً بسعد زغلول مردداً باستمرار: إنه ــ وهو صبي غضّ ــ سعى إلى مصافحته وهو يهم بركوب القطار خلال جولاته في صعيد مصر. فهو ينتمي إلى ذلك الجيل المصري الذي تأثر بالشحنة التي

---

(١) أطلق علي في بعض كتاباته لقب «ابني البكر» على اعتبار أنني أول من سجل للدراسات العليا تحت إشرافه. والفقيد لم يكن له ابن ذكر، ومن ثم تبنيه لتلامذته.

أورثتها ثورة ١٩١٩ لمصر والمصريين ممن جعلوا من سعد زغلول رمزاً لها بحيث أضفيت عليه كثير من هالات المجد الحقيقية والخيالية. ورموز الشعوب أحياناً لا تقبل النقاش، ولكنها توضع في حجمها الطبيعي حين تسلّط عليها أضواء البحث العلمي.

ويبدو أن أحمد عزت عبد الكريم في توجيهه للدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس كان قد خطط لمسح التاريخ الحديث للوطن العربي ــ ومن ثم اختياره فترات تاريخية قد تطول كعناوين لبعض الأطروحات. فهذا دارس يغطي فترة ما في تاريخ مصر الحديث، وآخر يتناول قطاعاً من تاريخ العراق، وثالث يغطي تاريخ الخليج العربي الحديث، ورابع يدرس بعض تاريخ السودان، وخامس يغطي بعض تاريخ الشام وسادس يهتم بتاريخ اليمن... إلخ. وكان يقرن كل ذلك بتوفير الفرص المتاحة لزيارة ميادين البحث للاطلاع على البيئة التي جرت فيها الأحداث وعلى ما قد يوجد بها من مادة أصلية من شأنها أن تؤصّل البحث. ولما كانت بريطانيا قد هيمنت على مقدرات حيز كبير من الوطن العربي، ولما كان مسؤولوها قد اهتموا بحفظ الأوراق الرسمية وترتيبها وتبويبها، فإنه اهتم ــ بقدر الإمكان ــ بأن يفيد الدارسون من وثائقها وصحفها ومادتها الأصلية، سواء عن طريق الزيارة أو بتسهيل تصوير الوثائق.

وقد وضع مخططاً لمركز دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة عين شمس يقضي ــ برغم قلة موارد هذا المركز ــ بتصوير الوثائق البريطانية المتصلة بتاريخ العرب الحديث، بادئاً بوثائق فلسطين التي شكل تاريخها الحديث والمعاصر جرحاً غائراً في جبين الأمة العربية، وكان له أثر كبير في تطور أحداث المنطقة بحيث أنه قد يصلح محوراً لكثير من جوانب التاريخ العربي الحديث والمعاصر.

كما زوّد الفقيد مكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس ببعض الوثائق المتصلة بتاريخ مصر الحديث وغيرها من الأقطار العربية، ولم يكن يعترض

سبيله في الكلية أو المركز سوى ضعف الميزانيات المرصودة للدراسات التاريخية.

وحرصاً منه على تبادل الآراء والمعلومات التاريخية نجده منذ عام ١٩٥٥ يعقد حلقة (سمنارا) للدراسات التاريخية في منزله في بداية الأمر، ثم بكلية الآداب ــ جامعة عين شمس بعد أن ازداد عدد الدارسين. ولقد أصبحت الساعة السادسة من أمسية الخميس موعداً مقدساً لدى رواد هذه الندوة التي كانت تجري فيها ــ تحت إشرافه ــ المناقشات التاريخية، ويعرض خلالها الناشئون مخططاتهم وما يكونون قد توصلوا إليه في أبحاثهم. كما كان يجري التنويه ببعض المطبوعات التاريخية المحدثة، ومناقشة بعض الأبحاث توطئة لنشرها. وكان ــ رحمه الله ــ حريصاً على السؤال عن الغائبين، فإذا أحس أن أحدهم يواجه مشكلة ما أو ألـمَّ بهمرض، كان في طليعة الزائرين مع حثّ الآخرين على السؤال عن زميلهم أو مد يد المساعدة له. ولم تحل الحلقة الدراسية دون التقائه تلامذته فرادى وجماعات سواء في منزله أو في منازلهم أو في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي تولى رئاستها منذ عام ١٩٦٥ أو في كلية الآداب أو في معهد الدراسات العربية أو في غير ذلك من الأماكن. فحياته هي تلامذته وعمله ــ ومن ثم ما كانت تردده رفيقة حياته من أن أسعد أوقاته هي التي كنا نلتف خلالها حوله.

وانطلاقاً من هذه الحلقة، وبالارتكان على ذلك (الفيلق) من تلامذته ومريديه، وبالاستغلال الذكي لمركزه عميداً لكلية الآداب، ثم وكيلاً لجامعة عين شمس ثم رئيساً لها، ومديراً لمركز الشرق الأوسط وعضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ورئيساً لقسم التاريخ بمعهد الدراسات العربية وللجمعية المصرية للدراسات التاريخية، نجده يترك أثراً واضحاً في إثارة الوعي التاريخي وحفز الدراسات التاريخية سواء في المجلات والحوليات التي رأس تحريرها أو في سلسلة «المكتبة التاريخية» التي كان يقدم المؤلفات والترجمات التي صدرت عنها إلى أن توقفت عن الصدور. كما عمل

على نشر كثير من الرسائل التي أشرف عليها وقدم لها. وفوق ذلك كله نجده يتصدى ــ بمجهود ذاتي في أغلب الأحيان ــ لعقد الندوات والمؤتمرات حول موضوعات هامة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر: وثائق تاريخ العرب الحديث والمعاصر ــ البحر الأحمر في التاريخ ــ عبد الرحمن الجبرتي ــ مصطفى كامل ــ علي مبارك ــ الأرض والفلاح في مصر ــ إلى غير ذلك. وكنت تجده في الإعداد لمثل هذه الندوات والمؤتمرات وكأنه يدير معركة حربية. فهو يضع المخطط ويحرص على أن يدعو الدارسين والمؤرخين من شتى أنحاء الوطن العربي، غير مكترث لضآلة المبالغ المرصودة لمثل هذا العمل، فيسخِّر صلاته الاجتماعية القوية بكثير من الشخصيات والهيئات إلى أن يتوافر له الحد الأدنى من المال اللازم الذي إذا فاض منه شيء رصده لإصدار كتاب يضم الأبحاث التي ألقيت. وحين جرى إختياره مقرراً للجنة تسجيل تاريخ ثورة يوليو ١٩٥٢ أصرّ على أن يقتصر عملها على جمع مادة تاريخ مصر منذ ثورة ١٩١٩ وترتيبها وتبويبها حتى تكون معدة لاستعمال الدارسين دون التطرق إلى كتابة تاريخ الثورة ذاته. فلقد كان باستمرار شديد الحرص على الموضوعية التاريخية، مما جعله يصرّ ــ حتى وقت قريب ــ على أن يضع المؤرخون فاصلاً زمنياً بين موضوعاتهم وبين الأحداث المعاصرة بحيث يبتعدون عن الحساسيات وعدم تسليم كثير ممن صنعوا الأحداث أو شاركوا في صنعها بالأحكام التي يصدرها عنهم المؤرخون والكتاب.

وبعد أن انتهينا من استعراض الدور الذي لعبه الفقيد في الحياة الثقافية في مصر والوطن العربي نعود فنشير إلى أهم أعماله العلمية وهي كالآتي:

ــ موسوعته عن تاريخ التعليم في مصر في عهد محمد علي وخلفائه (في عدة أجزاء). وقد استغرق الإعداد لهذه الموسوعة عدة سنوات توفَّر خلالها الفقيد على جمع مادته من محفوظات القلعة التي كانت ــ ولا تزال ــ بحاجة إلى التنظيم بالصورة التي توفّر وقت الباحثين. ولعل توفّره على هذا الموضوع

المتشعّب هو الذي أثار لديه رؤيا واضحة عن أهم مشاكل التعليم في مصر والوطن العربي، وهي المشاكل التي أثارها اصطدام الأطر التقليدية لنظمنا التعليمية ـ التي ترتكز على قواعد دينية ـ بالمؤثرات الغربية ذات الصبغة العلمانية. وهكذا نجده طيلة حياته العامة على إدراك واع لما يجب عمله في هذا المجال، كما أنه أوتي الشجاعة الأدبية التي مكّنته من المجاهرة بآرائه حين يتطلب الأمر.

ـ تاريخ العالم العربي الحديث (بالاشتراك). ولقد ظل هذا الكتاب (وهو الأول من نوعه) جيلاً من الزمان يقرر على طلاب المدارس الثانوية بمصر وكثير من البلدان العربية. ومما يجدر ذكره أن الفقيد قد قام بالتدريس بالجامعة السورية (١٩٤٦ ـ ١٩٤٩) وجامعة بنغازي بليبيا (١٩٦٠ ـ ١٩٦١) وجامعة بيروت العربية (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠) وعمل أستاذاً زائراً في كثير من الجامعات العربية (الرياض ـ الخرطوم ـ الكويت)، مما أضاف إلى اهتماماته بُعداً عربياً شاملا، وأضفى عليه لقب «شيخ المؤرخين»، خصوصاً أن تلامذته من المؤرخين وأساتذة الجامعات ينتشرون في البلدان العربية «من الخليج إلى المحيط».

ـ حوليات البديري الحلاق: مخطوطة عثر عليها بالمكتبة الظاهرية في دمشق وهي تضم يوميات حلاق دمشقي عاش في القرن الثامن عشر وسجل خواطره عن الحياة اليومية في عاصمة بلاد الشام في الوقت الذي تدهورت فيه الإدارة العثمانية. وقد قام الفقيد بتحقيق المخطوطة وشرح غوامضها وقدم لها بمقدمة تاريخية ضافية.

ـ بحث عن التقسيم الإداري لبلاد الشام في القرن التاسع عشر.

ـ تاريخ أوروبا الاقتصادي (بالاشتراك).

ـ فصول في كتاب «دراسات في النهضات العربية الحديثة».

ـ فصول في كتاب «المجمل في تاريخ مصر العام» تغطي تاريخ مصر منذ الحملة الفرنسية حتى نهاية حكم إسماعيل.

ـ ثورة ١٩٦٩ بمناسبة مرور خمسين عاماً عليها. وكانت جريدة الأهرام القاهرية قد نشرت عدة مقالات عن ثورة ١٩١٩ استعان كتّابها ببعض الوثائق البريطانية غير المنشورة، ثم عهدت إلى الفقيد بمراجعتها وضبطها وإعدادها للنشر مع التقديم لها.

ـ ولقد قدم الفقيد لكثير من المؤلفات التاريخية بما يدل على سعة اطلاعه وإلمامه بكثير من الأحداث والتطورات التاريخية.

كما اهتم بالترجمة وأسهم فيها بقسط وافر:

ـ فقد شارك ـ بتوجيه من أستاذه شفيق غربال ـ في ترجمة كتاب «البندقية ـ جمهورية أرستقراطية» من تأليف شارل ديل. ولقد غطى هذا الكتاب حلقة هامة من حلقات تاريخ الشرق، على اعتبار أن جمهورية البندقية ظلت فترة طويلة تقوم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، ومن ثم تزامن تدهورها مع تدهور طرق المواصلات التقليدية عقب حركة الكشوف الجغرافية.

ـ وقام بمراجعة قسط من ترجمة كتاب أرنولد توينبي «دراسة للتاريخ» ـ مكملاً بذلك العمل الذي بدأه أستاذه شفيق غربال قبيل وفاته.

ـ وقد كلفني في عام ١٩٥١ بترجمة كتاب «بريطانيا والدول العربية ١٩٢٠ ـ ١٩٤٨» لسيتون وليمز ثم راجع الترجمة بعد اكتمالها. ولقد كان لتعليقاته أثناء مراجعة الترجمة أثرها في تعميق فهمي لكثير من التطورات العربية.

ـ وعهد إلـيّ أيضاً بترجمة فصول من كتاب «تاريخ أوروبا» لهربرت فيشر ظهرت تحت عنوان «أصول التاريخ الأوروبي الحديث» (بالاشتراك). وأشهد بأنه بذل جهداً كبيراً في مراجعة الترجمة ساعياً إلى أن تخرج في صورتها النهائية بأسلوب عربي يضاهي سمو لغة الأصل الإنجليزي.

ـ كما راجع لي ترجمتي للجزء الأول من كتاب «المجتمع الإسلامي والغرب» من تأليف هاملتون جب وهارولد بوون. ولم تسعفه ظروفه الصحية باستكمال مراجعة الجزء الثاني الذي أرجو أن يخرج إلى حيز الوجود في المستقبل القريب.

* * *

وبعد ـ فقليل من أساتذة الجامعات العربية هم الذين قاموا بمثل الأعمال التي قام بها أحمد عزت عبد الكريم. فلقد أرسى دعائم الدراسات التاريخية الحديثة بأستاذيته الفذة التي جعلته يكرس وقته وجهده لعمله وتلامذته حتى بعد أن ضعف بصره وتدهورت حالته الصحية. فإلى تلامذته الكثر وإلى محبيه نداء بمواصلة المسيرة في ظل النزاهة والموضوعية اللتين حرص الفقيد عليهما طوال حياته العلمية الخصبة والعريضة.

ولاية عبد الله بن عامر للبصرة وإصلاحاته الاقتصادية فيها

إعداد
محمد جاسم حمادي

شخصيته وتوليته للبصرة:

هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العبشمي(١).

ولد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك في السنة الرابعة للهجرة(٢)، وعندما اعتمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في السنة السابعة للهجرة، عُمرة القضاء، ودخل مكة حُمِلَ إليه عبد الله بن عامر، قال ابن حجر: «... فتلمظ، وتثاءب، فَتَفَل رسول الله في فيه، وقال هذا ابن السُّليمة: قالوا: نعم، فقال: هذا أشبهنا، وجعل يتفل في فيه، ويَعوّذه فجعل يبتلع ريق النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنه لمسقى، فكان

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٥ (ليدن/١٢٠٢) ٣١ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب (القاهرة، ١٩٧١) ٧٥، ابن حجر، تهذيب التهذيب ج ٥، (حيدرآباد، ١٣٢٦) ٢٧٢، الإصابة، ج ٥ (كلكتا، ١٣٢٥) ٦١.

(٢) ابن حجر، تهذيب ٢٧٢/٥ الإصابة ٦٢/٥.

لا يعالج أرضاً إلّا ظهر له الماء»[١]، وكان عمرُهُ عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم دون السنتين «وهذا هو المعتمد»[٢] كما قال ذلك ابن حجر.

لم يتولَّ عبد الله بن عامر منصباً إدارياً أو عسكرياً إلى أن أصبح والياً على البصرة سنة ٢٩ هـ/٦٤٩ م، وهو ابن خال الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، لأن أم عثمان، هي أروى بنت كريز بن ربيعة، وكانت أم عبد الله بن عامر من بني سُلَيم[٣].

ولما عُيِّن لولاية البصرة، كان عمره أربعاً أو خمساً وعشرين سنة[٤] وظل والياً على البصرة حتى مقتل الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ عندما تجهز بجيش كبير، وحمل ما عنده من الأموال فسار إلى مكة حيث وافى الزبير، ورجع منها إلى البصرة فشهد موقعة الجمل، ولم يحضر موقعة صفين[٥]. على الرغم من أن القلقشندي ذكر أنه كان في التحكيم مع معاوية بصفين[٦].

---

(١) تهذيب ٢٧٢/٥، الإصابة ٦٢/٥.

(٢) قال ابن حجر: «قال ابن منده في الصحابة: مات النبي صلى الله عليه وسلم وله ثلاث عشرة سنة، كذا قال، وهذا خطأ واضح فقد ذكر عمر بن شبة في أخبار البصرة أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد يوم الفتح عند عمير بن قتادة الليثي خمس نسوة فقال فارق إحداهن ففارق دجاجة بنت الصلت فتزوجها عامر بن كريز، فولدت له عبد الله فعلى هذا كان له عند الوفاة النبوية دون السنتين،... تهذيب التهذيب ٢٧٢/٥، الإصابة ٦٢/٥.

(٣) أم عبد الله بن عامر: هي دجاجة بنت أسماء بن حبيب بن حارثة بن هلال بن حزام بن سمال بن عوف بن امرىء القيس بن بهُينة بن سليم بن منصور (ابن سعد، الطبقات، ٣١/٥، وراجع: البلاذري، أنساب الأشراف (القدس، ١٩٣٦، ٣٠/٥، ابن حجر، تهذيب ٢٧٢/٥، وأخطأ زامباور في قوله إن عبد الله بن عامر هو ابن عم الخليفة عثمان. (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (القاهرة) ١٩٥١) ٦٢.

(٤) خليفة بن خياط، تأريخ، ج ١ (النجف / ١٩٦٧) ١٣٦.

(٥) ابن حجر، الإصابة ٦٢/٥.

(٦) صبح الأعشى ٨٢/١٤ ـ ٨٣.

وفي خلافة معاوية تولى إمارة البصرة لمدة ثلاث سنوات ثم عزله عنها، فأقام بالمدينة، ومات بها سنة سبع وخمسين للهجرة[1]، وفي رواية ابن قتيبة، أنه توفي بمكة ودفن بعرفات عام تسع وخمسين للهجرة[2]. وأشاد به ابن سعد قائلاً:

«كان عبد الله شريفاً، كان سخياً كريماً كثير المال، والولد، محباً للعمران»[3].

وقال عنه ابن حجر: «كان جواداً ميموناً، ... جريئاً شجاعاً»[4]، وكان يعتبر من أجود أهل البصرة[5]. ومن أجود أهل الإسلام[6]، وكان من جوده وكرمه أنه خطب يوماً بالبصرة في يوم أضحى، ... فقال: «والله لا أجمع عليكم عِيّاً ولؤماً مَنْ أخذ شاة من السوق فهيَ له وثمنها عليَّ»[7].

وكان لعبد الله بن عامر، أثر حميد في الفتوحات العربية الإسلامية،

---

(١) ابن حجر، المصدر السابق ٥/٦٢.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، (القاهرة، ١٩٦٠) ٣٢١.

(٣) الطبقات الكبرى ٥/٣٠، ٣١.

(٤) ابن حجر، المصدر السابق ٥/٦٢.

(٥) قال ابن عبد ربه:

«وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد هم: عبد الله بن عامر، وعبيد الله بن أبي بكرة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسلم بن زيادة، وعبيد الله بن معمر القرشي، وطلحة بن عبيد الله الخزاعي»، العقد الفريد ١/٢٩٣ ــ ٢٩٤).

(٦) قال القلقشندي:

«وأجواد الإسلام، عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، وحمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام، وعُمر بن عبيد الله بن معمر التميمي، وخالد بن عبد الله بن خالد بن أسد بن العاص، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، وعتّاب بن أبي ورقاء الحنظلي، وأسماء بن خارجة الفزاري، وعبد الله بن أبي بكرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم» (صبح الأعشى، ١/٤٥٠ ــ ٤٥١).

(٧) العقد الفريد ٤/١٤٩.

وتمكن من القضاء على آمال الفرس، بشكل تام، عندما قضى على آخر رمق من الأمل الفارسي القديم، وذلك بقضائه على آخر ملوكهم يزدجرد بن شهريار بن كسرى، وخرزاد مهر أخي رستم اللذين تزعما المعارضة الفارسية ضد العرب.

وأخرج البيهقي عن طريق داود بن أبي هند أن عبد الله بن عامر حينما فتح خراسان قال: «لأجعلنّ شكري لله أن أخرج من موضعي مُحرِماً من نيسابور إلى مكة»[1].

وإضافة إلى براعة عبد الله بن عامر في الشؤون الإدارية والعسكرية، فإنه كان مهتمًا بالمعارف الإسلامية، ويروى أنه روى حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن قتيبة: «ولم يـروِ عن رسول الله إلاّ حديثاً واحداً»[2]، غير أنه لم يكن له رواية في الكتب الستة[3].

أما الحديث النبوي الذي رواه، فقد أورد ابن قانع، وابن منده عن طريق مصعب الزبيري: حدثني أبي عن جدي مصعب بن ثابت عن حنظلة بن قيس عن عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «من قُتِل دون مالِهِ فهو شهيد»[4].

وكان عبد الله بن عامر، قد خلّف عدة أبناء، فهم عبد العزيز الذي ولي، إمارة سجستان وغيره[5].

كانت ولاية البصـرة من الأمصار الإسـلامية الهـامة، نظراً إلى موقعها

---

(١) ابن حجر، الإصابة ٦٢/٥.

(٢) ابن قتيبة، المعارف ٣٢١.

(٣) المصدر نفسه، ٣٢١.

(٤) ابن حجر، تهذيب ٢٧٢/٥ ـ ٢٧٣، الإصـابة ٦٢/٥.

(٥) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب (القاهرة، ١٩٧١) ٧٥.

الاستراتيجي بالنسبة إلى المشرق وبلاد فارس، ولذلك كانت الخلافة تحرص على انتقاء الولاة الجيدين لإدارتها.

كان والي البصرة قبل عبد الله بن عامر، هو أبوموسى الأشعري، الذي عُزِلَ وعُيّن محله عبد الله، ولعل من الأسباب التي دعت الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلى ذلك، رغبته في تولية إمارة المِصر رجلاً شاباً يتصف بالشجاعة والجرأة في اتخاذ القرارات، خصوصاً أن عبد الله بن عامر كان «حَدثَ السِّن»[1] حيث كان ابن أربع ـ وفي رواية خمس ـ وعشرين سنة[2]. وهذا يؤكد كونه شاباً يتمتع بالنشاط والحيوية بحيث يمكن الاعتماد عليه في تسيير أمور الإقليم وإدارته. وقال الذهبي عنه: «كان شهمًا، شجاعاً وافتتح فتحاً كبيراً»[3] وقال ابن حجر: «كان ابن عامر جواداً شجاعاً»[4]، وقال الديار بكري: «إنه أكرم الفتيان ومن سادات قُريش»[5].

وكان الخليفة عثمان قد أدرك الأهمية العظيمة لولاية البصرة، بالنسبة الى الفتوح العربية الإسلامية في المشرق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان مجتمع البصرة خليطاً من قبائل عربية عديدة. ما تطلّب تعيين والٍ يتصف بالحزم والجرأة للسيطرة على زمام الأمور فيها. ويرى الأستاذ يوسف العش أن البصرة كانت عنيفة في سيرتها، فقسم منها قد أصبح مُسلمًا، ولكنه اشتد في إسلامِهِ وتعصبه لبعض المبادىء الإسلامية، وقسم آخر كان لا يفهم النظام ويعيش ببداوة على طراز الجاهلية[6].

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال (القاهرة/١٩٦٠) ١٣٩.

(٢) خليفة بن خياط، تأريخ ج ١، (النجف، ١٩٦٧) ١٣٦.

(٣) العِبَر في خبر من غَبَر، ج ١ (الكويت، ١٩٦٠) ٣٠.

(٤) تهذيب التهذيب، ٢٧٤/٥.

(٥) تأريخ الخميس، ج ٢، (القاهرة/١٣٠٢) ٢٩٧.

(٦) الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها (دمشق، ١٩٦٥) ١٣٤.

ومن العوامل المهمة لتعيينه، أن أهالي البصرة عامة، وجندها خاصة، كانوا مستائين من الوالي أبي موسى الأشعري، وألحّوا على الخليفة عثمان في ضرورة استبداله بأي شخص كان، وخرج وفد من أهلها لمقابلة الخليفة عثمان بزعامة غيلان بن خرشة الضبي الذي خاطب الخليفة قائلاً: «... أما لكم صغير فتولّوه البصرة...»(١)، فأجابهم الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ: «من تحبون فقال غيلان: في كل واحد عوض من هذا العبد الذي أركضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا، فلا ننفك من أشعري كان يُعظم مُلكه على الأشعريين ويستصغر مُلك البصرة، وإذا أمّرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه، أو مُهتراً كان فيه عوض منه، ومن بين ذلك من جميع الناس»(٢).

وكان من أسباب نقمة الجُنْدِ على أبي موسى الأشعري، ما يعود للخلاف الذي وقع بينه وبين جند الكوفة والبصرة فيها(٣).

ولذلك كان الخليفة عثمان مضطراً إلى تغيير أبي موسى الأشعري من أجل مصلحة الخلافة الراشدية، بسبب أهمية ولاية البصرة بالنسبة إلى الجناح الشرقي من الخلافة.

---

(١) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج ٤ (القاهرة، ١٩٦٣) ٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ٤/٢٦٥.

(٣) كان سبب النقمة على أبي موسى الأشعري، نتيجة للخلاف الواقع بين جند الكوفة والبصرة، وأن أبا موسى كتب إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يسأله المدد فأمده بجند الكوفة، فأمدهم أبا موسى حين قدومهم عليه برامهرمز فذهبوا إليها، وفتحوها، فحمدهم على ذلك، وكره نسبة الفتح إلى جند الكوفة دون جند البصرة، فقال لهم إني كنت أعطيتهم الأمان وأجلتهم لستة أشهر، فردوا عليهم، فوقع الخلاف في ذلك بين الجنديين. وكتب إلى عمر فكتب إلى صلحاء جند أبي موسى... مثل حُذيفة بن اليمان، وأنس بن مالك، وسعيد بن عمرو الأنصاري، وأمرهم أن يستحلفوا أبا موسى فإن حلف أنه أعطاهم الأمان وأجلهم ردّوا عليهم فاستحلفوه، فحلف، وردّ السبي عليهم، وانتظر بهم أجلهم وبقيت قلوب الجند حنقة على أبي موسى... (الديار بكري، تأريخ الخميس ٢/٢٩٧).

وكان الخليفة عثمان يخشى ممالأة الفريقين (جند الكوفة والبصرة) على أبي موسى، فقرر عزله عن البصرة[1] وتولية عبد الله بن عامر.

إصلاحاته الاقتصادية فيها:

يقترن باسم عبد الله بن عامر عدد من الإصلاحات، في البصرة، لا تقل أهمية عن إنجازاته العسكرية الفذّة المتمثلة في انتصاراته العديدة على المجوس، وتتبعه لفلولهم المنهزمة وقضائه على آمال يزدجرد، ... والتي تستحق دراسة مستقلة في بحث مستقل في المستقبل إن شاء الله.

أما إصلاحاته، فكانت اقتصادية ممثلة في عنايته بسوق البصرة. والواقع أن معلوماتنا عن سوق البصرة قليلة جداً، وليست لدينا تفصيلات عن السوق وتنظيماته في تلك المدينة.

إلّا أن الرواية تشير إلى أن عبد الله بن عامر اشترى سوق البصرة من مالِهِ ووهبه لأهلها فلا خراج عليهم فيه[2]. وذكر ابن سعد أن ابن عامر اتخذ السوق للناس بالبصرة، حيث اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً[3]. والرواية تبين لنا مدى اهتمام ابن عامر بسوق البصرة. وكان السوق قائمًا بالقُرْبِ من النهر الذي يمر وسط البصرة، وقائمًا على ضفافه[4]. ويعتقد الدكتور صالح العلي أنه من الراجح أن أصحاب كل مهنة كانوا يتجمعون معاً في محل واحد، مكونين سوقاً فرعية صغيرة داخل السوق الكبير، وتختلف أهمية هذه الأسواق الفرعية

---

(١) الديار بكري، المصدر نفسه، ٢/٢٩٧.

(٢) الهاشمي البغدادي، كتاب المحبر (حيدر آباد، ١٣٦١) ١٥٠.

(٣) الطبقات الكبرى، ٥/٣٣.

(٤) خليفة بن خياط، المصدر السابق ١/١٤١.

باختلاف عدد من يعمل فيها أو المهنة التي يمتهنونها، إلاَّ أنه لا يمكن تحديد عددها بالضبط وتقدير أهمية كل منها[1].

ومما تقدم يتبين لنا أن السوق كان يتوسط البصرة، بدليل ما ذكره خليفة بن خياط، من أن السوق قائم على ضفاف النهر الذي كان يتوسط البصرة، وهذا اختيار جيد، لأنه يجعل السوق مركزاً مهمًا في وسط المدينة.

ولعل من أبرز أعمالِهِ الإصلاحية في البصرة، في ميدان الري، وقد اهتم ابن عامر بهذه المسألة اهتماماً كبيراً. وذكر ابن قتيبة أن ابن عامر احتفر بالبصرة نهرين أحدهما في الشرق، والآخر الذي يُعرف بأُم عبد الله[2] وهو منسوب إلى أم عبد الله بن عامر[3].

وأمر عبد الله بن عامر، زياد بن أبي سفيان بحفر نهر الأبلة، وكان زياد والياً على الديوان وبيت المال، من قبل عبد الله بن عامر، وكان يستخلفه في مكانه عند توجهه للفتوح[4]. وذكر خليفة بن خياط أن زياد احتفر نهر الأبلة حتى انتهى إلى موضع الجبل، والذي تولى حفره لزياد عبد الرحمن بن أبي بكرة[5]، فلما فتح عبد الرحمن الماء جعل يركض فرسه والماء يكاد يسبقه[6].

وذكر ابن الفقيه الهمداني أن طول نهر الأبلة أربعة فراسخ، ثم إنه انطمَّ فيه باين البصرة، وبثق الحيري، وذلك على قدر فرسخ من البصرة، فلما شخص

---

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري (   ) ٢٣٨ ـ ٢٣٩.
(٢) المعارف، ٣٢١.
(٣) الحموي، المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (باريس، ١٨٤٦) ٤٢٥.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ٣٥١.
(٥) خليفة بن خياط، تأريخ ١٤٢/١.
(٦) البلاذري، المصدر السابق، ٣٥١.

ابن عامر إلى خراسان، استخرج زياد نهر أبي مومن [1] وذكر البلاذري احتفاره الفيض من لَدُن دارفيل مولى زياد وحاجبه إلى موضع الجسر[2]. ولما فرغ زياد من حفر فيض البصرة، وإصلاحه نهر الأبلة قدِم ابن عامر من فتوحه في خراسان، فاستاء من زياد قائلاً: «أردت أن تذهب بشهرة هذا النهر وذكره، فتباعد بينهما وبين أهلهما لهذا السبب»[3].

وحفر عبد الله بن عامر، حوضاً نُسب إلى أمهِ «وهوَ حوض أم عبد الله بن عامر بالبصرة منسوب إليها»[4].

أما نهر أم عبد الله بن عامر الذي ذكره، فإن الذي تولى حفره غيلان بن خرشة الضبي، وهو النهر الذي قال حارثة بن بدر الغواني لعبد الله بن عامر، وقد سايره، «لم أر أعظم بركة من هذا النهر يستقي منه الضعفاء من أبواب دورهم، وتأتيهم منافعهم فيه إلى منازلهم، وهو مغيض لمياههم، ثم إنه ساير زياداً بعد ذلك في ولايته فقال ما رأيت نهراً شراً منه ينز منه دورهم، . . . ويغرق فيه صبيانهم»[5]. ومن النص يتبين لنا أن هذا النهر كان يخترق مساكن أهل البصرة، وأن بيوتهم كانت قائمة على ضفافه.

وذكر البلاذري أن عبد الله بن عامر حفر نهراً، تولى أمر حفره له نافذ مولاه، فغلب عليه فقيل نهر نافذ[6]. وهناك نهر مُرّة لابن عامر، تولى حفره له

---

(١) ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان (ليون/١٣٠٢) ١٩٠.
(٢) فتوح البلدان، ٣٥٢.
(٣) المصدر نفسه، ٣٥٢.
(٤) ابن قتيبة، المعارف (القاهرة، ١٩٦٠) ٣٢١.
(٥) البلاذري، المصدر السابق، ٣٦٥.
(٦) البلاذري، فتوح البلدان ٣٥٤.

مرة مولى أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فغلب على ذكره[1]. وهناك نهر الأساورة الذي حفره لهم عبد الله بن عامر[2].

ويذكر البلاذري قنطرة قرة بالبصرة، فيقول: «قنطرة قرة نسبة إلى قرة بن حيان الباهلي، وكان عندها نهر قديم ثم اشترته أم عبد الله بن عامر، فتصدقت به مغيضاً لأهل البصرة»[3].

مما تقدم، يتبين لنا أن عبد الله بن عامر، كان مهتمًا بحفر الأنهار من أجل ازدهار الزراعة، هي عماد الحياة الاقتصادية، إضافة إلى موقع البصرة الإستراتيجي بالنسبة إلى طرق التجارة، وأهميتها العسكرية كقاعدة عسكرية للفتوحات العربية الإسلامية في المشرق.

ويمكن أن نلاحظ مدى رغبة عبد الله بن عامر في الإصلاح من خلال قوله: «لو تُركت لخرجت المرأة في حداجتها على دابتها، ترد كل يوم على ماء، وسوق، حتى توافي مكة»[4].

ومن الاهتمامات الأخرى في الناحية الزراعية اهتماماته بتوزيع القطائع الزراعية. وتذكر المصادر أنه أقطع عبد الله بن عمير بن عمرو بن مالك الليثي و«هو أخوه لأمه دجاجة» ثمانية آلاف جريب فحفر لها نهراً يُعرف بنهر ابن عُميرة[5]. وهناك قطيعة مُرة وقدرها مئة جريب على نهر الأبلة، وحفر لها نهراً فنسب إليه، وكان عثمان بن مُرة من سراة أهل البصرة، وقد خرجت القطيعة من أيدي ولده وصارت لآل الصفاف بن حجر بن بجير من الأزد[6].

---

(١) المصدر نفسه، ٣٥٤.
(٢) خليفة بن خياط، المصدر السابق ١/١٤١.
(٣) البلاذري، المصدر السابق، ٣٦٥.
(٤) ابن قتيبة، المعارف، ٣٢١.
(٥) البلاذري، المصدر السابق، ٣٥٣ ـ ٣٥٤.
(٦) المصدر نفسه، ٣٥٥.

وكان ابن عامر قد قام بإصلاحات خيرية واسعة، وذكر ابن قتيبة أنه «اتخذ النباج وغرس فيها، فهي تدعى اليوم بنباج ابن عامر، واتخذ القريتين وغرس وأنبط عيوناً تُعرف بعيون ابن عامر، بينها وبين النباج ليلة على طريق المدينة، وحفر الحِفِر، ثم حفر السُّمينية، واتخذ بقرب قباء قصراً، وجعل فيها زنجاً ليعملوا فيه فماتوا فتركه، واتخذ بعرفات حياضاً ونخلاً»(١).

وأشاد به ابن العماد الحنبلي قائلاً إن: «ابن عامر لما وُلِدَ وحُمِلَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: «إنك لمسقى»، فكان لا يعالج أرضاً إلاّ ظهر له ماؤها وهو الذي عمل السقايات بعرفه(٢)، وأجرى بها العين وسقى الناس الماء فذلك جار إلى اليوم»(٣).

وفي الحقيقة أن إصلاحاته هذه لا تقل أهمية عن الفتوحات العسكرية في المشرق، وكان من الضروري القيام بهذه الإصلاحات في البصرة التي كانت القاعدة السرية للخلافة في فتوحاتها، في هذا الجناح الشرقي. وأشار الدكتور صالح العلي إلى أن الفتوح الواسعة أدت إلى ازدياد دخل البصرة وانتشار الرخاء الاقتصادي فيها، ما شجع التجار ورجال الأعمال على التقاطر إليها، وبذلك بدأت الحياة المدنية تنمو سريعاً في البصرة، ويلاحظ أن كثيراً من الإقطاعات حول البصرة فتحت في عهد ابن عامر(٤).

لقد كانت الحالة المالية لإمارة البصرة جيدة جداً، نتيجة للفتوح الواسعة في المشرق، والنشاط الإقتصادي التجاري للبصرة، واستقرارالأمن فيها. وكان عبد الله بن عامر، رجلاً متواضعاً فاتحاً بابه لجميع الناس حتى أنه عاقب

---

(١) المعارف، ٣٢١.

(٢) ابن العماد الحنبلي، شذرات ١/٦٣.

(٣) ابن سعد، المصدر السابق، ٥/٣٣.

(٤) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، ٣٠ ــ ٣١.

الحاجب وأمره ألا يغلق بابه ليلاً ولا نهاراً[1]. وكان يحرص على كسب رضا الرعية.

ويروي اليعقوبي أنه أول من اتخذ لبس الخزّ وقوَّر الطاروني من العرب، فقال الناس، لبس الأمير جلد دُبّ[2]، ولبس جُبة حمراء، فقالوا: «لبس الأمير قميصاً أحمر»[3].

وفي الحقيقة أصبح ابن عامر ذا شهرة واسعة بالبصرة، قال ابن سعد: «كان الناس يقولون: قال ابن عامر، وفعل ابن عامر»[4]، ونتيجة لأعماله الإصلاحية وسيرته الحميدة، فقد ازداد حب الأمة له[5].

وبهذا أصبح ابن عامر من الشخصيات البارزة في المجتمع العربي الإسلامي، وظلت علاقته وثيقة بالناس، وبالخلافة.

وظل ابن عامر عليها إلى أن قتل الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ، وقد عين الخليفة علي ـ رضي الله عنه ـ عثمان بن حنيف الأنصاري على البصرة، فلم يزل بها، إلى أن أصبح معاوية خليفةً، بعد تنازل الحسن ـ رضي الله عنه ـ له بالخلافة. وفي سنة ٤١ هـ ولّاه الخليفة معاوية البصرة لمدة ثلاث سنين ثم عزله عنها[6].

وبهذا يكون عبد الله بن عامر قد ترك أثراً حميداً في التأريخ من خلال إصلاحاته الجيدة في البصرة.

---

(١) أبو علي القالي، الأمالي، ج ١ (القاهرة، ١٩٢٦) ٢٧٨.
(٢) البلدان (   )، ١٩٣.
(٣) ابن سعد، المصدر السابق، ٥/٣٣.
(٤) المصدر نفسه، ٥/٣٣.
(٥) عبد الحميد بخيت، عصر الخلفاء الراشدين (القاهرة، ١٩٦٧) ٥١١.
(٦) ابن سعد، المصدر السابق، ٥/٣٤ ـ ٣٥.

مصادر البحث ومراجعه

ملاحظة: «رتبت المصادر تبعاً لسني وفاة مؤلفيها».

(١) **ابن سعد**: محمد بن سعد (توفي، ٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى، م ٥ (ليدن، ١٢٢٢).

(٢) **ابن خياط**: خليفة بن خياط (توفي، ٢٤٠هـ): تأريخ خليفة، ج ١ (النجف، ١٩٦٧).

(٣) **البغدادي**: أبو جعفر بن حبيب بن أمية بن عمرو (توفي، ٢٤٥)، كتاب المحبر (حيدرآباد، ١٣٦١).

(٤) **ابن قتيبة**: عبد الله بن مسلم (توفي، ٢٧٦ هـ)، المعارف (القاهرة، ١٩٦٠).

(٥) **البلاذري**: أحمد بن يحيى بن جابر (توفي، ٢٧٩هـ)، أنساب الأشراف، ج ٥، (القدس، ١٩٣٦).

(٦) فتوح البلدان (القاهرة، ١٩٥٩).

(٧) **الدينوري**: (أحمد بن داؤد (توفي، ٢٨٢ هـ)، الأخبار الطوال، القاهرة ١٩٦٠).

(٨) **اليعقوبي**: أحمد بن واضح (توفي، ٢٨٤)، البلدان (ليدن، ١٨٩٢).

(٩) **الطبري**: أبو جعفر محمد بن جرير (توفي ٣١٠ هـ)، تأريخ الرسل والملوك، ج ٤، (القاهرة، ١٩٦٣).

(١٠) **ابن عبد ربه**: أحمد بن محمد (توفي، ٣٢٨هـ)، العقدالفريد، ج ٤ (القاهرة، ١٩٤٨).

(١١) **أبو علي القالي**: أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (توفي، ٣٦٥هـ)، الأمالي، ج ١، (القاهرة، ١٩٢٦).

(١٢) **ابن الفقيه الهمداني**: أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه (توفي، ٣٥٦هـ)، مختصر كتاب البلدان، (ليدن، ١٣٠٢).

(١٣) **ابن حزم**: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (توفي، ٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب (القاهرة، ١٩٦٢).

(١٤) **الحموي**: ياقوت بن عبد الله (توفي، ٦٢٦ هـ)، المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (باريس، ١٨٤٦).

(١٥) **الذهبي**: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (توفي، ٧٤٨ هـ)، العبر في خبر من غبير، ج ١، (الكويت، ١٩٦٠).

(١٦) **القلقشندي**: أحمد بن عبد الله (توفي، ٨٢١هـ)، صبح الأعشى.

(١٧) **ابن حجر**: أحمد بن علي العسقلاني (توفي، ٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب (حيدرآباد، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧).
(١٨) **الإصابة**، (كلكتا، ١٣٢٥).
(١٩) **الدياربكري**: حسين بن محمد بن الحسن(توفي، ٩٦٦م)، تأريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج ٢، (القاهرة ١٣٠٢).
(٢٠) **ابن العماد الحنبلي**: عبد الحي بن العماد (توفي، ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب، في أخبار من ذهب، ج ١ (بيروت، لا.ت).

المراجع الحديثة:

(٢١) **زامباور**: معجم الإنسان والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة سيدة كاشف وآخرين، (القاهرة، ١٩٥١).
(٢٢) **العش**: يوسف العش: «الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها (دمشق ١٩٦٥).
(٢٣) **العلي**: د. صالح العلي: «التنظيمات الاجتماية والاقتصادية في البصرة خلال القرن الأول الهجري، (بغداد ١٩٥٣).

العسكرية الإسلامية
تاريخ جيش النبي صلى الله عليه وسلم

بحث مقدم من:
اللواء الركن/ محمود شيت خطّاب

ـ ١ ـ

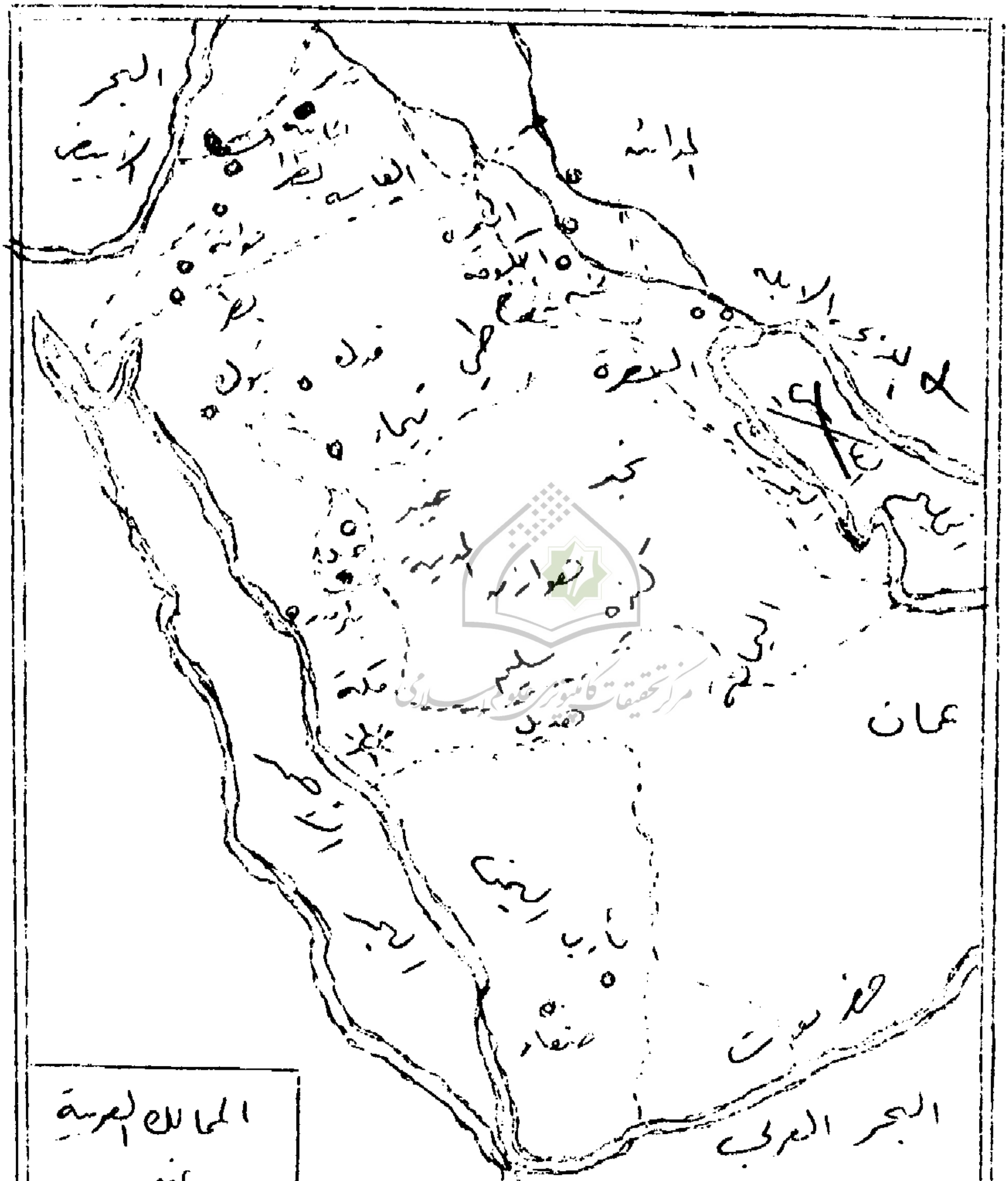
تتلخص سيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحياته المباركة في:

التوحيد والجهاد:

لقد وحَّد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ مبعثه في مكة المكرمة إلى هجرته إلى المدينة المنوَّرة من أجل الجهاد: وحَّد الأفكار بالتوحيد، ووحَّد الصفوف بالتوحيد، ووحَّد الأهداف بالتوحيد، وجمع الشمل بالتوحيد وبنى الإنسان بالتوحيد، وأزال نعرات الجاهلية بالتوحيد، وغرس التضحية والفداء بالتوحيد، وجعل المسلمين كافة كالبناء المرصوص بالتوحيد.

لقد كانت حياته المباركة في مكة المكرمة عبارة عن توحيد من أجل الجهاد. وجاهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ هجرته إلى المدينة المنورة من مكة المكرمة إلى أن التحق بالرفيق الأعلى من أجل التوحيد، فكان جهاده لتبليغ الدعوة إلى الناس كافة، ولتكون كلمة الله هي العليا في الأرض.

وكانت همته العالية منصرفة بكل طاقاتها المادية والمعنوية، بتأييد من الله وتوفيقه، إلى غاية سامية واضحة المعالم هي: (بناء الإنسان المسلم)، ليكون


الممالك العربية
عند
ظهور الاسلام
البحر الابيض
عمان
نجد
اليمن
حضرموت
البحر العربي
مكة
المدينة
البصرة
الكوفة
الحيرة
تبوك
فدك
خيبر
تيماء
صنعاء

قدوة للآخرين في السلم والحرب، أخلاقاً وسلوكاً، ومعاملة ومنهجاً، وأسلوباً للحياة الدنيا والآخرة معاً.

وكان سبيله إلى: بناء الإنسان المسلم، هو التوحيد من أجل الجهاد، والجهاد من أجل التوحيد.

بالتوحيد، أشاع الانسجام الفكري لأول مرة بين المسلمين في التاريخ، وهذا الانسجام جعل التعاون الوثيق بينهم ممكناً، إذ لا تعاون وثيقاً مؤثراً بدون انسجام فكري يذيب الاختلافات ويقضي على النزعات ويحمي من الأهواء.

كما أن هذا الانسجام جعل الجهاد ممكناً أيضاً، يقود إلى النصر ويؤدي إلى الظفر، إذ أن التعاون الوثيق والجهاد المقدس الذي تستثيره العقيدة الراسخة الواحدة، جعل من المسلمين قوة لا تقهر أبداً، فوحَّد الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام في أيامه شبه الجزيرة العربية كلها تحت لواء الإسلام، ولا نعرف لها وحدة بأي شكل من الأشكال وبأية صورة من الصور قبله أبداً، فكان جيش النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذي أنشأه وأرسى دعائمه خلال عشر سنوات من عمره المبارك، هو الذي حمل رايات المسلمين شرقاً وغرباً من بعده، وتحمَّل أعباء الفتح الإسلامي العظيم الذي شمل خلال تسعة وثمانين عاماً (١١ هـ ــ ١٠٠هـ) من الصين شرقاً إلى قلب فرنسا غرباً، ومن سيبيريا شمالاً إلى المحيط جنوباً، فكان هذا الفتح فتحاً مستداماً، لم ينحسر عن البلاد المفتوحة على الرغم من تقلبات الظروف وتطورات الزمن، إلا عن الأندلس الذي انحسر عنها انحساراً سياسياً وعسكرياً، وبقي ثابتاً راسخاً فيها فكرياً وثقافياً واجتماعياً حتى اليوم.

ــ ٢ ــ

وتاريخ جيش النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يبدأ من يوم مبعثه عليه الصلاة والسلام، فقد عمل جاهداً في ميدان بناء الإنسان المسلم، الذي

هو المجاهد المسلم قائداً وجندياً، ولكن تاريخه في التطبيق العملي للجهاد عشر سنوات فقط بدأت في المدينة المنورة.

وحين هاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وأمر أصحابه بالهجرة إليها، بدأ تنظيم الجيش الإسلامي وتسليحه وتجهيزه وقيادته (عملياً) جيشاً نظامياً له كيان واحد، وهدف واحد، وفكر واحد، وقيادة واحدة.

ومعنى الهجرة إلى المدينة المنوَّرة، من الناحية العسكرية، هو حشد المجاهدين في قاعدة أمينة، تمهيداً للنهوض بأعباء الجهاد.

وبادر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مباشرة، بعد استقراره في المدينة المنوَّرة، إلى اختيار مكان مناسب لبناء مسجده، وبدأ ببنائه باللَّبِنِ، وشارك أصحابه في حمل اللبِنَات والأحجار على كواهلهم، فتم للمسلمين بناء المسجد: فراشه الرمل والحصى، وسقفه الجريد، وأعمدته الجذوع[1].

وتم ببناء مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المدينة المنورة، بناء: الثكنة الأولى لجيش النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والثكنة الأولى في الإسلام.

وفي مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ بناء الإنسان المسلم يؤتي أُكله مرتين: غير القادرين على الجهاد من أولاد المسلمين الصغار ليكونوا جيش المستقبل وجنود الفتح الإسلامي وقادته، والقادرون على الجهاد من شباب المسلمين وكهولهم وشيوخهم أيضاً ليكونوا جيش الحاضر والمستقبل وجنود الفتح

---

(١) أنظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (١/٢٣٩ ـ ٢٤٠) وسيرة ابن هشام (١/١١٤) والطبري (٢/٣٩٧) وابن الأثير (٢/١٠٩) والبداية والنهاية (٣/٢١٤) وابن خلدون (٢/٧٤٠ ـ ٧٤١) ومختصر تاريخ البشر (١/١٢٧) وعيون الأثر (١/١٩٥) وخلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (١٤٦). ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (٢٤).

الإسلامي وقادته، والقادرون وغير القادرين على الجهاد من المسلمين يحقنون في المسجد النبوي الشريف بمصل الجهاد مادياً ومعنوياً، ليصبح الإنسان المسلم مجاهداً من الطراز الأول بماله ونفسه في سبيل الله.

ولم يؤذن للمسلمين في القتال وهو الجهاد الأصغر، قبل الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنوَّرة، بالرغم مما تحملوه من تعذيب وتشريد وعناء واضطهاد. وفي مكة المكرمة اجتمع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بسبعين رجلاً من مسلمي المدينة المنوّرة ليلاً في (العقبة)[1] في بيعة العقبة الثانية، فاستمع أحد المشركين وهو يجول بين مضارب الخيام ومنازل الحجيج ما دار في اجتماع (العقبة) من حديث بين النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأولئك المسلمين القادمين من المدينة المنوَّرة، فصرخ ينذر أهل مكة بأعلى صوته: «أن محمداً والصباء[2] معه، قد اجتمعوا على حربكم».

ولم يكترث مسلمو المدينة من أهل العقبة الثانية لانكشاف أمرهم، بل أرادوا مهاجمة المشركين من قريش وغيرهم بأسيافهم، ولكن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمرهم بالتفرق والعودة إلى رحالهم، إذ لم يأذن الله لهم بعد في القتال[3].

وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة، نزلت أول آية من آيات القتال: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من

---

(١) العقبة: الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه، وهو طويل صعب إلى صعود الجبل. وأما العقبة التي بويع فيها النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فهي عقبة بين (مِنى) ومكة، بينها وبين مكة نحو ميلين، وعندها مسجد ومنها ترمى جمرة العقبة، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٩٢ ــ ١٩٣) والمشترك وضعا والمتفق ضعفاً (٣١١).

(٢) الصباء: جمع صابىء، وصبأ الرجل ترك دينه، وكان المشركون يقولون لمن أسلم مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم: الصابىء.

(٣) أنظر التفاصيل في سيرة ابن هشام (٢/٥٤ ــ ٥٧).

ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا: ربنا الله﴾[1]، فخرج الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام غازياً في شهر «صفر» على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة المنوَّرة، وبذلك بدأ الجهاد الأصغر عملياً في الإسلام[2].

— ٣ —

لقد قضى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إثنتي عشرة سنة من عمره المبارك في مكة المكرمة وسنة واحدة في المدينة المنورة بعد هجرته إليها يعمل جاهداً في ميدان: بناء الإنسان المسلم، منفذاً رسالة الله في مجال الجهاد الأكبر.

وقضى عشر سنوات في المدينة المنورة من عمره المبارك، من بداية الجهاد الأصغر حتى التحق بالرفيق الأعلى منفذاً رسالة الله في مجال الجهاد الأكبر وهو بناء الإنسان المسلم، وفي مجال الجهاد الأصغر، وهو الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله.

وقد بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الأربعين من عمره المبارك، والتحق بالرفيق الأعلى عن ثلاث وستين سنة، فكان نبياً ورسولاً، ومعلمًا ورائداً وقدوة وأسوة ثلاثاً وعشرين سنة، وكان نبياً ورسولاً ومعلمًا ورائداً، وزعيمًا وقائداً عشر سنوات، بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة، خلال عمره المبارك من مبعثه إلى وفاته في مجالين حيويين: مجال الجهاد الأصغر، ومجال الجهاد الأكبر، فعلمنا أن الجهاد الأكبر هو الأصل، ولكن هذا الجهاد لا يبلغ غايته ويحقق أهدافه ويصان ويُحمى إلا بالجهاد الأصغر، فلاحق بغير قوة، ولا قوة بغير مجاهدين صادقين، يجاهدون أنفسهم أولاً بالعقيدة الراسخة، لينتصروا على أعداء الإسلام بالأنفس الطاهرة ذات الأخلاق المحاربة، لا بضخامة العَدَد والعُدَد، إذ لم ينتصر المسلمون على

(١) الآيتان الكريمتان من سورة الحج (٢٢/٣٩ ـ ٤٠).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٣) والدرر (١٠٣) وانظر كتابنا: الرسول القائد (٢٧ ـ ٢٨).

أعدائهم بالتفوق العددي والعُدَدي في أيام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا في أيام الفتح الإسلامي العظيم، بل انتصروا بتطبيق تعاليم الدين الحنيف نصاً وروحاً، فلما بدّلوا ما بأنفسهم وتغلبت عليهم نفوسهم الأمّارة بالسوء، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، أصبحت انتصاراتهم هزائم، ولم يفلحوا قطّ.

إن تاريخ جيش النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بدأ من أول نزول الوحي على... المصطفى عليه الصلاة والسلام، فأعد جنوده وقادته بالتدريج (أفراداً) في مكة المكرمة ببناء الإنسان المسلم، فلما هاجر إلى المدينة المنوّرة وشيّد مسجده فيها، بدأت مرحلة جديدة من مراحل ذلك الجيش هي مرحلة تنظيم (الأفراد) قادة وجنوداً، استعداداً للجهاد الأصغر، ولم تمض سنة كاملة على إكمال تشييد المسجد النبوي الشريف، إلا وأصبح جيش النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ متكامل التنظيم، قليل العدد ولكنه كثير المدد، في قاعدة أمينة هي المدينة المنوّرة، يرتكز عليها في جهاده، وينطلق منها لتحقيق أهدافه، ويعود إليها من... غزواته، ويحشد فيها الرجال والمعدات.

واتخذ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مسجده النبوي الشريف مقراً للقيادة: يعدّ فيه الخطط العسكرية، ويعقد في رحابه مجالس الجهاد، ويهيىء فيه المجاهدين الصادقين، ويصدر فيه القرارات والأوامر والوصايا، وينصت فيه إلى آراء أصحابه، لأن أمرهم بينهم شورى.

وكان يحشد أصحابه في المسجد، ليشحنهم بطاقات مادية ومعنوية لا ينضب معينها، ويحرِّض المؤمنين على القتال، ويأمرهم بالثبات وينهاهم عن الفرار، ويحذرهم الفرقة والنزاع، ويأمرهم بالطاعة والنظام، ويشيع فيهم المحبة والألفة والتآخي.

وكانت الغزوات والسرايا تنطلق من المسجد، وتعقد الرايات والأعلام والبنود للمجاهدين في المسجد، وتوزع فيه الأسلحة والمعدات. وكان أصحابه

يجتمعون في المسجد حين يدهمهم الخطر، ويعود المجاهدون من الغزوات والسرايا إلى المسجد، وتضمد جروح المصابين في المسجد، ويتعلم المسلمون أحكام الجهاد في المسجد.

والفرق بين الغزوات والسرايا، أن الغزوات يقودها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه، والسرايا يقودها قادة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أصحابه الغر الميامين.

أخرج الشيخان ـ واللفظ لمسلم ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجود الناس وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ يجري في عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا... لم تراعوا...».

سبق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جماعة الاستطلاع إلى الصوت، وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قد تحشّدوا في المسجد انتظاراً لأوامر الرسول القائد عليه الصلاة والسلام وتوجيهاته.

لقد كان المسجد في أيام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (مثابة) للمجاهدين... قادة وجنوداً، والمثابة في المصطلحات العسكرية، هي: مكان اجتماع القائد برجاله لإصدار الأوامر إليهم ومكان تسلُّم الأوامر، وكان المنادي ينادي حين يتعرض المسلمون لخطر داخلي أو خارجي: الصلاة... الصلاة جامعة... فيتقاطر المجاهدون إلى المسجد زرافات ووحداناً تلبية للنداء، عليهم السلاح كاملاً، ويجهز لهم مَن وراءهم الخيل والدواب والإبل أو يجهزونها لأنفسهم ويربطونها خارج المسجد، وتعد لهم الأمتعة اللازمة والتجهيزات، ليصاولوا العدو فوراً ويقضوا على الخطر الداهم، تنفيذاً لخطة قائد واحد، وتحقيقاً لغاية واحدة، هي الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

— ٤ —

وقد استطاع النبي — صلى الله عليه وسلم — بناء الإنسان المسلم على ثلاث دعائم: العقيدة الراسخة، والقدوة الحسنة، واختيار الرجل المناسب للعمل المناسب.

أما العقيدة الإسلامية، فهي عقيدة منشئة بنّاءة، صالحة لكل زمان ومكان، لأنها تهتم بالمادة اهتمامها بالروح، وتعنى بالحياة الدنيا عنايتها بالدار الآخرة، وتغرس الضبط والنظام في القلوب والنفوس معاً، وتلتزم بالخلق الكريم والمعاملة... الحسنة والمثل العليا الأخرى، وتأمر بالشجاعة والثبات، وتنهى عن الجبن والفرار.

أما القدوة الحسنة، فقد كان خلق النبي — صلى الله عليه وسلم —، وكان تعاليم الإسلام تمشي على الأرض بشراً سوياً، لا يأمر بشيء إلا طبقه على نفسه أقوى ما يكون التطبيق، ولا ينهى عن شيء إلا ابتعد عنه أشد البعد، وكان مثالاً عالياً للشجاعة والإقدام، وكان كالقمة العالية في عمله ومعاملته بالنسبة إلى أصحابه وكلهم قمم عالية، وكان يؤثر رجاله بالخير والأمن ويستأثر دونهم بالخطر والمشقة، وكان مثالاً شخصياً لأصحابه في كل عمل يبتغي به وجه الله والدار الآخرة، فكان قرنه خير القرون، لأن تأثيره المباشر في أصحابه كان عظيماً.

أما اختياره الرجل المناسب للعمل المناسب، فقد كان مثالاً رائعاً حقاً في الالتزام بالعمل الصالح والإيمان العميق والخدمة المثمرة والكفاية العالية والماضي الناصع في اختيار قادته وعماله وقضاته وجباته.

وكل من قرأ سير عظماء الأمم في مختلف العصور، وفكر كثيراً في طرق اختيارهم للذين يوكلون إليهم المناصب العامة، لا يمكن أن يجدهم شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى أسلوب النبي — صلى الله عليه وسلم — في اختيار الذين يوكل إليهم المناصب العامة عسكرية أو مدنية.

قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فولّـى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله» وفي رواية مَن قلّد رجلاً عملاً على عصابة[1] وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين «رواه الحاكم في صحيحه[2].

لقد دلّت سُنَّة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، أن الولاية أمانة يجب أداؤها. قال لأبي ذر الغفاري ــ رضي الله عنه ــ في الإمارة: «إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها» رواه مسلم[3].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه: «أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: إذا ضيعت الأمانة، انتظر الساعة، قيل، يا رسول الله وما إضاعتها؟! قال: إذا وُسِد[4] الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة[5]!!

لم يكن عليه الصلاة والسلام يقدم رجلاً على رجل إلا بالحق، وكان يختار الرجل المناسب للعمل الذي يناسبه، فولى قيادة الجيش صاحب الطبع الموهوب والعلم... المكتسب والخبرة العملية، لذلك انتصر قادته في السرايا التي تولوا قيادتها في حياته المباركة، فلما رحل إلى لقاء الله، أصبح قادته أبرز قادة الفتح الإسلامي لأنهم من خريجي مدرسته في اختيار الرجال.

قال ابن تيمية ــ رضي الله عنه ــ في حق السلطان الذي يخالف عن أمر

---

(١) العصابة: الجماعة من الناس.

(٢) السياسة الشرعية للإمام ابن تيمية (١٠).

(٣) السياسة الشرعية (١٣).

(٤) وسد الأمر إلى فلان: أسند إليه القيام بتصريفه.

(٥) السياسة الشرعية (١٣).

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب: فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس، كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن[١] في قلبه على الأحق، أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾[٢]. ثم قال: ﴿واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة، وإن الله عنده أجر عظيم﴾[٣].

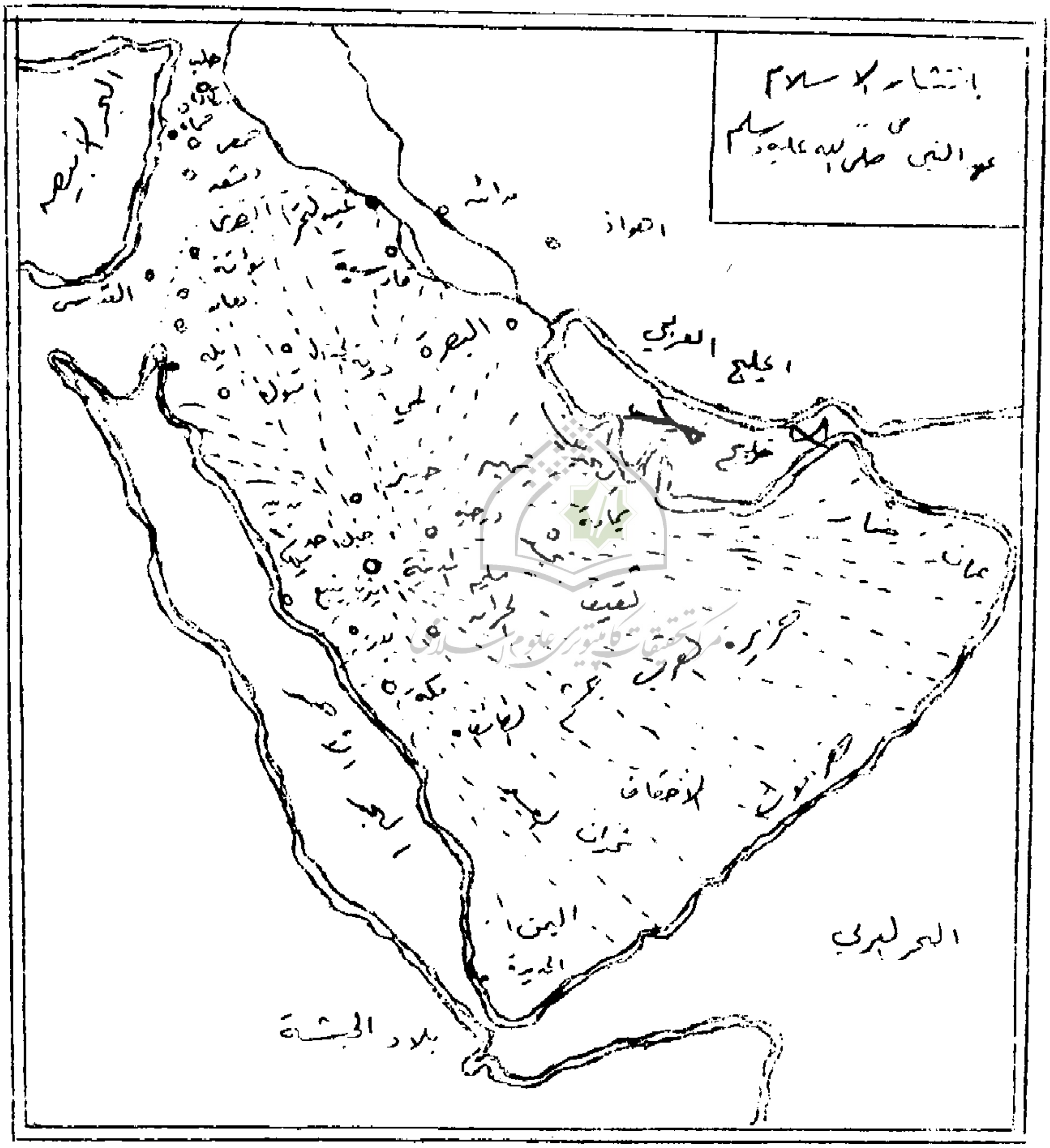
فإن الرجل لحبه لولده، أو لعتيقه، قد يؤثره[٤] في بعض الولايات، أو يعطيه مالاً يستحقه، فيكون قد خان أمانته، وكذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حفظه، بأخذ مالا يستحقه، أو محاباة من يداهنه[٥] في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله، وخان أمانته[٦].

لقد ولّى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالد بن الوليد قيادة الصحابة بعد إسلام خالد مباشرة[٧].

وما يقال عن خالد بن الوليد يقال عن عمرو بن العاص، فقد ولّاه قيادة الصحابة بعد إسلام عمرو مباشرة[٨].

---

(١) ضغن: حقد.
(٢) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ ـ ٢٧).
(٣) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ ـ ٢٨).
(٤) يؤثره يفضله ويقدمه.
(٥) المداهنة: المصانعة والمواربة.
(٦) السياسة الشرعية (١١).
(٧) أسد الغابة (٣/٣٨٢) والاستيعاب (٧/١٠٣٤).
(٨) أسد الغابة (٣/٣٨٢) والاستيعاب (٧/١٠٣٤).


انتشار الاسلام
في عهد النبي صلى الله عليه وسلم
البحر الأبيض
حلب
حمص
دمشق
القدس
الأهواز
البصرة
تبوك
الخليج العربي
يمامة
مكة
الأحقاف
نجران
حضرموت
عمان
اليمن
البحر الأحمر
البحر العربي
بلاد الحبشة

وقال عنها لأصحابه الذين كانوا من حوله: «ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها»[1].

وكان عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ غنياً، فأفاد المسلمون من ثرائه، ولم نسمع[2] أن الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام كلَّف عثمان منازلة الأقران يوم الطعان.

وكان حسان بن ثابت الأنصاري ــ رضي الله عنه ــ شاعراً مجيداً، فاستفاد المسلمون من قابليته الشعرية، ولكن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يجعله مع النساء عندما يتوجه للجهاد.

وكان كثير من أصحاب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يُعدّون من أشجع الشجعان، ولكنهم بقوا جنوداً في جيش المسلمين، ولم يتولوا مناصب قيادية، لأنهم كانوا جنوداً متميزين، ولم يكونوا قادة متميزين.

وكان من بين أصحابه من يحسن القراءة والكتابة، فجعلهم كتاباً للوحي ومحررين لرسائله إلى الملوك والأمراء.

وكان من بينهم إداريون ودعاة وجباة وقضاة، فولّى كل واحد منهم ما يناسب قابليته وكفاياته.

لقد كان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعرف حق المعرفة كل مزايا أصحابه، فيفيد من تلك المزايا ويبرزها للعيان، ويشجع أصحابها ويثني عليهم أطيب الثناء.

ولكنه في الوقت نفسه، يغض الطرف عن النواقص ويتستّر عليها ويبذل

---

(١) أسد الغابة (٣٨٢/٣) والاستيعاب (١٠٣٤/٧).

(٢) سنن النسائي (١٢٤/٢)، وانظر حاشية السندي على هامش سنن النسائي (١٢٤/٢).

جهده لإصلاحها، ولا يذكرها بل يذكر المزايا حَسْبُ، ويأمر أصحابه بذكر مزايا إخوانهم حسب أيضاً.

واستفادته عليه الصلاة والسلام من كل مَزِيّة لكل مسلم، واستقطاب تلك المزايا لبناء المجتمع الإسلامي الجديد، فلا يضع لَبِنة إلا في مكانها اللائق بها والمناسب لها، جعل هذا البناء يرتفع ويتعالى سليمًا مرصوصاً يشد بعضه بعضاً.

وكان ذلك سبباً من أهم أسباب انتصار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عسكرياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً، وفي أيام الحرب وأيام السلام.

فلما التحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى، خلف بين المسلمين عدداً لا يكاد يعد ولا يحصى من القادة والأمراء والولاة والجباة والعلماء والفقهاء والمحدِّثين، قادوا الأمة الإسلامية عسكرياً وسياسياً وإدارياً ومالياً واجتماعياً وفكرياً إلى المجد والسؤدد والخير، وإلى الفتح والنصر والتوفيق، وإلى طريق الحق وسبيل الرشاد.

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم»(١)، فهؤلاء هم القادة الرواد، من خريجي مدرسة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام.

لقد نسي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه، وركز على تفكيره عملاً دائباً لمصلحة المسلمين.

نسي مصلحته الخاصة، وانصرف إلى مصلحة المسلمين العامة، لذلك... استطاع تخريج القمم السامقة من مختلف القابليات والكفايات لمختلف المناصب والواجبات.

---

(١) رواه البيهقي في السنن، أنظر مختصر الجامع الصغير للمناوي ـ مصطفى محمد عمارة ـ (١/ ٣٨٩).

استطاع بالدعامة الأولى: العقيدة الراسخة، أن يجعل من ضمير الفرد رقيباً عتيداً عليه، يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، وأن يجعل من المجتمع الإسلامي أخوة متحابين في الله: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾[1].

واستطاع بالدعامة الثانية: القدوة الحسنة، أن يجعل من الفرد المسلم مؤمناً بأن العقيدة الإسلامية قابلة للتطبيق عملياً، وأن ما لا يمكن أن يكون، يمكن فعلاً أن يكون، وأن يجعل المجتمع الإسلامي مؤمناً بأنه المجتمع المثالي الذي يؤمن بعقيدة مثالية جاءت لمصلحة المؤمنين والناس جميعاً: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[2].

واستطاع بالدعامة الثالثة: اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب، أن يجعل الفرد المسلم يعتمد على قدرته وكفايته وإيمانه للتقدم لا على حسبه ونسبه وانحرافه عن مبادئه، ويجعل المجتمع الإسلامي يثق بعدل القيادة وترفعها عن التحيّز والأهواء.

هكذا أعد الرسول القائد الفرد المسلم، وكل فرد مسلم جندي مجاهد في جيش المسلمين، مؤمناً بعقيدته الراسخة، واثقاً بقيادته الأمينة، لا يخشى على مستقبله الظلم والانحراف، مطمئناً على حاضره غاية الاطمئنان.

وهؤلاء الأفراد يؤلفون المجتمع الإسلامي، وهو جيش المسلمين المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله، يشيع فيه الانسجام الفكري بالعقيدة الراسخة، يثق بقادته، ويتولى أمره الزبدة المختارة من أبنائه من أصحاب الكفايات العالية والقابليات المتميزة والإيمان العميق والماضي المجيد.

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩/ ١٠).

(٢) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢/ ١٤٣).

هذا المجتمع الذي يدافع عن عقيدته ويحملها إلى الناس كافة لا يحملهم عليها، ويدافع عن أرضه وعرضه ـ ولا أقول عن أعراضه، لأن عرض كل مسلم عرض المسلمين جميعاً، كل أفراده يتساوون بالحقوق والواجبات، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم قوة على سواهم، ليس بينهم تمييز طبقي ولا عرقي، هو جيش النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومثل هذا الجيش لا يقهر أبداً ولا يتقهقر أبداً.

ـ ٥ ـ

وجيش المسلمين الأول في تاريخه، يتلخص في أربعة أدوار، تدرَّج بها من الضعف إلى القوة، ومن الدفاع إلى الهجوم، فأصبح بالتدريج قوة ضاربة ذات . . . عقيدة راسخة ومعنويات عالية، تعمل تحت قيادة واحدة، لتحقيق غاية واحدة.

وهذه الأدوار الأربعة هي بحسب تسلسلها الزمني وتطورها التدريجي: الدور الأول هو دور الحشد: من بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة (٦١٠ م)، إلى هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنوَّرة سنة (٦٢٢ م) واستقراره هناك.

وفي هذا الدور، اقتصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الدعوة ونشرها: يبشر وينذر، ويرسخ العقيدة، ويجاهد بكل طاقاته لتبليغ الدعوة ونشر الإسلام.

وبهذا الجهاد الأكبر، كوَّن الخميرة الأولى لجيش المسلمين، ثم حشدهم في المدينة المنورة بالهجرة إليها، فكانت المدينة هي القاعدة الأمينة الأولى لجيش المسلمين.

والدور الثاني، هو دور الدفاع عن العقيدة: وقد اقتصر في السنة الأولى من الهجرة، على تنظيم الجيش الإسلامي وإعداده للجهاد.

وبدأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد نزول آية الإذن بالجهاد الأصغر: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾(١)، يرسل السرايا بقيادة القادة من أصحابه، وقاد بنفسه الغزوات، وانتهى هذا الدور: دور الدفاع عن العقيدة، بانسحاب الأحزاب من المدينة المنورة بعد «غزوة الخندق» في شوال من السنة الخامسة الهجرية(٢)، وقيل في ذي القعدة سنة خمس الهجرية(٣)، . . . ومعنى هذا، أن هذا الدور استمر أربع سنوات. . . تقريباً.

وفي هذا الدور كان مولد الجيش (تنظيمياً)، مولد الجيش الإسلامي جيشاً مجاهداً في ظل مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فازداد تعداد المسلمين وأحرزوا انتصاراً حاسماً في غزوة (بدر الكبرى) في رمضان المبارك من السنة الثانية الهجرية(٤)، وأثبت جدارته في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وعن الدعوة الإسلامية، وعن حرية انتشارها بين الناس، تجاه أعداء المسلمين من المشركين والمنافقين ويهود، المتفوقين على المسلمين عَدداً وعُدداً.

وفي هذا الدور اجتاز الجيش الإسلامي الوليد وقتاً عصيباً بنجاح باهر وانتصارات حاسمة، وصفه الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام قبل خوض غزوة (بدر الكبرى) بقوله وهو يناجي ربه «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد»(٥) مشيراً إلى موقف المسلمين العصيب، ولكنه قال عليه الصلاة والسلام بعد انسحاب الأحزاب من غزوة (الخندق) «الآن نغزوهم ولا يغزوننا،

(١) الآيتان الكريمتان من سورة الحج (٢٢/٣٩ ـ ٤٠).

(٢) الدرر (١٧٩) وعيون الأثر (٢/٥٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/٦٥) والمغازي للواقدي (٢/٤٤٠).

(٤) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٦) وطبقات ابن سعد (٢/١٢) والدرر (١١٠). . . والمغازي (١/٢)، (١/٢١) وعيون الأثر (١/٢٤٥).

(٥) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٧) وعيون الأثر (١/٢٥٥).

نحن نسير إليهم»(١)، مشيراً إلى تحسّن موقف المسلمين من حال الخطر المحدق إلى حال القوة والمنعة.

والدور الثالث، هو دور (التعرُّض): من بعد غزوة (الخندق) إلى غزوة (حنين)(٢) التي كانت في شهر شوّال من السنة الثامنة الهجرية(٣).

وفي هذا الدور، انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية كلها، وأصبح جيش المسلمين قوة ضاربة ذات اعتبار ووزن وأثر في البلاد العربية، واستطاع سحق كل قوة باغية من المشركين ويهود تعرضت للمسلمين.

والدور الرابع هو دور (التكامل): من غزوة (حنين) إلى أن التحق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الأعلى، في يوم الإثنين من شهر ربيع الأول من سنة إحدى عشرة الهجرية(٤).

وفي هذا الدور تكاملت قوات المسلمين، فسيطرت على شبه الجزيرة العربية سيطرة تامة بدون منازع، ووحدتها توحيداً كاملاً لأول مرة في تاريخها تحت لواء الإسلام.

ثم أخذت هذه القوة تحاول أن تجد لها متنفساً في خارج شبه الجزيرة العربية، فكانت غزوة (تبوك)(٥) التي كانت في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية(٦) إيذاناً بمولد الدولة الإسلامية(٧).

---

(١) عيون الأثر (٢/٦٦).

(٢) حنين واد قبل الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليال، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٥٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٤٩) والمغازي للواقدي (١/٦) وجوامع السيرة (٢٤١).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/٢٧٢) وسيرة ابن هشام (٤/٣٣٢) والدرر (٢٨٧).

(٥) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وهو حصن فيه عين ونخل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٦٥).

(٦) طبقات ابن سعد (٢/١٦٥) والدرر (٢٥٣).

(٧) انظر كتابنا: الفاروق القائد (٢٨/٢٩).

ولست بحاجة إلى إثبات قابلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ القيادية وكفايته العسكرية[1]، وصدق الله العظيم: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[2]، فقد كانت قابلياته وكفاياته القيادية والعسكرية وغيرها فذة نادرة لا تتكرر أبداً[3].

فقد قاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه سبعاً وعشرين غزوة [4]، وفي رواية أخرى أنه قاد بنفسه خمساً وعشرين غزوة [5].

ولكنني بمقارنة تعداد الغزوات وتوقيتها في المراجع المعتمدة للسيرة النبوية المطهَّرة والمغازي والتاريخ، وإحصاء الغزوات التي قادها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه، وجدت أن عدد الغزوات التي قادها بنفسه هي ثمان وعشرون غزوة (أنظر الملحق (أ) المرفق)، ويبدو أن قسماً من المصادر أغفل غزوة من الغزوات سهواً، وقسماً منها أغفل أكثر من غزوة واحدة، ولكن تعداد الغزوات التي اعتمدتها في الملحق المرفق وردت في أكثر من مصدر معتمد، فآثرت إثباتها منسقة مبسطة، لعل فيها فائدة للمعنيين بالدراسات العسكرية الإسلامية[6].

---

(١) انظر كتاب: السبيل إلى القيادة، للمشير مونتكومري (٢٨٢/١٧) وكتاب: المئة... الأوائل للدكتور/ مايكل هارث الذي اختار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون الأول في أهم رجال التاريخ.

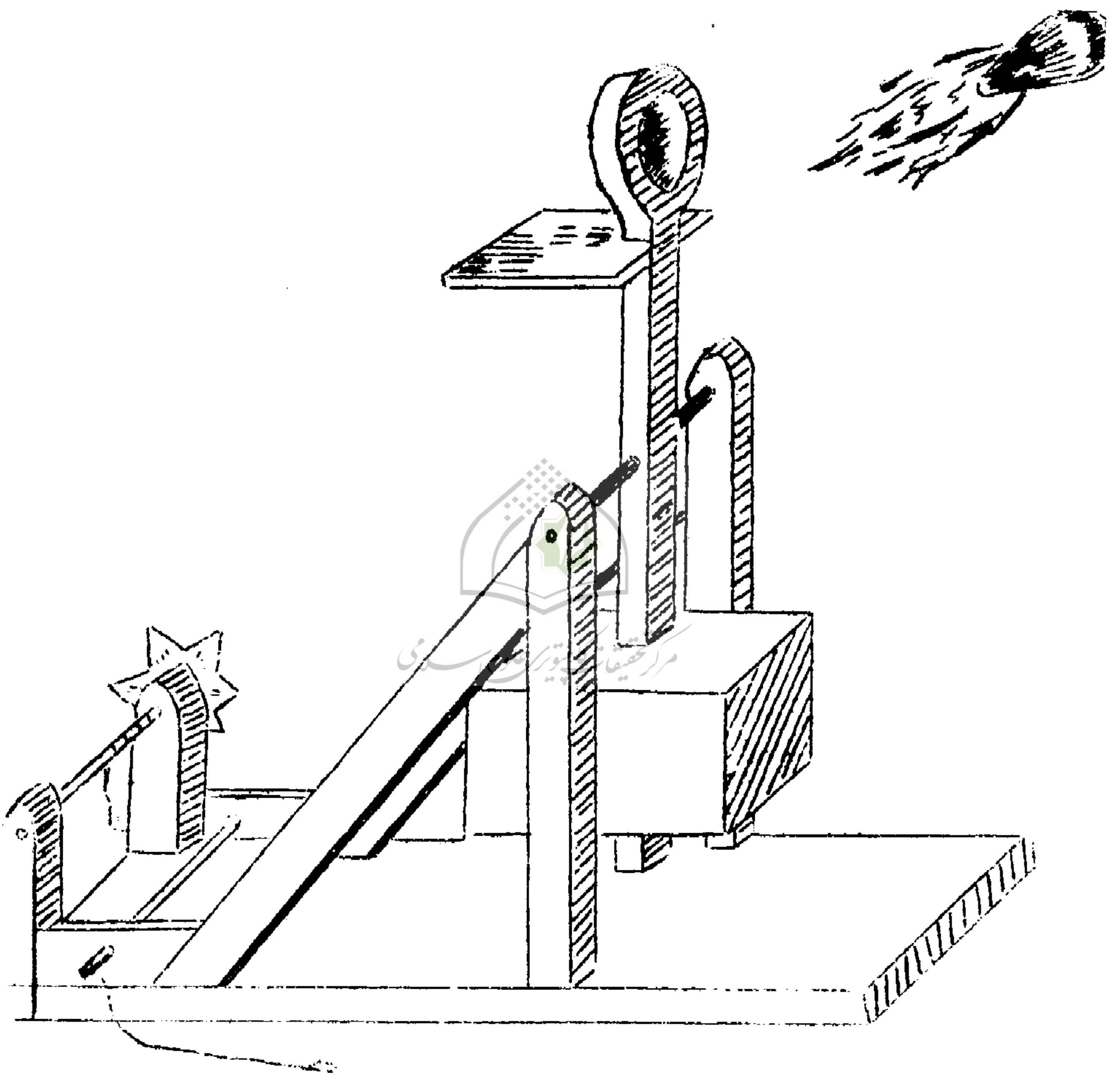
(٢) الآية الكريمة من سورة الأنعام (١٢٤/٦).

(٣) أنظر التفاصيل في كتابنا الرسول القائد (٤٢١/٤٨٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/٢) والمغازي للواقدي (٧/١) وعيون الأثر (٢٢٣/١).

(٥) جوامع السيرة (١٦).

(٦) انظر التفاصيل في كتابنا: الرسول القائد (٤١٢ ـ ٤١٨)، ولم يدرج قسم من كتاب مصادر الغزوات غزوة بني قينقاع مع غزواته عليه الصلاة والسلام، انظر (مثلاً) سيرة ابن هشام (٢٨٠/٤).



منجنيق لرمي النفط

وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع غزوات: بدر، وأحد، والمريسع والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحُنَيْـن، والطائف[1] بينما فر المشركون في تسع عشرة غزوة من غزوات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدون قتال[2].

وكانت سراياه التي بعث بها سبعاً وأربعين سرية[3] وفي رواية أنه بعث عدداً أكثر من السرايا، والأول أصح (انظر الملحق ب المرفق).

وقد قاد عليه الصلاة والسلام غزواته خلال سبع سنين من بعد هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنوَّرة، فقد خرج إلى غزوة (ودان)[4] وهي أول غزوة قادها بنفسه في شهر صفر من السنة الثانية الهجرية[5] وكانت غزوة تبوك آخر غزواته في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية، وكان من ثمرات تلك الغزوات توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام.

ـ ٦ ـ

وبدأ الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام يخطط للفتح الإسلامي العظيم، فهو الذي رسم الخطة التمهيدية التي حملت جيش المسلمين على فتح (أرض الشام)[6] فلسطين والأردن وسورية ولبنان، وتأسيس أول ركن لدولة

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٥ ـ ٦) وعيون الأثر (١/٢٢٣) وجوامع السيرة (٢١/١٧).

(٢) انظر كتابنا: الرسول القائد (٤٢٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/٢٨٠) وطبقات ابن سعد (٢/٥) وعيون الأثر (١/٢٢٣) وجوامع السيرة (٢١/١٧).

(٤) ودان قرية قريبة من الجحفة، وهناك ودان بين الأبواء والجحفة، وهي من... الجحفة على مرحلة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٠٥).

(٥) المغازي للواقدي (١/٢) وطبقات ابن سعد (٢/٨) والدرر (١٠٣) وعيون الأثر (١/٢٢٤).

(٦) أرض الشام: حدودها من الغرب بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ومن الشرق البادية من (أبلة) إلى الفرات إلى حد الروم، ومن الشمال بلاد الروم (تركيا) ومن الجنوب حد مصر وتيه بني إسرائيل، راجع التفاصيل في المسالك والممالك للأصطخري (٤٣) ومعجم البلدان (٥/٢١٩).

الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية على شـواطيء البحر الأبيض المتوسط الشرقية.

ذلك أن الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام إلى جانب تبليغه الدعوة الإسلامية إلى قادة العالم في وقته: كسرى فارس، وقيصر القسطنطينية، والأمراء والقادة في العراق وأرض الشام ومصر والخليج العربي واليمن والحبشة، كان قائداً ماهراً يقظاً لا يغض الطرف عن أي مظهر عدواني قد يحط من شأن... دعوته أو يعمل على النيل منها أو يضع العراقيل في طريق حرية انتشارها، فلم يقف ساكناً أمام استشهاد رسـوله الـذي بعثه إلى أمـير الغساسنة في (بصرى)[1]، فأرسل في السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩ م) أحد قادته المقربين إليه، وهو زيد بن حارثة الكلبي على رأس حملة تعدادها ثلاثة آلاف رجل إلى الحدود الشمالية الغربية من حدود بلاد العرب، وهناك عند (مؤتة)[2]، الواقعة على ـ حدود (البلقاء)[3] إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر (الميت)، التقى المسلمون قوات الروم وحلفاءهم[4] الغساسنة.

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها غزوة (مؤتة)، فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى، فبينما رأى الروم تلك الغزوة (غارة) من الغارات التي اعتاد البدو شنها بين حين وآخر، كانت سرية زيد إلى «مؤتة» في الحقيقة غزوة من نوع آخر

---

(١) بصرى: قصبة كـورة (حوران) من أعمـال دمشق، أنظر التفـاصيل في معجم البلدان (٢٧٨/٢).

(٢) مؤتة: قرية من قرى البلقاء على حدود الشام ووادي القرى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩/٨).

(٣) البلقاء: كورة من أعمال دمشق ووادي القرى، قصبتها: عمان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٢).

(٤) انظر تفاصيل سرية (مؤتة) في كتابنا: الرسول القائد (٢٩٥ ــ ٣٠٢).

لم تقدر أمبراطورية الروم أهميتها، فهي حرب منظَّمة كانت لها مهمة جديدة خاصة، جعلت المسلمين يتطلعون جدياً إلى فتح أرض الشام.

وفي العام التالي، أي في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م)، قاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه غزوة (تبوك)، فأظهر قوة المسلمين للروم المتربّصين بهم، ثم عاد إلى المدينة المنورة، فكانت تلك الغزوة غزوة استطلاعية، بالإضافة إلى تأثيرها المعنوي في الروم وحلفائهم الغساسنة.

وفي السنة الحادية عشرة الهجرية (٦٣٢م)، أعدَّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرية بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي[١] (حب رسول الله وابن حبه)، لمهاجمة الروم، فولّى وجوه المسلمين شطر قبلة عيَّنها لهم وأهداف واضحة جليَّة شرحها لهم، وأصدر إليهم أوامر حاسمة جازمة.

وهكذا وقف الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام بثاقب نظره على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل ببلاد العرب ودعوته الإسلامية، موطنها أرض الشام حيث الروم وعمالهم الغساسنة، وقد أثبتت حوادث الفتح الإسلامي فيما بعد صدق هذه الإشارة، فكان الروم أشد المحاربين عناداً[٢].

تلك هي قصة جيش المسلمين الأول، الذي أنشأه وسهر على رعايته، ودرَّبه وجهزه ونظمه، وهيأ له القادة الحماة القادرين، وأشاع فيه المعنويات العالية بالعقيدة الراسخة، حتى أصبح جيشاً لا يقهر من قلة ولا بكثرة، حقق وحدة قوية، . . . وأنشأ أمة عظيمة، وحمى عقيدة راسخة، في حياة قائده ورائده، ومؤسس بنيانه، . . . ومشيد أركانه، ومرسخ إيمانه بقوة الله وعزته وإرادته وهديه.

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٣٣ ـ ٥١).

(٢) الدولة الإسلامية وأمبراطورية الروم (٤١).

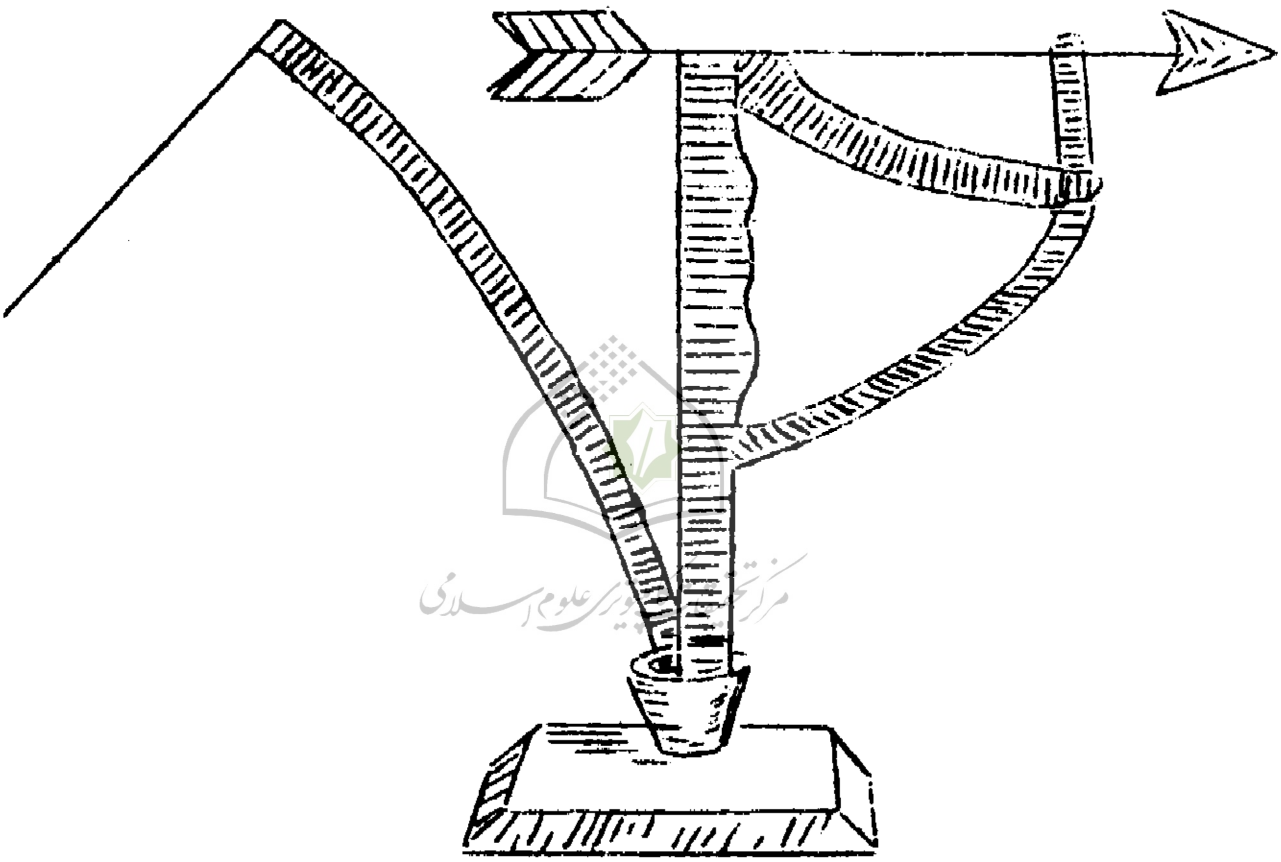
وقد نشأ هذا الجيش في المسجد، وشبَّ وترعرع في المسجد، واستوى على ساقه في المسجد، وتلقى تعاليمه في المسجد، فقد جعل الله الأرض كلها مسجداً وطهوراً.

وفي المدينة المنوَّرة، في مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -، انطلق جيش المجاهدين الأولين للدفاع عن الإسلام والمسلمين، ثم انطلق لحماية الدعوة الإسلامية وحرية نشرها وتبليغها إلى الناس، ثم اندفع لصيانة الكيان الإسلامي، ثم تكفَّل بصيانة الدولة الإسلامية مكانة وأرضاً وعرضاً، ثم نهض بأعباء حرب المرتدين وإعادة الوحدة إلى شبه الجزيرة العربية، ثم تحمّل أعباء الفتح الإسلامي العظيم أقوى ما يكون عزماً وإرادة وتصميماً، فنقل المسلمون بهذا الفتح الأمم إلى الإسلام، ولم ينقلوا به الإسلام إلى الأمم.

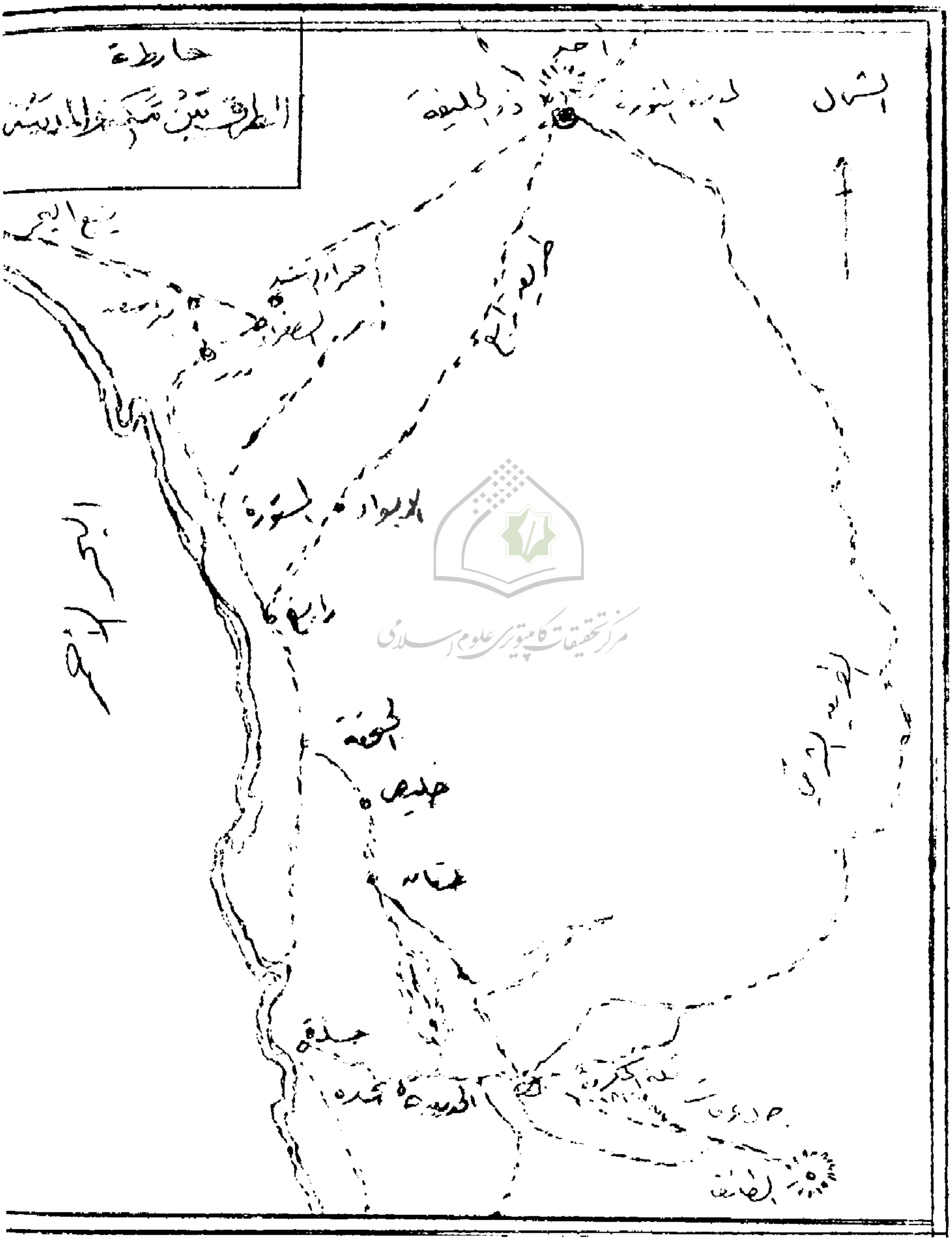
لقد أسَّس بنيان هذا الجيش على تقوى من الله ورضوان، لذلك أحرز انتصارات باهرة لا تزال أعجوبة من أعاجيب الدهر، وحقق فتوحات فذّة لا تزال باقية على الدهر، وصدق الله العظيم: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1].

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩/١٠٩).



منجنيق لرمي السهام الثقيلة

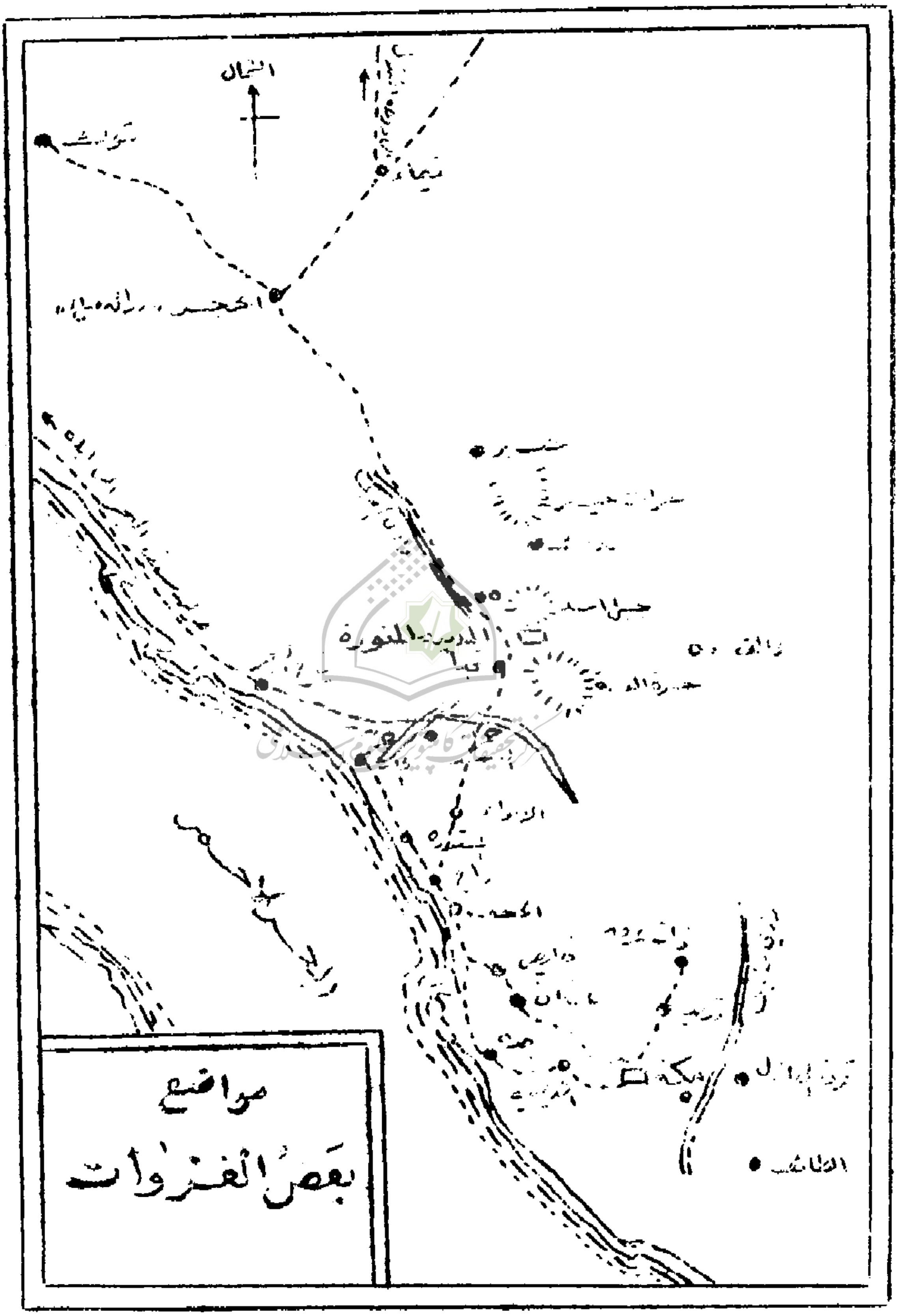

خارطة
الطرق بين مكة والمدينة
الشمال
المدينة المنورة
ذو الحليفة
البحر الاحمر
الابواء
رابغ
الجحفة
خليص
عسفان
جدة
الحديبية
الطائف

الملحق (أ)

الغزوات التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه

اسم الغزوة	قوات الطرفين: المسلمون	قوات الطرفين: أعداء المسلمين	المكان	التاريخ	مجمل النتائج
ودان (الأبواء)	٢٠٠ راكب وراجل		ودان	صفر من السنة الثانية الهجرية	تملصت قريش فحالف بني ضمرة
بواط بناحية رضوى	٢٠٠ راكب وراجل	١٠٠ راكب وراجل من قريش	بواط	ربيع الأول من السنة الثانية الهجرية	لم يدرك قافلة قريش
العشيرة من بطن ينبع	٢٠٠ راكب وراجل	قوة من قريش وبني مدلج وبني ضمرة	العشيرة	جمادي الأولى من السنة الثانية الهجرية	وادع بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة
بدر الأولى	٢٠٠ راكب وراجل	قوة خفيفة بقيادة كرزبن جابر الفهري	بدر	جمادي الآخرة من السنة الثانية الهجرية	فر المشركون بما غنموه من المسلمين ولم يستطع المسلمون إدراكهم
بدر الكبرى	٣١٥ معهم فرسان وسبعون بعيراً	٩٥٠ منهم ٢٠٠ راكب وهم من قريش	بدر	رمضان من السنة الثانية الهجرية	انتصار المسلمين الحاسم على المشركين من قريش

اسم الغزوة	قوات الطرفين		المكان	التاريخ	مجمل النتائج
	المسلمون	أعداء المسلمين			
بنو قينقاع	مسلمو المدينة المنورة	بنو قينقاع من يهود	المدينة المنورة	أوائل شوال من السنة الثانية الهجرية	تطهير داخل المدينة المنورة من يهود.
بنو سليم	٢٠٠ راكب وراجل	بنو سليم	قرقرة الكدر بين مكة والمدينة	أواخر شوال من السنة الثانية الهجرية	فرار بني سليم وتركهم أموالهم للمسلمين.
السويق	قوة مطاردة خفيفة من المسلمين	٢٠٠ فارس من مشركي قريش	قرقرة الكدر	ذو الحجة من السنة الثانية الهجرية	فرار مشركي قريش من مطاردة... المسلمين.
ذو أمر	٤٥٠ بين راكب وراجل	بنو ثعلبة ومحارب	ذو أمر موضع في نجد	محرم من السنة الثالثة الهجرية	فر بنو ثعلبة ومحارب وبقي المسلمون في دارهم نحو شهر.
بحران	٣٠٠ بين راكب وراجل	بنو سليم	بحران على طريق المدينة مكة	ربيع الأول من السنة الثالثة الهجرية	فر بنو سليم فبقي المسلمون في ديارهم نحو شهر.
أحد	٧٠٠ بينهم خمسون فارساً	٢٩٠٠ من قريش وحلفائها ومائة من بني ثقيف بينهم ٢٠٠ فارس	جبل أحد في ضواحي المدينة المنورة	شوال من السنة الثالثة الهجرية	استطاع المشركون تكبيد المسلمين سبعين شهيداً وكان انتصار المشركين انتصاراً تعبوياً.


مواضع
بعض الغزوات
الشمال
تيماء
المدينة المنورة
مكة
الطائف

اسم الغزوة	قوات الطرفين		المكان	التاريخ	مجمل النتائج
	المسلمون	أعداء المسلمين			
حمراء الأسد	٦٣٠ بين راكب وراجل	٢٩٧٨ من قريش وحلفائها وثقيف	حمراء الأسد بين المدينة ومكة	شوال من السنة الثالثة الهجرية	طارد المسلمون قريشاً وحلفاءها إلى حمراء الأسد بعد انتهاء غزوة أحد مباشرة ولكن المشركين... انسحبوا.
بنو النضير من يهود	مسلمو المدينة كافة	بنو النضير من يهود	ضواحي المدينة المنورة	ربيع الأول من السنة الرابعة الهجرية	إجلاء بني النضير عن ضواحي المدينة المنورة
ذات الرقاع	٤٠٠ راكب وراجل	بنو ثعلبة ومحارب من غطفان	ذات الرقاع بنجد	شعبان من السنة الرابعة الهجرية	فرار بني ثعلبة وبني محارب.
بدر الآخرة	نحو ألف راكب وراجل	٣٠٠ من مشركي قريش	بدر	شعبان من السنة الرابعة الهجرية	عادت قريش أدراجها إلى مكة ولم تذهب لِلقاء المسلمين في بدر حسب موعدها.
دومة الجندل	ألف راكب وراجل	قبائل دومة الجندل	دومة الجندل	ربيع الأول من السنة الخامسة الهجرية	لاذت القبائل بالفرار.

اسم الغزوة	قوات الطرفين		المكان	التاريخ	مجمل النتائج
	المسلمون	أعدا المسلمين			
بنو المصطلق	ألف راكب وراجل	بنو المصطلق	المريسيع	شعبان من السنة الخامسة الهجرية	فر بنو المصطلق بعد معركة قصيرة وانتصر المسلمون.
الخندق	ثلاثة آلاف	عشرة آلاف من قريش وحلفائها عدا يهود المدينة	المدينة المنورة	شوال من السنة الخامسة الهجرية	عودة الأحزاب عن حصار المدينة المنورة خائبين.
بنو قريظة من يهود	ثلاثة آلاف بينهم ٣٦ فارساً	٦٠٠ إلى ٧٠٠ من قريظة	ضواحي المدينة المنورة	ذو القعدة من السنة الخامسة الهجرية	القضاء على بني قريظة.
بنو لحيان	نحو ٣٠٠٠	بنو لحيان	غران بين أمج وعسفان	جمادي الأولى من السنة الهجرية	فر بنو لحيان.
ذو قرد	جماعة مطاردة خفيفة	غطفان	ذو قرد	جمادي الأولى من السنة السادسة الهجرية	فر بنو غطفان تاركين الغنائم التي أخذوها من المسلمين.
الحديبية	١٦٠٠ راكب وراجل	قريش في مكة المكرمة	الحديبية	ذو القعدة من السنة السادسة الهجرية	عقد هدنة الحديبية بين المسلمين وقريش.
خيبر	١٦٠٠ راكب وراجل	يهود خيبر	خيبر	محرم من السنة السابعة الهجرية	فتح خيبر واستسلام يهود فدك ووادي القرى وتيماء.

اسم الغزوة	قوات الطرفين		المكان	التاريخ	مجمل النتائج
	المسلمون	أعداء المسلمين			
عمرة القضاء	١٤٠٠ راكب وراجل	قريش	مكة المكرمة	ذو الحجة من السنة السادسة الهجرية	بقي المسلمون ثلاثة أيام في مكة بعد أن خرج المشركون منها.
فتح مكة	عشرة آلاف	قريش وبنو بكر	مكة المكرمة	رمضان من السنة الثامنة الهجرية	فتح مكة المكرمة
حنين	١٢ ألفاً	هوّازن وثقيف	وادي أوطاس قرب الطائف	شوال من السنة الثامنة الهجرية	فك المسلمون عن الطائف ورحلوا عنها إلى المدينة واندحار هوازن وثقيف.
حصار الطائف	١٢ ألفا	ثقيف وقسم من هوازن	الطائف	شوال من السنة الثامنة الهجرية	لم تستسلم الطائف ففك المسلمون الحصار عنها ورحلوا عائدين إلى المدينة المنورة.

اسم الغزوة	قوات الطرفين		المكان	التاريخ	مجمل النتائج
	المسلمون	أعداء المسلمين			
تبوك	ثلاثون ألفا منهم عشرة آلاف فارس	جيش كبير من الروم وحلفائهم من الغساسنة	تبوك	رجب من السنة الثامنة الهجرية	فضَّل الروم ألا يشتبكوا بالمسلمين فأقام المسلمون في تبوك نحو عشرين يوماً، وصالحوا القبائل وسكان منطقة الحدود الشمالية بين الحجاز وأرض الشام فأمنوا بذلك قاعدة متقدمة أمامية لعملياتهم المقبلة باتجاه الروم في أرض الشام.

الملحق ب
سرايا النبي صلى الله عليه وسلم

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
حمزة بن عبد المطلب	ثلاثون من المهاجرين	حمزة بن عبد المطلب	٣٠٠ راكب	أبو جهل بن هشام	العيص	رمضان من السنة الأولى	حجز بين الطرفين مجدي بن عمرو الجهني.
عبيدة بن الحارث	ستون من المهاجرين	عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب	أكثر من مئتي راكب وراجل	أبو سفيان بن حرب	ماء بوادي رابغ	شوال من السنة الأولى	جرت مناوشات بين الطرفين رمى فيها سعد بن أبي وقاص أول سهم رمي في الاسلام.
سعد بن أبي وقاص	عشرون من المهاجرين	سعد بن أبي وقاص	قافلة لقريش	ـ	الخرار	ذو القعدة من السنة الأولى	تملصت القافلة ونجت
عبدالله بن جحش	إثنا عشر رجلاً من المهاجرين	عبدالله بن جحش	أربعة رجال	عمرو بن الحضرمي	نخلة	رجب من السنة الثانية	١ ـ أول قتيل من المشركين. ٢ ـ أول أسير من المشركين. ٣ ـ أول غنيمة للمسلمين. ٤ ـ استعمال الرسائل المكتومة.

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
عمير بن عدي ابن خرشة	رجل واحد	عمير بن عدي ابن خرشة	عدوة واحدة	عصماء بنت مروان	المدينة المنورة	رمضان من السنة الثانية	تعيب الاسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه وتقول الشعر.
سالم بن عمير	رجل واحد	سالم بن عمير	عدو واحد	أبو عفك اليهودي	المدينة المنورة	شوال من السنة الثانية	يحرض على رسول الله ويقول الشعر.
محمد بن مسلمة	نفر من الأوس	محمد بن مسلمة	عدو واحد	كعب بن الأشرف	المدينة المنورة	ربيع الأول من السنة الثالثة	يهجو النبي بشعره ويهجو أصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم
زيد بن حارثة الكلبي	مائة راكب	زيد بن حارثة الكلبي	قافلة لقريش	صفوان بن أمية	القردة من أرض نجد	جمادي الآخرة من السنة الثالثة	غنم قافلة قريش وأسر فرات بن حيان فأسلم.
عبدالله بن أنيس	رجل واحد	عبدالله بن أنيس	جماعة حشدوا لقتال المسلمين	سفيان بن خالد الهذلي	عرنة	المحرم من السنة الرابعة	حشد الجموع لقتال المسلمين.
أبو سلمة بن عبدالأسد	ـ	أبو سلمة بن عبدالأسد	بنو أسد	رئيس بني أسد	قطن	المحرم من السنة الرابعة	لحشدهم على المسلمين.
المنذر بن عمرو الأنصاري	سبعون رجلاً من الأنصار	المنذر بن عمرو	سبعون من سليم	سليم بن ملحان والحكم بن كيسان	بئر معونة	صفر من السنة الرابعة	غدر المشركون بالدعاة المسلمين.

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
مرثد بن أبي مرثد الغنوي	عشرة رجال	مرثد بن أبي مرثد الغنوي	عضل والقارة	رئيسا القبيلتين	الرجيع	صفر من السنة الرابعة	غدر المشركون بالمسلمين.
محمد بن مسلمة	ثلاثون راكباً	محمد بن مسلمة الأنصاري	القرطاء بطن من بني بكر من كلاب	رئيس القبيلة	القرطاء في البكرات بناحية ضرية	محرم من السنة السادسة	قتل نفرا منهم وهرب سائرهم وعاد بالغنائم
عكاشة بن محصن الأسدي	أربعون رجلاً	عكاشة بن محصن الأسدي	بنو أسد	رئيس القبيلة	الغمر غمر مرزوق	ربيع الأول السنة السادسة	استاقوا مائتي بعير وهرب المشركون.
محمد بن مسلمة الأنصاري	عشرة رجال	محمد بن مسلمة	بنو ثعلبة وبنو عوال من ثعلبة	رئيس القبيلة	ذو القصة	ربيع الآخر السنة السادسة	استشهد المسلمون وجرح قائدهم.
أبو عبيدة ابن الجراح	أربعون رجلاً	أبو عبيدة ابن الجراح	بنو ثعلبة	رئيس القبيلة	ذو القصة	ربيع الآخر السنة السادسة	هرب المشركون وغنم المسلمون مواشيهم وأمتعتهم.
زيد بن حارثة الكلبي	—	زيد بن حارثة الكلبي	سليم	رئيس القبيلة	الجموم	ربيع الآخر السنة السادسة	غنم المسلمون شاء ونعما وأسرى.
زيد بن حارثة الكلبي	سبعون ومائة راكب	زيد بن حارثة الكلبي	قافلة لقريش	صفوان بن أمية	العيص	جمادى الأولى السنة السادسة	غنم المسلمون القافلة

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
زيد بن حارثة الكلبي	خمسة عشر رجلاً	زيد بن حارثة الكلبي	بنو ثعلبة	رئيس القبيلة	الطرف	جمادي الآخرة السنة السادسة	غنم المسلمون عشرين بعيراً وهربت الأعراب.
زيد بن حارثة الكلبي	خمسمائة رجل	زيد بن حارثة الكلبي	جذام	الهنيد ابن عارض	حسمي	جمادي الآخرة السنة السادسة	غنم المسلمون ألف بعير وخمسة آلاف من الشاة مع مائة من الأسرى فأعادها النبي لهم.
زيد بن حارثة الكلبي	ـ	زيد بن حارثة الكلبي	الأعراب في وادي القرى بنو فزارة	رئيس القبيلة	وادي القرى	رجب السنة السادسة	كبدهم خسائر في الأرواح وأصاب أسرى.
عبدالرحمن بن عوف	ـ	عبدالرحمن ابن عوف	بنو كلب	الأصبغ بن عمرو الكلبي	دومة الجندل	شعبان السنة السادسة	أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وأسلم معه ناس كثير.
علي بن أبي طالب	مائة رجل	علي بن أبي طالب	بنو سعد ابن بكر	رئيس القبيلة	فدك	شعبان السنة السادسة	لاحباط حشدهم مدداً ليهود خيبر فهرب بنو سعد وخلفوا خمسمائة بعير وألفي شاة غنمها المسلمون.
زيد بن حارثة الكلبي	مفرزة خفيفة	زيد بن حارثة الكلبي	فزارة من بني بدر	رئيس القبيلة	أم قرفة بوادي القرى	رمضان السنة السادسة	انتقم من بني بدر لنهبهم قافلة تجارية للمسلمين.

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
عبدالله بن عتيك	راجل واحد مع مفرزة من خمسة رجال	عبدالله ابن عتيك	أبو رافع بن أبي الحقيق	أبو رافع سلام بن أبي الحقيق	خيبر	رمضان السنة السادسة	قتله لأنه حرض غطفان على المسلمين.
عبدالله ابن رواحة	أربعة رجال	عبدالله بن رواحة	رجل واحد	أسير بن زارم اليهودي	خيبر	شوال السنة السادسة	قتله لأنه سار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب المسلمين.
كرز بن جابر الفهري	عشرون فارساً	كرز بن جابر الفهري	ثمانية من العرنيين	هؤلاء ثمانية من العرنيين	الطريق القريبة من المدينة	شوال السنة السادسة	خانوا الأمانة فعوقبوا على خيانتهم.
عمرو بن أمية الضمري	رجلان	عمرو بن أمية الضمري	أبو سفيان بن حرب	أبو سفيان ابن حرب	مكة	–	أرسل أبو سفيان ليغتال النبي صلى الله عليه وسلم، فعاد هذا إلى أبي سفيان بعد إسلامه.
عمر بن الخطاب	ثلاثون رجلا	عمر بن الخطاب	عجز هوازن	–	تربة	شعبان السنة السابعة	هرب المشركون فعاد إلى مكة.
أبو كبر الصديق	–	أبو بكر الصديق	بنو كلاب	–	ضرية بنجد	شعبان السنة السابعة	هرب المشركون وسبى قسمًا منهم.

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
بشير بن سعد الأنصاري	ثلاثون رجلا	بشير بن سعد الأنصاري	بنو مرة	—	فدك	شعبان السنة السابعة	غنم المسلمون فاستعاد المشركون الغنائم وكبدوا المسلمين خسائر فادحة.
غالب بن عبدالله الليثي	مائة وثلاثون رجلاً	غالب بن عبدالله الليثي	بنو عوال وبنو عبد بن ثعلبة	رئيس القبيلة	الميفعة بناحية نجد	رمضان السنة السابعة	كبدوا المشركين خسائر في الأرواح وغنموا نعماً وشاء.
سعد بن بشير الأنصاري	ثلاثمائة رجل	سعد بن بشير الأنصاري	غطفان	عيينة بن حصن	يمن وجباد	شوال السنة السابعة	هرب المشركون وغنم المسلمون نعمًا كثيراً.
ابن أبي العوجاء السلمي	خمسون رجلاً	ابن أبي العوجاء السلمي	سليم	رئيس القبيلة	الجموم	ذو الحجة السنة السابعة	استشهد أكثر المسلمين.
غالب بن عبدالله الليثي	بضعة عشر رجلاً	غالب بن عبدالله الليثي	بنو الملوح	بنو الملوح	الكديد	صفر السنة الثامنة	غنم المسلمون النعم.
غالب بن عبدالله الليثي	مائتا رجل	غالب بن عبدالله الليثي	بنو مرة	رئيس القبيلة	فدك	صفر السنة الثامنة	أخذ المسلمون ثأرهم من بني مرة الذين أصابوا سرية بشير بن سعد الأنصاري.
شجاع بن وهب الأسدي	أربعة وعشرون رجلا	شجاع بن وهب الأسدي	بنو عامر من هوازن	رئيس القبيلة	السي ناحية الركبة من وراء المعدن	ربيع الأول السنة الثامنة	غنم المسلمون نعما وشاء.

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
كعب بن عمر الغفاري	خمسة عشر رجلاً	كعب بن عمير الغفاري	قبائل عربية	–	ذات أطلاح	ربيع الأول السنة الثامنة	استشهد المسلمون.
زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة	ثلاثة آلاف رجل	زيد بن حارثة وجعفر ابن أبي طالب وعبدالله بن رواحة	مائة ألف من غسان وحلفائهم	شرحبيل بن عمرو الغساني	مؤتة	جمادي الأولى السنة الثامنة	انسحب المسلمون بقيادة خالد بن الوليد بعد استشهاد القادة الثلاثة وتكبد المسلمون خسائر فادحة بالأرواح لتفوق المشركين عليهم تفوقاً ساحقاً.
عمرو بن العاص	ثلاثمائة رجل معهم ثلاثون فرساً وأمدهم النبي بمائتي رجل	عمرو بن العاص وعلى المدد أبو عبيدة بن الجراح	قضاعة	رؤساء قبائل بلي وعذرة وبلقين	ذات السلاسل	جمادي الآخرة السنة الثامنة	وطيء بلاد بلي ودوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين ولقى جمعاً بعد ذلك فحمل المسلمون عليهم فهربوا في البلاد وتفرقوا. والهدف من السرية إحباط تجمعات قضاعة وحشدهم للهجوم على المسلمين.
الخبط	ثلاثمائة رجل	أبو عبيدة بن الجراح	جهينة	رئيس القبيلة	القبلية مما يلي ساحل البحر الأحمر	رجب السنة الثامنة	لم يلقوا كيدا.

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
أبو قتادة ابن ربعي الأنصاري	خمسة عشر رجلاً	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري	محارب بن غطفان	رئيس محارب من غطفان	خضرة في نجد	شعبان السنة الثامنة	غنم المسلمون مائتي بعير وألفي شاة.
أبو قتادة ابن ربعي الأنصاري	ثمانية رجال	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري	–	–	بطن أضم	رمضان السنة الثامنة	الهدف هو التضليل عن التوجه نحو مكة لفتحها فذهبت هذه السرية بعكس اتجاه مكة، ثم تحرك المسلمون نحو هدفهم الأصلي مكة.
خالد بن الوليد	ثلاثون فارساً	خالد بن الوليد	صنم لقريش وجميع بني كنانة	–	العزى (صنم) في نخلة	رمضان السنة الثامنة	هدم العزي.
عمرو بن العاص	مفرزة خفيفة	عمرو بن العاص	صنم هذيل	–	سواع (صنم)	رمضان السنة الثامنة	هدم سواع
سعد بن زيد الأشهلي	عشرون فارساً	سعد بن زيد الأشهلي	صنم للأوس والخزرج وغسان بالمسئل	–	مناة (صنم)	رمضان السنة الثامنة	هدم مناة
خالد بن الوليد	ثلاثمائة وخمسون رجلاً	خالد بن الوليد	جذيمة من كنانة	رئيس قبيلة جذيمة	ناحية يلملم	شوال السنة الثامنة	كبد جذيمة خسائر في الأرواح.

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
الطفيل بن عمرو الدوسي	مفرزة خفيفة	الطفيل بن عمرو الدوسي	ذو الكفين (صنم عمرو بن حمة الدوسي)	—	في منطقة الطائف	شوال السنة الثامنة	هدم ذا الكفين.
عيينة بن حصن الفزاري	خمسون فارساً	عيينة بن حصن الفزاري	بنو تميم	رئيس بني تميم	بين السقيا وأرض بني تميم	المحرم السنة التاسعة	هرب المشركون فأسر أحد عشر رجلاً وسبى إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً أعادهم النبي إلى أهليهم.
قطبة بن عامر بن حديدة	عشرون رجلاً	قطبة بن عامر ابن حديدة	خثعم	رئيس خثعم	ناحية بيشة قريباً من تربة في ناحية تبالة	صفر السنة التاسعة	تكبد المشركون خسائر بالأرواح وغنم المسلمون النعم والشاء والأسرى.
الضحاك ابن سفيان الكلابي	—	الضحاك بن سفيان الكلابي	بنو كلاب	رئيس بني كلاب	القرطاء بناحية زج لاوه	ربيع الأول السنة التاسعة	انتصر على بني كلاب.
علقمة بن مجزز المدلجي	ثلاثمائة رجل	علقمة بن مجزز المدلجي	الحبشة	رئيس الحبشة في الجزيرة التي تقابل مدينة جدة	الحبشة في جزيرة تقابل جدة	ربيع الآخر لسنة التاسعة	هرب الأحباش.

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
علي بن أبي طالب	مائة وخمسون رجلاً على مائة بعير وخمسين فرساً	علي بن أبي طالب	الفلس صنم طيء وفي كتاب الأصنام الفلس بفتح الفاء	عدي بن حاتم الطائي	محلة آل حاتم الطائي بأرض طيء على جبلهم: أجا	ربيع الآخر السنة التاسعة	هدم الفلس وعاد بالسبي والنعم والشاء.
عكاشة بن محصن الأسدي	ـ	عكاشة بن محصن الأسدي	عذرة وبلي	رئيس القبيلة	الجناب أرض عذرة وبلي	ربيع الآخر السنة التاسعة	التفاصيل غير متيسرة عن هذه السرية ويبدو أنها سرية من سرايا الدعوة.
خالد بن الوليد	ـ	خالد بن الوليد	بنو عبدالمدان	رئيس القبيلة	نجران	ربيع الأول السنة العاشرة	التفاصيل غير متيسرة عن هذه السرية ويبدو أنها سرية من سرايا الدعوة.
علي بن أبي طالب	ثلاثمائة فارس	علي بن أبي طالب	مذرحج	رئيس القبيلة	اليمن (بلاد مذحج)	رمضان السنة العاشرة	قاتلهم فانتصر عليهم وغنم منهم النعم والشاء وأسر الأسرى، ثم أعلنوا إسلامهم.

اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي	ثلاثة آلاف مجاهد بين راكب وراجل	أسامة بن زيد (حب رسول الله وابن حبه)	الروم وحلفاؤهم من قضاعة	رئيس قضاعة	ابني وهي أرض السراه ناحية البلقاء	صفر سنة إحدى عشرة	١ ـ أمر النبي بإنفاذ بعث أسامة في صفر. ٢ ـ تحرك أسامة بجيشه إلى هدفه في ربيع الآخر بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) وتولي أبي بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة. ٣ ـ شن أسامة غارة سريعة فانتصر، فعاد أدراجه إلى المدينة المنورة. ٤ ـ أثرت هذه السرية في الروم وحلفائهم تأثيراً بالغاً مما مهد للفتح الاسلامي القريب.

إيضاح الملحق (ب)

(١) اعتمدت ما جاء في الجزء الثاني من طبقات ابن سعد في ترتيب سرايا النبي صلى الله عليه وسلم التي أدرجتها في الملحق (ب)، بعد مقارنتها بالمصادر المعتمدة الأخرى.

(٢) وقد ذكر ابن سعد في الطبقات خمساً وخمسين سرية فقط، بينما عدد السرايا الواردة في الملحق (ب) ست وخمسون سرية، بزيادة سرية واحدة على ما ذكره ابن سعد في طبقاته.

والسرية التي أضفتها إلى الملحق (ب) هي سرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى بني أسد في (قطن)، وهي ذات الرقم (١٠) في الملحق (ب).

وقد اقتبست هذه السرية وأضفتها إلى الملحق (ب) من مغازي الواقدي لأنها وردت في مصادر معتمدة أخرى.

(٣) أجمعت المصادر المعتمدة كلها على ان عدد سرايا النبي صلى الله عليه وسلم هو سبع وأربعون سرية، وقد ذكرت ذلك في صلب هذا البحث.

والسرايا التي عدّدها ابن سعد في طبقاته خمس وخمسون سرية، على الرغم من أنه ذكر في كتابه: أن سرايا النبي صلى الله عليه وسلم سبع وأربعون سرية.

ويبدو أن ابن سعد لم يعتبر السرايا التي هدفها القضاء على شخص معاد سرايا بالمعنى الصحيح كالتي هدفها تعبوي أو سوقي للقضاء على جماعة أو قبيلة أو مجموعة من القبائل المعادية أو فرض الحصار الاقتصادي على أعداء الإسلام بجعل الطرق التجارية التي يسلكها الأعداء غير أمينة.

وهذه السرايا التي كان هدفها القضاء على شخص معاد واحد هي ذات. . . التسلسل: (٥، ٦، ٧، ٩، ٢٤، ٢٥، ٢٧) في الملحق (ب) فليعد إلى هذا الملحق من أراد الاطلاع على التفاصيل.

كما يبدو أن ابن سعد لم يعتبر السرية ذات التسلسل (٤٢) لأنها سرية خرجت للتضليل حسب، أي لتوجيه أنظار الأعداء إلى حركتها شمالاً، تمهيداً. . . لحركة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجنوب لفتح مكة.

وبذلك يبقى من تعداد سراياه التي ذكرها سبع وأربعون سرية.

(٤) أما بالنسبة الى الملحق (ب) الذي عدد ستاً وخمسين سرية، فتضاف السرية ذات التسلسل (٥٦) لأنها نفذت بعد التحاق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى في عهد أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ، تضاف إلى السرايا التي لم يعتمدها ابن سعد والواردة في المادة (٣) في أعلاه، فيبقى تعداد السرايا في الملحق (ب) سبعاً وأربعين سرية. . . والله أعلم.

الملحق (ج)

المصادر والمراجع

ـ **ابن الأثير** (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزرى):

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة، طهران، ١٣٧٧ هـ.

(٢) تجريد أسماء الصحابة، حيدرآباد الدكن (الهند)، ١٣١٥ هـ.

(٣) الكامل في التاريخ، بيروت، ١٣٨٥ هـ.

ـ **ابن تغرى بردى الأتابكي** (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي):

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٨٣ هـ.

ـ **ابن تيمية** (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن مجد الدين أبو البركات عبد السلام ابن تيمية):

(٥) السياسة الشرعية، تحقيق محمد المبارك، بيروت، ١٣٨٦ هـ.

ـ **ابن حجر العسقلاني**(شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني):

(٦) الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة، ١٣٢٥ هـ.

٧ ـ تهذيب التهذيب، حيدآباد الدكن (الهند)، ١٣٢٧ هـ.

(٨) فتح الباري بشرح البخاري، القاهرة، ١٣٠١ هـ.

ـ **ابن حزم لأاندلسي** (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي):

(٩) جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هرون، القاهرة، ١٣٨٢ هـ.

(١٠) جوامع السيرة، القاهرة، بلا تاريخ.

ـ **ابن خراذبة** (أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة):

(١١) المسالك والممالك، طهران، ١٩٦٣ م.

ـ **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن خلدون):

(١٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة، ١٣٨٤ هـ.

ـ **ابن سعد** (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري):

(١٣) الطبقات الكبرى، بيروت، ١٣٧٦ هـ.

ـ **ابن سيد الناس** (محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس):
(١٤) عيون الأثر في فنون المغازى والشمائل والسير، القاهرة، ١٣٥٦ هـ.

ـ **ابن عساكر** (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الشافعي):
(١٥) تهذيب ابن عساكر، دمشق، ١٣٢٩ هـ.

ـ **ابن عبد البر** (يوسف بن عبد البر النمرى):
(١٦) الدرر في اختصار المغازى والسير، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة، ١٣٨٦ هـ.

ـ **ابن الفقيه** (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه):
(١٧) مختصر تاريخ البلدان، لايدن، ١٨٨٥ م.

ـ **ابن كثير** (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي):
(١٨) البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة، بلا تاريخ.
(١٩) تفسير ابن كثير، القاهرة، ١٣٤٧ هـ.

ـ **ابن ماجة** (محمد بن يزيد بن ماجه القزويني):
(٢٠) سنن ابن ماجه، القاهرة، ١٣١٣ هـ.

ـ **ابن منظور** (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور):
(٢١) لسان العرب، بيروت، ١٣٧٤ هـ.

ـ **ابن هشام** (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري):
(٢٢) السيرة النبوية، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٣٥٦ هـ.

ـ **أبو الفدا** (اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة):
(٢٣) تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠ م.
(٢٤) المختصر من أخبار البشر، القاهرة، ١٣٢٥ هـ.

ـ **أبو يوسف** (القاضي أبو يوسف يعقوب ابن ابراهيم صاحب الامام أبي حنيفة):
(٢٥) الخراج، القاهرة، ١٣٤٦ هـ.

ـ **أحمد بن حنبل** (الإمام):
(٢٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل، القاهرة، ١٣١٣ هـ.

ـ **الأدريسي** (الشريف الأدريسي):
(٢٧) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشره دوزي ودي جوجه، لايدن، ١٨٦٦ م.

ـ **الأصطخري** (أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (الأصطخري):
(٢٨) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، القاهرة، **١٣٨١** هـ.

ـ **البخاري** (الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري):
(٢٩) صحيح البخاري، بولاق، **١٣٠٠** هـ.

ـ **البشارى** (المقدسي المعروف بالبشارى):
(٣٠) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لايدن، **١٩٠٦** م.

ـ **البغوي** (الإمام البغوي:
(٣١) تفسير البغوي، على هامش تفسير ابن كثير، القاهرة، **١٣٤٧** هـ.

(٣٢) شرح السنة، بيروت، **١٣٩١** هـ.

ـ **البلاذري** (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري):
(٣٣)) فتوح البلدان، القاهرة، **١٩٥٩** م.

ـ **البلخفي** (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي):
(٣٤) البدء والتاريخ، باريس، **١٨٩٩** م.

ـ **البضاوي** (القاضي أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي):
(٣٥) تفسير البيضاوي، القاهرة، **١٣٣٠** هـ.

ـ **البيهقي** (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي):
(٣٦) دلائل النبوة، القاهرة، **١٣٨٩** هـ.

ـ **الجوزى** (أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى):
(٣٧) صفة الصفوة، حيدرآباد الدكن (الهند) **١٣٥٥** هـ.

ـ **الحلبي** (علي بن برهان الدين الحلبي):
(٣٨) إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون (السيرة الحلبية)، القاهرة، بلا تاريخ.

ـ **الحنبلي** (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي):
(٣٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، اقاهرة، **١٣٥٠** هـ.

ـ **الخزرجي** (أحمد بن عبد الله الخزرجي):
(٤٠) خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال، القاهرة، **١٣٢٢** هـ.

ـ **الذهبي** (شمس الدين محمد بن أحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي):

(٤١) تاريخ الإسلام، القاهرة، ١٣٨٦ هـ.

(٤٢) دول الإسلام، القاهرة، ١٣٨٦ هـ.

(٤٣) سير أعلام النبلاء، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة، بلا تاريخ.

(٤٤) العبر، تحقيق فؤاد سيد، الكويت، ١٩٦١ م.

(٤٥) ميزان الاعتدال، القاهرة، ١٣٢٤ هـ.

ـ **الزاوى** (طاهر أحمد الزاوى الطرابلسي):

(٤٦) ترتيب القاموس المحيط، القاهرة، ١٩٥٩ م.

ـ **الزمخشري** (أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري):

(٤٧) تفسير الكشاف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣١٩ هـ.

ـ **السمهودي المدني**:

(٤٨) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، القاهرة، ١٣٦٧ هـ.

ـ **الطبري** (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري):

(٤٩) تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٣٥٨ هـ.

(٥٠) تفسير الطبري، القاهرة.

ـ **الظاهري** (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري):

(٥١) زبدة كشف الممالك وبيان اطرق والمسالك، باريس، ١٨٩٤ م.

ـ **العصامي** (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي):

(٥٢) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة، ١٣٧٩ هـ.

ـ **عياض** (القاضي عياض):

(٥٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القسطنطينية، ١٣١٢ هـ.

ـ **القرطبي** (أبو الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، ١٣٥٦ هـ.

ـ **القزويني** (زكريا بن محمد القزويني):

(٥٥) آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٣٨٠ هـ.

ـ **الكلبي** (أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي):

(٥٦) الأصنام، القاهرة، ١٣٣٢ هـ.

ـ **الماوردي** (أبو الحسن علي بن حبيب البصري الماوردي):
(٥٧) الأحكام السلطانية، القاهرة، ١٣٤٧ هـ.

ـ **مجمع اللغة العربية في القاهرة**:
(٥٨) المعجم الوسيط، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.

ـ **محمد رشيد رضا**:
(٥٩) تفسير المنار، القاهرة، ١٣٢٥ هـ.

ـ **محمد فؤاد عبد الباقي**:
(٦٠) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، ١٣٧٨ هـ.

ـ **محمد مصطفى عمارة**:
(٦١) مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي، القاهرة، ١٣٧٣ هـ.

ـ **محمود شيت خطاب**:
(٦٢) الرسول القائد، القاهرة، الطبعة الثالثة، بلا تاريخ.
(٦٣) الفاروق القائد، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٣٩١ هـ.
(٦٤) قادة فتح الشام ومصر، بيروت، ١٣٨٥ هـ.

ـ **المسعودي** (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي):
(٦٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٤ م.

ـ **النووي** (أبو زكريا محيي الدين بن شرف الدين النووي):
(٦٦) تهذيب الأسماء واللغات، دمشق، بلا تاريخ.

ـ **الهرثمي** (صاحب المأمون):
(٦٧) مختصر سياسة الحروب.

ـ **الواقدي** (محمد بن عمر بن واقد):
(٦٨) كتاب المغازي، تحقيق الدكتور مارسدن جونس، أوكسفورد، ١٩٦٦ م.

ـ **ياقوت الحموي** (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي):
(٦٩ المشترك وضعاً والمفترق صفعاً، لايدن، ١٨٤٦ م.
(٧٠) معجم البلدان، القاهرة، ١٣٢٣ هـ.

ـ **اليعقوبي** (أحمد بن يعقوب):
(٧١) البلدان، لايدن، ١٨٩٢ م.

دولة البلغار المسلمين
في حوض الفولغا

إعـــداد
د/ حسين علي الداقوقي
(كلية التربية ـ جامعة بغداد)

تاريخ الإسلام في جنوبي روسيا من الموضوعات الشيقة التي اهتم بها الباحثون، من الشرقيين والمستشرقين الذين يعملون في حقول الدراسات العربية ـ الاسلامية من لغوية وتاريخية وفكرية، أو حضارية على وجه العموم. وإلى عهد قريب كان كثير من الباحثين يكتفون بدراسة تاريخ العرب من مختلف الجهات دون أن يتناولوا باستيفاء تاريخ الاسلام في افريقيا أو في مناطق القفقاس وحوض الفولغا.

وقد ظهرت الحاجة مؤخراً إلى توسيع مجال البحث اقليمياً إلى ما وراء جبال القفقاس وإيضاح نفوذ الحضارة العربية الاسلامية إلى هذه البلاد. كما أتيحت الفرصة لمن يريد التوغل بعيداً، في البحث، على المستويين الزمني والاقليمي.

من المسلم به أنه لا بأس في محاولة استقصاء حقائق التاريخ الاسلامي ومظاهر الحضارة من أكبر مجالاتها، على الصعيدين الزمني والاقليمي، ولا شك أن تحقيق مثل هذا البرنامج يتطلب المعرفة بأحوال الشعوب في تلك المنطقة قبل

إسلامهم، كما يتطلب الكثير من المعارف الخاصة، بالشعوب الكبيرة والدول التي كانت لها علاقات بسكان تلك المنطقة.

وفي بحثنا هذا نحاول أن نلفت النظر إلى أهمية امتداد دائرة الحضارة العربية، والتفاعل الحضاري بين ما لدى السكان وبين الاسلام، وبالتالي إلى دور الاسلام في مجرى الحضارة العالمية.

إن دراسة تاريخ حوض الفولغا في العصور الوسطى تلقي ضوءاً على جوانب متعددة من تاريخ الاسلام السياسي والحضاري، لأنها فضلاً عن توضيح تاريخ السهوب الروسية وشمالي غربي بحر الخزر وقفقاسيا، تنير السبيل أكثر في موضوع المؤثرات في العلاقات العربية البيزنطية.

وبالرغم من أن الحديث في تأثير الحضارات هو حديث ساحر فثمة مبادلات يصعب أحياناً العثور على تفاصيلها، وأن للتأثيرات الثقافية مظاهر عديدة منها في الأساطير والتقاليد وفي مختلف جوانب الفولكلور مما يصعب التوصل إليها في دراسة قصيرة مثل هذه.

ليس من قبيل المغالاة القول بأن معظم مراجع تاريخ الأقوام في جنوبي روسيا خلال العصر الوسيط هو باللغة العربية. وقد خصص المؤلفون العرب كتباً مستقلة خاصة بمناطق موضوعنا مثل كتاب ألفه مسلم بن أبي مسلم الجزمي، وكان خبيراً بشؤون الروم وذلك في أيام الواثق (٢٢٨ ـ ٢٣٣ هـ/٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) عن الدولة البيزنطية وتاريخها وعن الشعوب المجاورة لها وهو اليوم مفقود. تحدث عنه المسعودي (ت ٣٤٥هـ ـ ٩٥٦م) في أخبار سنة ٢٣١ هـ قائلاً: «مسلم بن أبي مسلم الجزمي، وكان ذا محل في الثغور، ومعرفة بأهل الروم وأرضها وله مصنفات في أخبار الروم وملوكهم، وذوي الرُّتب منهم، وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو اليها والغارات عليها،

ومن جاورهم من برجان والأبر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم»[١].

وهناك كتاب مستقل مؤلف عن تاريخ البلغار مفقود اليوم، ولكن ينقل عنه أبو حامد الأندلسي الغرناطي (ت ٤٧٣ ـ ٥٦٤هـ/ ١٠٨٠ ـ ١١٦٩م) في رحلته الموسومة بـ (تحفة الألباب) ويورد فيها اسم الكتاب ـ وهو مفقود اليوم ـ بعنوان (تاريخ بلغار)[٢] لمؤلفه القاضي البلغاري الذي كان من أصحاب أمام الحرمين.

وكذلك يذكر أبو حامد الغرناطي مؤلفاً له علاقة أيضاً بالبلغار ولا نعلم عن أمره شيئاً في الوقت الحاضر وهو كتاب (الشعبي، كتاب سير الملوك)[٣]. وهناك كتب مفقودة في الوقت الحاضر تتعلق موضوعاتها بمناطق قريبة من حوض الفولغا أو متواصلة وإياه. منها ما ألفه أبو عبيدة (١١٠ ـ ٢٠٩ هـ / ٧٢٨ ـ ٨٢٤م)، و «كان مولى من بلاد ما بين النهرين» بعنوان (كتاب فتوح أرمينية)[٤].

ـ ومعمر بن الأشعث (ت٢٢٥هـ/٨٣٩م) بعنوان (كتاب أخبار أرمينية)[٥].

ـ والبردعي (المجهول)، (تاريخ أران) في أرمينيا. ومموس الدربندي، (تاريخ باب الأبواب)[٦].

---

(١) المسعودي: التنبيه والاشراف، نشره عبدالله اسماعيل الصادي ١٩٣٨، ص ١٦٢.

(٢) أبو حامد الأندلسي الغرناطي: تحفة الألباب نشره (G Ferrand) باريس ١٩٢٥، ص ٢٣٧.

وفي ص ١٣٢ يقول: «وقال لي في بلغار القاضي يعقوب بن النعمان» ويبدو أنه مؤلف تاريخ بلغار.

(٣) الغرناطي، نفس الكتاب، ص ٥٥، ١٢٦، ١٣٢.

(٤) شارل بلات: الجاحظ، ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني، دمشق ١٩٦١، ص ٢٠٠.

(٥) ابن النديم، الفهرست، ص ١٠٣.

(٦) د. شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ٢/٣٢، ٣٩٦ نقلاً عن السخاوي، الاعلان، ط. روزنثال، ص ٦١٤، ٦٢٠.

ـ ومؤلف مجهول، وضع تواريخ لباب الأبواب (منطقة دربند بين جبال القفقاس وبحر قزوين).

وقد ظل هذا التاريخ معروفاً حتى أيام المؤرخ العثماني المشهور بمنجم باشي في القرن الحادي عشر.هـ/ السابع عشر.م

وثمة كتاب يتناول منطقة أذربيجان بعنوان (تاريخ أذربيجان) ألفه أبو الخير نعمة الله بن محمد... سلماسي الفقيه، يقول ابن الفوطي «رأيت بخطه أجزاء تشتمل على تاريخ أذربيجان وكان لحدود سنة أربعين وخمسمائة»[١].

تحوي المصادر الجغرافية العربية معلومات كثيرة وقيمة عن منطقة الفولغا. فالتراث العربي الجغرافي ـ كما لا يخفى ـ أعظم بأضعاف مضاعفة مما كان لليونان، سواء أكان من حيث السعة أو من حيث صحة ودقة المعلومات، إذ لم يقتصر العلم العربي على دراسة ما لأرض الخلافة من الخصائص الجغرافية إنما تناولت حياة السكان ومختلف المهن والصناعات والتطور الحضاري، فأعطى معلومات مفصلة وسليمة عن هذه النواحي.

خرج العلم العربي من نطاق حدود أرض الخلافة فبلغ عن طريق التجارة الهند والصين حتى شبه جزيرة كوريا. ومن جهة البر عرف العرب جوانب كثيرة عن التبت، ويدعى صو، وعرفوا عن سيبريا أيرتيش وينيس الأعلى وما فيهما من القبائل[٢]. لذلك ليس بمستغرب أن يستند الباحث في دراساته عن السهوب الروسية إلى الكتب الجغرافية العربية.

---

(١) ابن الفوطي، تلخيص معجم الألقاب، ٢/٥، ص ٥٢ لاهور.

(٢) بارتولد، مقالة له بعنوان «الدراسات الشرقية في اوروبا وروسية» نشرتها مجلة (ملي تتبعلر مجموعة سي)، ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧.

إن ألمع فترة من فترات تقدم الجغرافية العربية هي القرنان: التاسع والعاشر الميلاديان. ومن أعظم الجغرافيين في القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي كان ابن خرداذبة. ومن المؤسف أننا لا نملك نسخة كاملة من كتابه، ولا توجد نسخة من كتاب الجيهاني (من القرن العاشر) الذي درس ما كتبه ابن خرداذبة من جديد واستكمله. ولكن بالرغم من كل ذلك توجد مقتطفات عنهما في كتب الجغرافيين التالين لهما[1].

لعل من أقدم المراجع عن منطقة بلغار الفولغا هو ابن رسته[2] (ألف كتابه ٢٩٠ هـ/٩٠٣ م). وقد أورد معلومات قيمة عن هذه الدولة، وتناول جوانب مختلفة عن حياة البلغار ونقل عنه مؤلف (حدود العالم) (٣٧٢هـ/٩٨٤م) والبكري، ونقل بتغيير طفيف الغرديزي[3].

استند الاصطخري[4] (النصف الأول من القرن الرابع هجري) إلى أبي زيد البلخي وجدد فيه، استكمله من بعده ابن حوقل. وعند الأصطخري التفاتات مهمة حول اللغة والأزياء ونواحي اجتماعية أخرى.

أما مؤلف كتاب (حدود العالم)[5]، فقد استفاد من ابن حرداذبة وابن رسته والاصطخري، وابن فضلان. كشف عنه في بخارى عام ١٨٩٢م ونشره طومانسكي. وفي الكتاب معلومات عن الهند والصين والتركستان وبلغار الفولغا وأوروبا الشرقية... الخ وفيه معلومات مهمة عن طرق التجارة في آسيا الوسطى. أضاف إليه الغرديزي (في القرن الحادي عشر هجري) وفي كتاب المقدسي

(١) بارتولد، نفس المقالة، ص ٤٥٧.

(٢) ابن رسته، الاعلاق النفسية، ط. ليدن ١٨٩١.

(٣) الغرديزي، زين الأخبار (نشره G. Kuun, Ksz, II 1901).

(٤) الأصطخري، المسالك والممالك: تحقيق د. محمد جابر الحيني، مصر ١٩٦١.

(٥) مؤلف مجهول، حدود العالم. ترجمة مينورسكي إلى اللغة الانكليزية.

قائمة مهمة عن البضائع الداخلة في التجارة، وهو الآخر استفاد من ابن خرداذبة والجيهاني.

وقد زار بلاد البلغار أحمد بن فضلان. وهو مرجع عن البلغار لا نظير له في الأهمية يلقي ضوءاً على الفترة التي زار فيها تلك البلاد[1] (٣٠٩هـ/٩٢١م) وهو الذي أوفده الخليفة المقتدر في ٣٠٩ هـ/٩٢١م إلى ملك البلغار في الفولغاوسيرد ذكره في مواضع أخرى.

وبعد ابن فضلان بـ (٢٠٠) سنة تقريباً زار المنطقة الرحالة أبو حامد الغرناطي[2] (٤٧٣ ــ ٥٦٤هـ/ ١٠٨٠ ــ ١١٦٩م) فكان هناك سنة ٥٣٠هـ.

وهو أبو عبدالله محمد بن عبدالرحيم المازني القيسي الأندلسي. ولد في غرناطة (٤٧٣هـ / ١٠٨٠م) وتوفي بدمشق (٥٦٥هـ / ١١٦٩م).

زار أبو حامد منطقة بحر الخزر ووصل إلى ضفاف نهر الفولغا، فطاف ببلاد الخزر والبلغار. وفي ياقوت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م والقزويني

(١) عثر على رسالة ابن فضلان في مدينة مشهد البروفسور (Z.V. Togan) ونشرها: (Ibn Fadlan's Reisebericht Deutsche Morgenlandische Gesellsehaft, Leipzig 1939) نشر نصه العربي كراتشكوفسكي، كذلك درسها (A.P. Kovalevsky) بعنوان رحلة أحمد بن فضلان حول شواطىء الفولغا في ٩٢١ ــ ٩٢٢، نشرته جامعة خاركوف عام ١٩٥٦. ونشرها طبعة دقيقة المرحوم سامي الدهان في دمشق ١٩٥٩ بعنوان رسالة ابن فضلان. وطبع طبعة ثانية في دمشق. أعاد العالم المجري كارل سفليدي نشر رسالته ابن فضلان معقباً على ما نشره وليدي.

(٢) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، باريس ١٩٢٥. إن النسخ المخطوطة التي لم يستفد منها فران هي: الأولى في مكتبة كوبرولو/قسم فاضل أحمد، رقم ١٩٨ (نسختان في مجلد واحد) والثاني في مكتبة أيا صوفيا رقمها ٣١٢٧. الثالثة في مكتبة يازيد العامة ورقمها ٥٠١٤. راجع عنها كتاب الاستاذ (Togan): منهج البحث في التاريخ. كذلك راجع عنه: بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس. القاهرة، ص ٣١٢. نفيس أحمد، جهود المسلمين في الجغرافيا. ترجمة فتحي عثمان، ص ٥٠. السيد عبدالعزيز سالم التاريخ والمؤرخون. الاسكندرية ٩٦٧.

٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م (آثار البلاد) وابن سعيد ٦٧٥هـ/ ١٢٨٦م (بسط الأرض) والدمشقي ٧٢٧هـ/ ١٢٢٦م وابن الوردي ٨٥٠هـ/ ١٤٢٦م ملومات مهمة في هذا الصدد.

وقد ظهرت حول موضوع البلغار دراسات حديثة سنشير إليها خلال صفحات البحث. إن المنطقة الواسعة المترامية الأطراف المسماة بـ (سهوب جنوبي روسيا)، والممتدة من (دنيبر) إلى شرقي الفولغا، ليست سوى امتداد لسهوب آسيا. والحقيقة نفسها مقبولة لدى المؤرخين[١].

كانت هذه السهوب تعرف في المصادر العربية والفارسية خلال القرن الحادي عشر حتى الخامس عشر ميلادي بـ (دست قفجاق)[٢] أي سهوب قفجاق، و(دست خزر) أي سهوب الخزر[٣] تروي أنحاء هذا السهل أنهار كبيرة، تبعث فيها أسباب التحضر والاستقرار وهي: الفولغا (ايديل) وبابيك ودون وكوبان. إلا أن أعظم هذه الأنهر هو نهر الفولغا الذي ينطلق من مرتفعات فالدي، فينساب مسافة يبلغ طولها ٣٦٩٤ كم.

تلتقي بالفولغا خلال هذا المجرى الطويل روافد عديدة أعظمها: أوكا الأيمن وأوكا الأيسر[٤]، وبعد أن يؤدي مهمته في ري المنطقة وخدمة زراعتها وتجارتها يصب في البحر جنوبي استراخان.

---

(١) René Grousset, L'empire des Steppes. Trc. R. Uzmen Istanbul, 1980, S. 172.

(٢) Yakubovsky, Altin Ordu, Turk. Trc., s. 4.

كان القفجاق ـ كما وضح بارتولد ـ يسكنون خلال ١٠٣٠م بلاداً تصاقب خوارزم... وإن أول إشارة إلى (دست قفجاق) كانت عند ناصر خسرو من مؤلفي القرن الحادي عشر.

(٣) حمدالله المستوفي، نزهة القلوب، نشره محمد دبير سيامي، طهران ١٣٣٦ شمس، ص ٢٢.

(٤) ستروييف، جغرافية الاتحاد السوفييتي، دار التقدم، موسكو، ص ١١٩. وراجع دائرة المعارف الاسلامية ورمزها (EI)، مادة (Ltil). وقد سماه بلغار الفولغا (Atil)، وسماه محمود الكاشغري صاحب كتاب ديوان لغات الترك بـ (ايتيل).

اسم الفولغا من أصل فنلندي (Fin)، ثم صار يتداوله السلاف. أما أيديل فاسم متأخر لا زال سكان قازان يسمونه به.

وجاء في كتاب (خريدة العجائب) لابن الوردي: «وأما أتل فانهم طائفة أخرى قديمة، وسموا باسمهم نهرهم اتل، الذي يصب في هذا البحر (بحر الخزر) وبلدهم أيضاً يسمى اتل»[1].

ويقول ياقوت: اثل: بوزن ابل اسم نهر عظيم شبيه بدجلة في بلاد الخزر ويمر ببلاد الروس وبلغار... ويصب في بحيرة جرجان[2]. (يقصد بحر الخزر). وفي المصادر العربية الأخرى معلومات كثيرة عن نهر الفولغا (ابديل) منها:

«نهر اثل نهر كبير غزير الماء، سريع الجري، مخرجه من صحارى القبجق وجبالها، وينضم اليها عيون وأنهار، تأتي من وراء بلغار المسلمين. وهذا النهر يجمد وجهه في الشتاء فتكون ثخانة الوجه الجامد عشرة أشبار، ومن هناك بشواطيه يحفرون في الجليد آباراً إلى الماء الجاري يستقون منه الماء. وربما اشتد البرد فيتشقق وجهه ويغور منه الماء ويتجمد على وجهه لوقته فيصير الماء هضبات وتلال ماء جامد... ويدوم جامداً مائة يوم فما دونها[3].

وجاء في موضع آخر: «ويقال فيه نهر الاثل بالألف واللام أيضاً، وهو من أعظم الأنهار في تلك البلاد وأشهرها... إنه قدر النيل ثلاث مرات أو أكثر

---

(١) ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة ١٣١٤، ص ٩، ويقال أنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً وبقى عمود النهر جارياً إلى البحر. (ابن حوقل ــ من القرن الرابع ــ كتاب صورة الأرض. ص ٣٣٣) وراجع الحميري (٩٠٠/١٤٩٤)، كتاب الروض المعطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ص ١٠١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٨٧/١ ــ ٨٨.

(٣) الدمشقي، نخبة الدهر، ص ١٠٦.

(!) أصله من بلاد الصقلب يصب في بحر الخزر. . قال في مسالك الأبصار: وتجري فيه السفن الكبار، ويسافر فيه المسافر إلى الروس والصقلب(١).

وفي مخطوط جغرافي يتحدث مؤلفه المجهول عن الصقالبة ويذكر أن لهم بحراً حلواً (من المحتمل أنه بحيرة لادوغا)، تجيء فيه السفن من ناحية الشمال تجري إلى الجنوب. ولهم أيضاً بحر (من المحتمل الفولغا) يجري من بلدان البلغار (الورقة 58 a)(٢).

إن الذي أسبغ الحياة على المنطقة نهرا: ايديل وكاما، والثاني أكبر فروع الأول، ونهر صالح للملاحة لذلك لعب دوراً مهمًا في المواصلات. وكان واسطة اتصال بين ايديل الأوسط والأورال وغربي سيبريا. وكانت الغابات الواسعة تغطي الأقسام الشمالية من كاما وضفاف (شوشما) و(زي) حيث كانوا يصطادون الحيوانات ذوات الفراء الثمين. وكانوا يربون الخيول. وفي الأنهار أسماك من مختلف الأنواع. والأراضي على الفولغا وكاما خصبة جداً صالحة للزراعة، مضافاً إلى ذلك وفّر الفولغا نشاطاً تجارياً واسعاً بين العالم الاسلامي والصين وبين اسكندنافية(٣).

فكانت القوافل الكبيرة تنطلق من خوارزم(٤) قاصدة شواطىء الفولغا

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى (٤/٤٦٨).

(٢) مؤلف مجهول، مخطوطة عجائب الدنيا وما فيها من الجزائر والعجائب والملوك والكهان والأهرام (ورقة a ٥٨) و(٦٤ b) المخطوط منسوب خطأ للمسعودي (ورقة ٧٥) في مكتبة حسين جلبي، مدينة بورصه، جغرافيا رقم ١٨. ويبدو بينه وبين ابن الوردي تشابه كبير. أورد ابن أبي عذيبة هذه المعلومات بتعابير تكاد أن تكون متماثلة. راجع مادة الصقالبة في تاريخ دول الأعيان (مخطوطة أسعد أفندي/استانبول ٢٣٠٦) الجزء الأول ورقة ١٠٠.

(٣) Prof. A. N. Kurat, Turk Kavemleri ve Develetleri 1972, s.30-31.

(٤) يطلق اسم خوارزم على بلاد تقع على ضفتي حوض جيحون (اموداريا (Oxus) الأدنى، وعلى قوم من أقوام شرقي ايران. عاش هناك واحتفظ بلغته الخاصة حتى القرن الثالث عشر الميلادي، راجع: Document on Kuorezmian Culture Edited by: Z.V. Togan 1st. 1951.

وخوارزم لها اسمان: خوارزم وكاث. الثعالبي: لطائف المعارف، ص ٨٩.

ومنها تتجه إلى سواحل البحر الأسود مارة أيضاً من حوض الفولغا (الأسفل) وسنذكرها بتفصيل في موقعه.

البلغار:

يقال بلكار[1]، البلغر[2]، ويقال أيضاً، برغر[3] وبرغار وبلار ويقال أيضاً بلكاف بالكاف الفارسية[4].

حدود البلغار:

جاء في الاعلاق النفيسة: «بلكار متاخمة لبلاد برداس، وهم نزول على حافة النهر الذي يصب في بحر الخزر. وهم بين الخزر والصقالبة» (ابن رسته،

---

(١) ابن رسته، كتاب الاعلاق النفيسة، ص ١٤١، المنجم، آكام المرجان، ص ٣٨.

(٢) ابن عبدالبر القرطبي: القصد والأمم، ص ٣٨. مؤلف مجهول؛ عجائب الدنيا وما فيها من الجزائر والعجائب والملوك والكهان والأهرام، ورقة ٦٤. سيرد تعريفه في موضوع المصادر.

(٣) البكري القرطبي (ت ٤٨٧)، المسالك والممالك، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب ـ بغداد، رقمه ١٢٦٠، الجزء الثاني، ص ١٤٩.

(٤) م. الرمزي، تلفيق الأخبار، ص ٢٦١. إن أكثر المؤلفين يذكروهم بعبارة (بلغار): البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٤١، وغيره كثيرون.

أما إسم (برجان) فقد ذهب عدد من الباحثين أن البرجان هم البلغار. ولكن يبدو من مراجع غير قليلة أنهم غير بلغار الفولغا. وعندما يذكر المسعودي أسماء عدد من الأقوام يذكر بينها تعبير (البرجان) والبلغار كلا على حدة (التنبيه والاشراف: نشره عبدالله الصادي ١٩٣٨، ص ١٦٢). وجاء في المعرب للجواليقي: (برجان) اسم أعجمي وقد تكلمت به العرب. قال الأعشى: من برجان في الناس رجح. (الجواليقي ٤٦٥ ـ ٥٤٠ هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة ١٣٦١، ص ٧١. وفي ياقوت: برجان بلد من نواحي الخزر. وكان المسلمون غزوة في ايلم عثمان (رض). فقال أبو نجيد التميمي:

بدأنا بجيلان، فزلزل عرشهم كتائب تزجى في الملاحم فرسانا
وعدنا لا شبان بمثل غدانهم فعادوا جوالي بين روم وبرجانا

١/ ٣٧٣.

نفس المصدر ١٤١). ويقول البيروني: «ولا نعرف أمة مسلمة منقطعة عن بلاد الاسلام غير (يلغار) و (سوار) وهم بالقرب من منقطع العمران، ونهاية الاقليم السابع (البيروني. ت ٤٤٠ هـ، الآثار الباقية، ص ٤١).

يقول الدمشقي: «إنها الأقليم السادس... ابتداء من المشرق مساكن الترك المشارفة وهم (الخرخيز والغرفر والكيماك والتغزغز) ويمر على بلاد البلغار المسلمين وبلاد الخزر من شمال بحرهم (الدمشقي: نخبة الدهر. ص ٢١). ويبدو أن بلادهم كانت محاطة بمضارب عدد من الشعوب وفي تقويم البلدان «إن على يمين بلاد البلغار في نحو الجنوب مملكة الكاساق أمة بين الأبخاز وبين اللان ثم يصير على يمين بلاد البلغار. وفي الجنوب مملكة اللان إلى آخر حد البلغار ثم يتصل بعد ذلك من نحو الجنوب بمملكة الخزر وهو آخر حد البلغار لافضائه إلى أمة يقال لها المروسية، جيل من البلغار شداد (تقويم البلدان، ص ٢٠٧).

يختلف الباحثون الحديثون ذوي الاختصاص حول حدود بلاد البلغار فيقول أحدهم: «إنه بالرغم من الحملات الدائمة والخاطفة التي تتعرض لها بلاد البلغار، فإن هذه البلاد كانت تترامى في أراضي واسعة جداً من جبال أورال حتى نهر أوكا، ومن دوينا (Dvina) في (Ustgug) حتى شواطىء الدون ومسامارا وذلك عندما كانت الدولة في أوج عزها واقتدارها»[1].

ويرى صاحب كتاب تلفيق الأخبار وهو من سكان المنطقة القريبة من البلغار ومن المختصين بتاريخهم: «كانت حدودهم خلال أغلب الأحيان من الشرق، جبال أورال ونهره، وغربا تمتد بلادهم إلى ملتقى أوكا وولغا».

وقد رأى المستشرق المعروف بارتولد: إن نفوذ البلغار كان يمتد خلال

---

(١) Rasongi, Tarihte Turklulur Anpara, 1971, s. 94.

القرون الحادي عشر ـ الثالث عشر ميلادي: من ويليكي اوسيتوك إلى جنوب (ساراتوف) ومن (موروم) إلى حدود أوكا[1].

والخلاصة أنهم كانوا شمالاً من مملكة الخزر، وتمتد أراضيهم في أواسط نهر الفولغا وحول التقائه بنهر كاما.

أصلهم وبداية حكمهم في هذه المنطقة:

البلغار اسم شعب لا يعرف أصلهم على وجه التحقيق. فقد شكلوا في مطالع العصور الوسطى دولتين: الأولى على الفولغا والثانية على الدانوب فإن أقدم وثيقة مكتوبة عنهم هي ما ذكرها (Mar Abas Katinu) السوري العربي الذي عاش في القرن الثالث الميلادي. ويرى أن البلغار كانوا موجودين في شمالي قفقاسيا خلال سني ١٢٧ ـ ١٤٩ ق.م. ونقل هذه الرواية المؤرخ الأرمني (Moisey Khoren) من القرن الثامن، وهذه الفترة الطويلة من الزمن بين الاثنين مدعاة إلى الشك في صحة الوثيقة[2].

تدور حول أصل البلغار آراء متعددة، وأن بداية تشكيل دولتهم أمر يلفه الغموض. فلا نعرف عنهم أين كانوا يعيشون في قديم تاريخهم؟ وإلى أية قبيلة ينتسبون؟ ومتى عرفوا في مجال التاريخ؟ ومتى جاءوا إلى أطراف بحر آزوف؟

جاء في الطبعة الحديثة من دائرة المعارف الاسلامية: أن البلغار وصلوا إلى سهوب روسيا الجنوبية مع الموجات الهونية. وورد اسمهم لأول مرة لدى

---

(١) بارتولد في مادة البلغار ـ دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية، ص ٦٧ وجاء في الترجمة التركية لدائرة المعارف الاسلامية: كان يحدها من الشرق (Susmek) من الجنوب (Kinel) ومن الغرب تمتد إلى ما وراء (Züye) ومن الشمال نهر قازان. وكانت في هذه المنطقة أقوام أخرى غير البلغار من (فين ـ أوغر) يعيشون متفرقين في الغابات دون كيان سياسي أو تطور ثقافي كبير.

(٢) A.N. Kurat, Turk Kavimberi ve Devletleri, s. 108.

(Joannes Antioch) عام ٤٨١ م حين ساعدوا الامبراطور (Zeno) في حربه ضد الغوط. وكان مستقرهم على مقربة من نهر كوبان وبحر آزوف[١].

ويرى كروسيه: أنهم ينتسبون إلى الهون من جماعة (Kutrigur). وفي عهد ملكهم كوبرات خان أسس البلغار دولة قوية في الربع الثاني من القرن السابع ميلادي في الشمال الغربي من قفقاسيا بين كوبان وبحر آزوف، وبعده قسّم البلغار إلى قسمين: الأول بقي بقيادة (Bayan) في نفس المنطقة واعترفوا بسيادة الخزر. وتوجه القسم الثاني نحو الغرب بقيادة (Asparuh) أحد أبناء كوبرات، وفي عام ٦٧٩ م عبروا الدانوب واستقروا في (Mezya)[٢].

وقال آخر عن البلغار: «إنهم من قبائل تركية هاجرت نحو الشمال من منطقة بحر آزوف أثناء منتصف القرن السابع ميلادي وذلك عندما أقام الخزر دولتهم في تلك المنطقة. وإن قسمًا آخر من البلغار اتجهوا نحو شبه جزيرة البلقان»[٣].

ويمكننا تلخيص آراء أحدث المؤرخين بما يلي:

أظهرت البحوث الأركيولوجية في مناطق من شمالي آسيا أن أقدم اتصال للبلغار يرقى إلى أوسون وهؤلاء عاشوا على سفوح تيان شان في أواخر القرن الثالث ق. م.

وكانوا خلال فترة الميلاد يعيشون في غربي سيبريا فتحولوا نحو حوض

---

(١) الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية. مادة بلغار. ويذكر بارتولد في الطبعة القديمة: «إن اسم البلغار ورد لأول مرة في القرن السادس الميلادي في التاريخ الكنسي لزكريا الخطيب حوالي ٥٥٥ م بين قبائل القوقاز. ويذكر يوحنا الأنسوس حوالي ٥٨٥ م قصة فيها اسم البلغار، ص ٨٨ وما بعدها. مادة (بلغار).

(٢) Grousset, op.cit. 172-173.; Ogel, Islamiyetten Önce Türk Kültürü, 1962. s. 240.

(٣) The New Enc. Brit. Vol. II Micropedia.

الفولغا. وكانوا قد شاركوا في موجات الهون الضخمة خلال القرنين: الثاني والثالث[١] ميلادي.

ومن جراء موجة الهون (Huns) (أو Hsuing عند الصينيين). سكنت القبائل: المجر، البلغار، أفار (ابر: في المراجع العربية) (Anars) المغول، الترك، التتر، في غربي آسيا وشمالي البحر الأسود[٢].

«ولقد ظهرت تحولات أساسية في آسيا الوسطى جراء قيام دولة كوك ــ تورك (الأتراك الزرق) في ٥٥٢ م. وكانت السهوب الأوروبية الشرقية في القرن السادس الميلادي تابعة للمملكة التركية البدوية الضخمة، شأن سهوب آسيا الوسطى، إلى حدود الصين[٣].

ومن المحتمل أن قسماً من البلغار شوهدوا في شمال قفقاسيا سنة ٥٥٥ م. وتركوا ضفاف كوبان وأخذوا يتجولون في فولغا الأوسط. ويلاحظ أن تحول البلغار إلى الشمال كان تحت تأثير الخزر.

ويفهم من الروايات أن حكم إمبراطورية (كوك ــ تورك) استمر في البلقان حتى ٦٣٠م. وفي عام ٦٥٦م. انهار القسم الغربي من هذه الإمبراطورية. وعلى أثرها نشأت دولة بلغاريا الكبرى أسسها (Kubrat) ابن (Organa) من سلالة (Dulu).

---

(١) البلغار الأوائل قازان:
A.N. Kurat, Op.Cit., apud: B.F. gening-A.Kh, Khalikov, 1904.

(٢) A.E. Boak and Others, The Grouth of European Civilization, Vol.I, New York, 1947, p.142.

(٣) بارتولد، في دائرة المعارف الإسلامية السابقة. مادة بلغار. راجع عن خاقانية كوك ــ تورك.
L.Kafesoglu, Turk milli Kulturu, S19-22.
وكتاب (الترك في مؤلفات الجاحظ) للأستاذ زكريا كتابجي، بيروت، ص ٤١.

وفي هذه الأثناء، تعالى نفوذ إمبراطورية الخزر، وزاد الضغط على مجموعة البلغار المعروفين بـ(Kutrigur) الذين تدفقوا نحو البلقان عام ٦٧١ م. بقيادة (Asparuh) فأسسوا دولة بلغار الدانوب عام ٦٧٩ م.

والمجموعة الأخرى من البلغار كانت تعرف بـ(Otigur) فإن أفرادها ظلوا مستوطنين على ضفاف كوبان، ودخلوا في صلات حسنة مع قوم يعرفون بـ(اللان) كانوا يعيشون في شمالي قفقاسيا. ومن المحتمل أن هذه الصلات أدت إلى تأثر البلغار ببعض المؤثرات الثقافية. أما الكتلة الأساسية الضخمة من البلغار فإنها توقفت عند الفولغا الأوسط تحت تأثير ضغط الخزر أيضاً. ومن المحتمل أن الحادث كان في أواخر القرن السابع أو الثامن الميلاديين[1].

كانت تسكن في هذه المنطقة خلال ١٠٠ ــ ٣٧٠ م قبائل من الهون، تلتها أقوام (السابير) من سيبريا الغربية خلال القرن الخامس الميلادي، ولعل إسم مدينة (سوار) و(Simbir)، (Simbrisk) المعروفة حالياً بـ(Ulyanovsk) لهما علاقة بهؤلاء القوم.

وبالإضافة إلى هذه الشعوب فقد كانت في المنطقة شعوب أخرى ترجع إلى أصول (Fin-Ugor) والتي كانت تنقسم إلى ثلاث مجموعات:

١ ــ الجرميش (The Cheremiches Udmurt).

٢ ــ آر (ماري) (Ar Mari).

٣ ــ موردواز (The Mordwas Burtas, Moksha).

وإذا توجهنا نحو الشمال من هذه المنطقة كنا نلتقي بشعوب ترجع هي الأخرى إلى أصل ألفين ــ أوغر منها: فوتياك (أقرباء جماعة آر) (Votyak)

---

(١) A.N.Kurat

و(زيريان) (Zyryans). وكانت تسكن الجهات القريبة من (البحر الأبيض) جماعات تعرف بـ(ويسو) (Viso).

لقد كان السكان القدماء من: ماري، وموردواز، وآر، مضافاً إليهم أقوام آسيوية أمثال: سوار وهون وسابير، يكونون الأكثرية. إلَّا أن النسبة العددية للسكان قد تغيرت بحلول القرن الثامن ميلادي فتحولت جهة الفولغا الأوسط إلى منطقة بلغارية.

تعتبر فترة الثلاثمائة سنة من تاريخ البلغار ـ أي منذ استيطانهم في حوض الفولغا الأوسط حتى نهاية القرن التاسع ميلادي ـ فترة غامضة، وما نعرف عنها لا يتعدى أنهم سكنوا في مواضع متعددة وأخضعوا إلى نفوذهم جماعات من الفين ـ أوغر وأخرى تركية، وكذلك اتخذوا لهم مواطن غدت من بعد ذلك مدناً كبيرة لهم.

انتقل البلغار إلى حياة الاستقرار وممارسة الزراعة، وامتهنوا التجارة فكانت تجارتهم نشيطة وعلى نطاق واسع، فنشأت لهم بالتالي مدن عديدة كمدينة (بلغار) وموقعها جنوباً من ملتقى كاما ـ فولغا حوالي ١٠٠ كم، وعلى بعد ستة كيلومترات من شرقي الفولغا فكانت مدينة بلغار قاعدة حكمهم وأهم مركز تجاري لشرقي أوروبا خلال القرن التاسع ميلادي بل استمر نشاطها حتى القرن الثاني عشر ميلادي.

كان البلغار يدفعون ضرائب للخزر فترة من الزمان، بيد أنهم كانوا يستعيدون استقلالهم بين الفينة والفينة كلما كان يدب الضعف في أوصال دولة الخزر. تصاعد نفوذ الخزر نحو الفولغا الأوسط خلال القرنين: الثامن والتاسع ميلادي. وفي القرن العاشر بدأ البلغار يدفعون إليهم أتاوات من جلود السمور تجمع من البيوت..

ومما لا شك فيه، أن الصلات التجارية للبلغار مع الخزر وغيرهم أخذت تنمو وتتسع. وعن طريق هذه الاتصالات أخذ الدين الإسلامي ينتشر بين جماعة

البلغار. وعندما حل القرن التاسع الميلادي صار لهذا الدين أرضية صلبة في هذه البلاد. ولما اعتنق الخزر الدين اليهودي، بقي البلغار متعلقين بدينهم الإسلامي الذي حال دون وقوعهم تحت السيطرة الخزرية الكاملة.

وكان إسلام البلغار، حدثاً عظيمًا في تاريخ المنطقة لأن حوض الفولغا الأوسط قد تحوَّل به إلى قطر إسلامي[١].

إسلام البلغار:

يرى عدد غير قليل من المؤرخين القدماء بأن الدين الرسمي للبلغار غدا إسلامياً في زمن ملكهم (المش)، فإذا كان مؤلف ابن رسته مكتوباً قبل عام ٢٩١ هـ/٩٠٣م، وأن الملك المش تولى الحكم في بداية القرن العاشر، فيتطلب عندئذٍ القول بأن الدين الإسلامي انتشر بينهم قبل هذه الفترة.

يقول ابن رسته: «ملابسهم شبيهة بملابس المسلمين، ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين»[٢] يرى المسعودي[٣] (٢/٢٠٥) أن ملك البلغار أسلم زمن الخليفة المقتدر بعد سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م. بينما يبدو من رسالة ابن فضلان بأن القسم الأكبر من السكان كانوا مسلمين في عام ٣١٠ هـ/٩٢٢م، بذلك يبدو أن الإسلام ترسخ هناك في أواخر القرن التاسع الميلادي. فيقول ابن فضلان: «إذا مات المسلم عندهم أو زوج المرأة الخوارزمية غسَّلوه غسل المسلمين»[٤].

---

(١) البروفسور كورات، نفس المصدر، ص ٤٦٤ ــ ٤٦٦.

(٢) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١، ص ١٣٢.

(٣) المسعودي، مروج الذهب ٢/٢٠٥، ط. داغر. ويقول كان لملك البلغار «ولد حج، وورد مدينة السلام، وحمل معه للمقتدر لواء ونبورا ومالاً... والبرغرامة عظيمة منيعة شديدة البأس، ينقاد إليها من جاورها من الأمم (١/٢٠٤) والفارس ممن قد أسلم مع ذلك الملك يقاتل المائة من الفرسان والمائتين من الكفار، راجع: الجزء الأول، ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥.

(٤) ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص ١٧٠.

ورد في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الجديدة)، وكذلك في رأي الأستاذ بوزورث بأن البلغار اهتدوا إلى الإسلام في مطلع القرن الرابع (العاشر الميلادي)[1].

ويقول ياقوت: «وكان ملكها وأهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله. وأرسلوا إلى بغداد رسولاً يعرفون المقتدر بذلك، ويسألونه إنفاذ من يعلمهم الصلوات والشرائع. لكني لم أقف على السبب في إسلامهم»[2].

ومما لا شك فيه، أن الصلات الوثيقة بين التجار البلغار مع الخوارزميين وغيرهم[3]، أو مع التجار المسلمين في منطقة السامانيين عملت على نشر الإسلام بينهم. هذا، مع العلم أن الخوارزميين سبق لهم أن كونوا مستوطنات في بلاد البلغار[4].

وخوارزم على بعدها من قلب العالم الإسلامي، كانت خاضعة للتأثير العقلي الإسلامي، وكانت هذه البيئة (خوارزم) تتسم بنشاط في مختلف الميادين يصورهالنا المقدسي(٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) إذ يصف أهل خوارزم بأنهم «أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب، وقلّ إمام في الفقه والأدب والقرآن لقيته إلاّ وله تلميذ خوارزمي»[5].

بذلك من الممكن القول إن قسمًا من البلغار كانوا على دين الإسلام قبل أن تصلهم بعثة المقتدر ٣١٠هـ/٩٢٢م، إلاّ أن عدد المسلمين بدأ يزداد عام

---

(١) The New Enc. Brit. mic. p.358.
مقالة الأستاذ بوزورث في (تراث الإسلام) القسم الأول، ط. الكويت، ص ١٧٨.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ط. أوروبا ٧٣٣/١.

(٣) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص ٣٣٢.

(٤) Z.V. Togon, Documents, p.17.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥. وجاء في المسعودي وهم من نوع من الترك، والقوافل متصلة بينهم وبين بلاد خوارزم. مروج الذهب ٢٠٤/١، ط. داغر.

٩٠٠م واعتنق خان البلغار (المش) الإسلام، فراجع الخليفة العباسي المقتدر بالله(١). يقول البكري القرطبي (ت٤٨٧هـ): «وملكها الآن مسلم أسلم بعد العشرة والثلاثمائة برؤيا رآها أيام المقتدر»(٢). يقول ابن فضلان: فبعث الخليفة وفداً وصل إلى بلاد البلغار ــ ويدعوهم خطأ بالصقالبة ــ أسلموا قبل ذهابه إلى بلادهم. ويقول ما نصه: «وأخرجت كتاب الخليفة، . . . وبدأت فقرأت صدر الكتاب، ولم يزل الترجمان يترجم لنا حرفاً حرفاً، فلما استتمنا قراءته كبّروا تكبيرة ارتجت لها الأرض»(٣).

ويقول في موضع آخر ما نصه: «وكان يخطب لملك البلغار قبل قدومي «اللهم واصلح الملك بلطوار ملك بلغار» (ص ١٤٧). ويبدو أن إسلام العائلة المالكة كان قبل ابن فضلان بفترة قصيرة لأن الملك بلطوار قال لابن فضلان: «إن أبي كان كافراً ولا أحب أن أذكر اسمه على المنبر، وأنا أيضاً فما أحب أن يذكر اسمي، إذ كان الذي سماني به كافراً»(٤).

ومن الممكن القول، إن دولة البلغار دخلت في حوزة الحضارة الإسلامية في مطلع القرن الرابع هجري (العاشر ميلادي). ولما كان الإسلام يحمل نظماً حضارية راقية فإن اعتناق البلغار للإسلام جعل منهم أكثر شعوب أوروبا الشرقية حضارة وكنتيجة

---

(١) أبو الفضل جعفر بن المعتضد. بويع له يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين. راجع عنه: ابن دحية (٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م)، تاريخ خلفاء بني العباس. الورقة ٩٧ ــ ١١١، مخطوطة مكتبة نور عثمانية رقم ٣١١٦، نشره المرحوم عباس العزاوي في بغداد. وراجع عنه الورقة (٧٣)، من مخطوطة (تاريخ دولة عباسية)، مكتبة ولي الدين أفندي/في مكتبة بايزيد.

(٢) البكري، المسالك والممالك. الورقة ١٤٩، من مخطوطة في مكتبة الدراسات العليا، رقم ١٢٦٠.

(٣) ابن فضلان، ص ١٤٤.

(٤) ابن فضلان، ص ١٤٧.

طبيعية لهذا الحدث، زادت الصلات بين البلغار والعالم الإسلامي، وغدت بلغاريا ممثلة للإسلام في شرقي أوروبا فأنشئت المساجد، وتأسس القضاء وأخذت الكلمات العربية تنتشر انتشاراً واسعاً.

وقبل أن نترك هذا الموضوع، من الطريف أن نذكر مايقوله الرحالة الأندلسي أبوحامد الغرناطي في تحفة الألباب: ذلك أن رجلاً صالحاً دخل بلغار فاستطاع معالجة ملكها وزوجته وكانا مريضين مأيوسين من الحياة ودخلا في الإسلام وأسلم أهل تلك البلاد معهما، وساعد أيضاً في حربهم ضد الخزر وانتصروا عليهم فكان ذلك الرجل (بلار) فعربوه وقالوا بلغار. هكذا ذكر القاضي البلغاري في تاريخ بلغار وكان من أصحاب أمام الحرمين[١].

تذكرهم المراجع الإسلامية على أنهم شعب من الأتراك أسسوا دولتين: الأولى على الفولغا، والثانية على الدانوب في مطالع القرون الوسطى[٢] غير أن عدداً من هذه المراجع لا تذكر عنهم شيئاً ولا تحسبهم ضمن أصناف الترك[٣].

أخذ البلغار بعد إسلامهم يتجهون نحو أداء فريضة الحج. ففي عام ٤٣٣ هـ/١٠٤١م، وصلت جماعة منهم إلى بغداد يريدون الحج، فأقيم لهم إقامات وافرة فاستعانوا بها وسألهم سائل من أي الأمم أنتم؟ وما البلغار؟ فقال

---

(١) أبوحامد الأندلسي، تحفة الألباب، نشره (Ferrand) باريس ١٩٢٥. ص ٢٣٧. أما كتاب القاضي البغاري فمفقود.

(٢) دائرة المعارف البريطانية، نفس الطبعة.

(٣) شرح منهج البلاغة، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ١٩٦٠، الجزء الثاني، ص ٢١٩. بدر الدين العيني (ت ٨٥٥/١٤٥١)؛ السيف المهند، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٦٧. ص ١٩ ــ ٢٦، وللمؤلف نفسه، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر. تحقيق هانس أرنست، القاهرة ١٩٦٢، ص ٤ ــ ٥.

قوم متولدون من الترك والصقالبة[1] وبلدهم أقصى الترك وكانوا كفاراً فأسلموا من قريب، وهم على مذهب أبي حنيفة[2]، ومنهم من هو على مذهب الإمام الشافعي، وفيها جوامع لكل قوم[3]. وقد ظل البلغار حنفيين يؤكد ذلك كتاب (حدود العالم) وكان لهم أثر حاسم في إسلام القبائل التركية الرحالة[4] مثل الباشقر (والقومان)[5].

---

(١) الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٦٣، توجد عن الصقالبة معلومات واضحة في مخطوطة (تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة نظم الجمان في ذكر من سلف من أهل الزمان) في خمسة مجلدات. لابن أبي عذيبة (ت ٨٥٦ هـ/١٤٥٢ م) المخطوطة في مكتبة أسعد أفندي رقمها ٢٣٠٦. قال ناظم القصيدة المسماة بنظم الجمان:

كـذا الخـطا والـتـرك والصـقـالبـة ومن حـوت تلك الـبراري النـائيـة
وكـم بهـا مـن لـغـة ومملـكـة ومـن جموع لم يملوا الحـركـة

وخمسة أبيات أخرى تدور حول تمرسهم بالحروب. ويقول أحمد بن محمد بن عمر القدسي الشهير بابن عذيبة: إني لما وقفت على القصيدة المسماة بنظم الجمان... أحببت أن أضع عليها شرحاً لطيفاً... الخ، الورقة ٩٨. يقول في شرحه عن الصقالبة (السلاف). وأما الصقالبة: «فهي أمة كثيرة وهم من ولد يافث بن نوح وهم في ناحية الشمال ولهم بحر حلو يجري من ناحية الشمال. ولهم بحر آخر يجري من الغرب إلى الشرق. وبحر آخر يجري من ناحية البلغار. وليس لهم ملح لأن بلادهم بعيدة عن الشمس. ومنهم نصارى ومجوس وعبدة أوثان. ولهم مدن كثيرة وقلاع وهم أجناس منهم: لبنانه، وامطيرانه، ومفتاي، وسريين وناجين وهؤلاء الجنس يحرقون موتاهم وجميع ما خلفوا. وجرو ابن وحناحين وحسابين أمم لا تحص ولكل جنس منهم ملك» ورقة ١٠٠.

(٢) بغبرس المنصوري الناصري الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء السابع ورقة ٩٨ مخطوطة في مكتبة فيض الله أفندي. الرقم ١٤٥٩.

(٣) القزويني، آثار البلاد، ص ٥٩٩.

(٤) يقول بارتولد في مقالته الموسومة (المسيحية في آسيا الوسطى حتى الفتح المغولي) «كان المذهب الحنفي سائداً في المناطق التابعة للسامانيين بينما يسكنها شمالاً أتباع المذهب الشافعي ولم يكن هذا حائلاً دون انتشار الحنفية بين الأتراك المجاورين» نشرت ترجمة المقالة من الروسية مجلة (Tur macmuase)، العدد الثاني، ص ٦٩.

(٥) الأصطخري، المسالك والممالك. تحقيق محمد جابر الحسني. مصر ١٩٦١ ويسميهم (بسجرت) ولا يذكرهم مسلمين، ص ١٣١.

تاريخ البلغار في الإسلام:

يذكر ابن فضلان إسم الملك البلغاري (المش بن شلكي بلطور) وذكره ابن رسته محركاً بـ(المش)، وفي الغرديزي (املان) وفي حدود العالم ذكر اسم الملك على (مس Ms) وقرأه بارتولد حديثاً على شكل (Barman)، أما (Vasmer)[1] فقد أورده على صورة (Baltvar) على اعتبار أنه لقب لملوك البلغار، أو (Yltvar).

لقد ورد في البيهقي (ط. حيدرآباد. ص ٩٢)، على أنه اسم شخص. درس المستشرقون هذا الإسم فقد تناوله (Frahn) وغيره وحاولوا توضيحه. يقول ماركات (Marquart)، (Strifzuge) بأنه اسم شخص وهو على شكل (Alp-ilatvar). ويقول آخر أنه لقب وينبغي أن يقرأ (Bektuvar) أما البروفسور (Togan) فقد جمع بين رأي ماركات وملاحظات (Poppe) في اللغة الجواشية وقال بأنه لقب تركي قديم وشكله (elteber) الجواشي (Yaltabar)[2].

اعترف البلغار في عهد المش بسيادة الخزر. وكان ابنه رهيناً عندهم، لكنه كان مستقلاً في شؤونه الداخلية والخارجية يدل على ذلك إرساله وفداً إلى الخليفة العباسي واستيفاء البلغار ضريبة كمركية من السفن القادمة من بلاد الخزر كما

القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت ١٩٦٠ ويقول باشغرت، جبل عظيم من الترك بين القسطنطينية وبلغار. وحكى فقيه من باشغرت: أن الغالب عليهم النصارى وفيهم جمع من المسلمين على مذهب الإمام أبي حنيفة. ص ٦١٠. وللتفصيل عنهم يفضل الرجوع إلى: أبو سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا. تحقيق اسماعيل العرين. بيروت ١٩٧٠. ص ١٩٤. بسط الأرض، تحقيق جون قرنيط ١٩٥٨. ص ١٢٧. وأوسع من كتب عن القبائل التركية هو البروفسور (L.Kafesoglu) في كتابه المذكور.

(١) Vasner, Uver die Munzen der Volga-Baulgarin Baltvar

(٢) الملاحظة رقم (١).

كانوا يستوفون العشر «إذا جاءتهم سفن المسلمين لتجارة»[1] مما يدل على خفة النفوذ الخزري عليهم.

استجاب الخليفة المقتدر لطلب ملك البلغار وأمر باتخاذ الإجراءات اللازمة لبناء حصن يمنعه من الخزر الذين يضايقونه[2]. فبعث وفداً وصل إلى البلغار الأحد ١٢ من المحرم عام ٣١٠هـ/١٢ من مايس عام ٩٢٢م ليحقق ما أراده الملك. فرحب المش بن سلكي وأتباعه بأعضاء الوفد، واستقبلوهم بكل إخلاص وحماس كما يفهم من رسالة ابن فضلان.

نظام الحكم والمجتمع البلغاري:

يبدو أنه كان في بلاد البلغار عدة قبائل تنتشر في أنحاء البلاد، أبرزها أربع ولكل منها حاكم، يتبعون جميعاً ملك البلغار في قاعدته مدينة بلغار. والمعروف عن هذا الموضوع أيضاً أنه كانت هناك أسرة ملكية وتقرأ الخطبة باسم الملك. أما معلوماتنا عن قائمة أسماء الملوك البلغار الواردة في المراجع العربية وعلى النقود التي عثرت عليها، فإنها ناقصة[3].

(١) ابن رسته، الأعلاق، ص ٢٤١، ودائرة المعارف لإسلامية، الطبعة التركية.

(٢) ابن فضلان، ص ١٤٨، والأستاذ (Togan) في كتابه عن الخوارزمية، ص ١٧.

(٣) نظمها الدكتور (Kurat) كما يلي:

١ ــ شلكي بلطوار (أواخر القرن التاسع؟).

٢ ــ المش بلطوار واسمه الإسلامي جعفر بن عبد الله (بداية العاشر).

٣ ــ ...؟

٤ ــ أحمد (قبل عام ٩٤٨م).

٥ ــ طالب (٩٤٨؟ ــ ٩٥٨؟).

٧ ــ حسن (؟).

٨ ــ بلطوار.

٩ ــ محمد.

١٠ ــ ابراهيم ١٠٢٤ ــ ١٠٢٥.

١١ ــ إسحق (؟).

يستوفي الملك ضرائب من جهات متعددة: وفي ابن رسته «وهم يؤدون إلى ملكهم الدواب وغير ذلك. وإذا تزوج الرجل منهم أخذ الملك منهم دابة دابة.

ويذكر ابن فضلان أن للملك ضريبة «يؤدون إليه في كل سنة من كل بيت جلد سمور» وللملك ضرائب أخرى من الولائم والأعراس (ص ١٥٨). وبالإضافة إلى ما ذكر، فإنه يستوفي جلد سمور من كل بيت لملك الخزر.

كذلك كانت السفن التجارية التي تعرج على فرضة الفولغا تدفع ١٠٪ ضريبة مكس فهي كانت على الدولة مبالغ جيدة[١] وللملك الحق أن يختار من الرقيق الوارد رأساً من كل عشرة ويقول ابن فضلان: «وكل من زرع شيئاً أخذه لنفسه وليس للملك حق فيه»[٢].

يذكر ابن رسته عن البلغار: «وهم ثلاثة أصناف: صنف منهم يسمى برصولاً والصنف الآخر أسغل، والثالث بلكاراً ومعاشهم كلهم في مكان واحد»[٣].

ويقول ابن فضلان عن السكان صنف (سوار)، وصنف أسغل[٤] ويذكر لهم في صفحات متفرقة عادات وأعرافاً.

ويبدو مما كتبه ابن فضلان أن المجتمع البلغاري كان يعمه الاختلاط بين الجنسين: «... ثم أخرجت الهدايا من الطيب والثياب واللؤلؤ له ولامرأته،

(١) (Kurat) نفس المصدر، ص ٤٧٠.
(٢) ابن فضلان، ص ١٥٨، ١٧١.
(٣) ابن رسته، نتفس المصدر، ص ١٤١.
(٤) ابن فضلان، ١٤٧، ١٤٨.

فلم أزل أعرض عليه وعليها بحضرة الناس، وكانت جالسة إلى جنبه، وهذه سنتهم وزيهم. فلما خلعت عليها نثرت النساء عليها الدراهم وانصرفنا» ص ١٤٥ ويذكر ابن فضلان السباحة في النهر ويقول «ينزل الرجال والنساء إلى النهر فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضهم من بعض ولا يزنون بوجه ولا سبب» والزنا كان عقابه القتل (ص ١٦٢). ومن طريف ما يذكر: «ولا تبكي النساء على الميت بل الرجال منهم يبكون عليه» (ص ١٧٠).

وأكثر أكلهم الجاورس[١] ولحم الدابة على أن الحنطة والشعير كثير (ابن فضلان ١٥٨)، وذكر أبو حامد الغرناطي: «وأهل بلغار أصبر الناس على البرد وسببه أن أكثر طعامهم العسل ولحم القندز والسنجاب» (ص ٢٣٧).

ويبدو من الروايات أن الملك كان يملك ثروات كبيرة. فقد ذكر ظهير الدين أبو الحسن علي البيهقي (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م) أن «الأمير أبا إسحق ابراهيم بن محمد بن بلطوار كان ملك بلغار سنة ٤١٥ هـ/١٠٢٤ م، وكانت تلك النواحي جميعها بـ(بلغر) أرسل هذا الأمير مالاً كبيراً إلى بيهق في نواحي نيسابور ليصرف على مسجد في سبزوار وخسرو جرد وبعث هدايا عجيبة من غرائب الدنيا إلى حاكم خراسان لم ير أحد ما يماثلها. فصرف هذا المال على عمار هذين المسجدين في ذلك التاريخ»[٢].

---

(١) الجاورس: راجع المرحوم سامي الدهان (تاج العروس) ونقل ما وصفه القاموس دون تحديد المعنى المرادف المعروف وهو الدخن. جاء في كتاب (البلدان) لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي المتوفي في ٢٨٤ هـ/٨٩٧م «وليس بترك أسنان زرع إلاَّ الدخن. وهو الجاورس» ص ٦٠، ط. النجف.

(٢) البيهقي، تاريخ بيهق. نشره حكم الله حسيني، حيدرآباد ١٩٦٨، ص ٩٣.

اللباس:

«ولباس الخزر ويجناك القراطق التامة»[1] والقرطق هو القباء، ذو الطاق الواحد ويقول ابن فضلان: «كلهم يلبسون القلانس»[2] (ص ١٥٩).

اللغة:

يقول الأصطخري: «إن لسان بلغار مثل لسان الخزر»[3].

ويرى بارتولد (أن لغة الترك ـ جوفاس هي الغالبة عند بلغار الفولغا)[4]، بينما ورد في كتاب صورة الأرض لابن حوقل «... ولسان الخزر غير لسان الترك ولسان الفارسية ولا يشاركهم في لغتهم لسان من ألسنة الأمم» (ص ٣٣٢).

الزراعة والصناعة:

ظل البلغار فترة من الزمن يرجعون إلى خيامهم في الصيف والربيع جرياً على أعرافهم القديمة. غير أن ملاءمة المنطقة للحياة الزراعية شجعتهم على

---

(١) الأصطخري، ص ١٣٢.

(٢) قرطق: لباس شبيه بالقباء. جمعه قراطق. يقول ابن المعتز: ومفرطق يسعى إلى الندماء بعقيقة في درة بيضاء (الخفاجي، شفاء العليل ١٩٥٢، ص ٢٠٨. أما القلنسوة فهي من لباس الرأس وتتميز بأنها كانت تتدرج إلى طاقية صغيرة (صلاح حسين العبيدي الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي. بغداد ١٩٨٠، ص ٦٢).

(٣) الأصطخري، ص ١٣١، نقل عنه ابن حوقل في ص ٣٣٥.

(٤) باروتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ٦٦. وأحدث ما ظهر عن لغة الخزر مقالة:

Némth Das Volga-Bulgarische Wort Bagsi Geleyhrter. Herr'in Ungarn.

مجلة معهد الدراسات الإسلامية، استانبول ١٩٧٣، العدد ١٤، ص ١٦٥ ـ ١٧٠.

الزرع والاستقرار، وصاروا قوماً لهم زرع وحراثة يزرعون الحبوب من الحنطة والشعير والدخن وغير ذلك(١).

لم يعد البلغار مزارعين أكفاء فحسب إنما أجادوا تربية الحيوانات وأحسنوا صناعة الفرو، وصناعة الجلود بوجه عام. فقدت عاصمتهم (بلغار) أهم مركز تجاري في شرقي اوروبا خلال القرون: من (٩ــ١٢م)(٢).

اشتهرت بلاد البلغار خلال العصر الوسيط بثرواتها الزراعية والحيوانية. وعندما أصاب قحط بلاد الروس عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م استعان الناس بالمواد الغذائية المتوفرة في أراضي البلغار.

وذكر ابن فضلان فاكهة تشبه نوعاً من الرمان الذي لا نواة له وذكر تفاحاً أخضر شديد الحموضة وكان البندق على شكل غابات واسعة(٣) وكان لديهم العسل الكثير ويشربون معه النبيذ، وكانوا يستخدمون دهن السمك بدلاً من الزيوت(٤).

إن اكتشاف قلائد زجاجية وأنواع الصحون في مدينتي (بلغار) و(سوار) يدل على صناعة زجاجية متقدمة. كذلك هناك دلائل على أن الصناعات الحديدية هي الأخرى كانت متطورة لدى البلغار وكذا كانت صناعة الجلود، فكانت الجلود البلغارية مشهورة بين البضائع الداخلة في التجارة ورائجة في الأسواق الروسية(٥). يقول بارتولد: إنها كانت تصدر الجلود والفراء ومقادير كبيرة من العسل، وتطورت بعد ذلك الدباغة، وصارت النعال والأحذية من

---

(١) ابن رسته، ن.م، ص ١٤١.

(٢) (Kafesoglu) قسم البلغار.

(٣) ابن فضلان، ص ١٥٧.

(٤) ابن فضلان، ص ١٥٩.

(٥) (Kurat)، ٧٥ ٤٥.

أهم ما يصدر من بلاد البلغار إلى المسلمين، وعن البلغار أخذ الروس صناعة الدباغة[1].

مراكز المدن الكبيرة:

بلغار: أبرز مدن البلغار كانت (بلغار) هي العاصمة. ورد ذكرها عام ٣٣٦هـ/٩٧٦م[2]. ومع إطلالة عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م كانت بلغار مدينتين (بلغار) و (سوار)[3]. وفي حوادث عام ٤٦٠هـ/١١٦٤م ذكرت مدينة (بلغار) على أنها قاعدة كبيرة فيها جوامع وحمامات وخانات للقوافل. يقول الأصطخري: «وفيها مسجد جامع، وبقرب مدينة أخرى تسمى (سوار) فيها أيضاً مسجد جامع. وأخبرني من كان يخطب بها بأن مقدار عدد الناس بهاتين المدينتين نحو (١٠) آلاف رجل ولهما أبنية خشب يأوون إليها في الشتاء وفي الصيف يفترشون في الخركاهات[4]. ويذكر أبو حامد الأندلسي: «إنها مدينة عظيمة مبنية من خشب الصنوبر، وسورها من خشب البلوط، وحولها من أمم الترك ما لا يعد ولا يحصى»[5] وجاء في كتاب المقدسي: «بلغار ذات جانبين، بنيانهم خشب

(١) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، الترجمة العربية، ص ٦٧.

(٢) (IE) نقلاً عن: (N. Kalinin) ص ٢١، تاريخ التتر.

(٣) (Enc. Brit)

(٤) الاصطخري، نفس المصدر، ص ١٣٢.

خركاه: بالكاف الفارسية. خر باللغة البهلوية الطيب المعتدل (فرهنك آنندراج ١٦٣٨/٢ وخركاه بمعنى الخيمة على اعتبار أن الخيمة أيضاً موضع لطيف (فرهنك غياث اللغات، تأليف غياث الدين رامبوري، نشره محمد بيرسيافي، ص ٣٨١. ويقول المرحوم مصطفى جواد: أنها ضرب من الخيم المدورة ومنهم من يسميها «الخرقاهه» (التراث العربي ٢٥٨/٢) لعل ابن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤) أفضل من عرفها في كتابه (البلدان)، ط. النجف ١٩١٨ حيث جاء في ص ٦٠ منه «القباب التركية المضلعة ومساميرها سيور من جلود الدواب والبقر وأغشيتها لبودة وهم أحذق قوم بعمل اللبود لأنها لباسهم».

(٥) أبو حامد الأندلسي، نفس المصدر، ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧.

وقصب، والليل قصير، والجامع في السوق... وهي على نهر (اتل)[1] وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ذكر المؤرخ الجويني بأن المدينة غاصة بالسكان لا يمكن اقتحامها[2]. وأورد أبو الفداء «بها ثلاث حمامات وأهلها مسلمون حنفية»[3].

وذكر ابن الوردي (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) «وبلغار مدينة صغيرة ليس لها أعمال كثيرة وكانت مشهورة لأنها كانت ميناء وفرصه لهذه الممالك فاكتسحها الروس واثل وسمندر في ٣٥٨هـ/٩٦٨م فأضعفتها والروس قوم بناحية بلغار فيما بينها وبين الصقالبة»[4].

ويبدو من النصوص أنها تطورت وغدت مدينة كبيرة، غير أن الظروف السياسية المتأخرة أثرت في إضعافها، إذ يقول بارتولد إنها شيدت بالآجر والحجارة وبلغ عدد سكانها (٥٠) ألفاً[5] ويؤيده يعقوبوفسكي قائلاً: «يفهم من الحوليات الروسية بأن (بلغار) كانت مدينة ضخمة وبقايا هذه المدينة قائمة قرب قرية (Balgari) التابعة اليوم لـ (Volga Uspens-Kolsine) في ناحية (Spask) بالجمهورية التترية»[6].

مدينة سوار: وهي المدينة البلغارية الكبيرة الثانية خرائبها اليوم في منطقة (Cistay) قرب قرية (Kuzneciha) على بعد ٤٠ كم في الجنوب الشرقي.

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ليدن ١٩٠٦، ص ٣٦.

(٢) الجويني (GMS XVI) ١/٢٢٤.

(٣) أبو الفداء، تقديم البلدان ١/٢٦٣.

(٤) ابن الوردي ١٣٤٩/٧٤٩، خريدة العجائب، ص ٩، أشار ابن حوقل إلى حادث سنة ٣٥٨ هـ، قبل ابن الوردي وكان ابن حوقل آنذاك بجرجان (صورة الأرض ٣٣٢).

(٥) بارتولد، نفس الكتاب، ص ٦٧.

(٦) Yakubovskey, Ibid, S. IV.

كذلك يفضل الرجوع إلى م. الرمزي، تلفيق الأخبار ١/٢٦٣.

ورد اسمها على النقود في ٣٣٧هـ/٩٤٨م وذكرها الأصطخري(١) وصاحب كتاب حدود العالم(٢). وقال المقدسي «على هذا النهر بناؤهم خركاهات ولهم مزارع كثيرة والخير واسع»(٣) وذكرها المروزي قائلاً إنه بين المدينتين مسافة يومين(٤).

ولهم مدن أخرى عدا هاتين المدينتين منها: (أوشل) على الشاطىء الأيمن من الفولغا وإزاء مصب كاما مباشرة وتعرف أيضاً بـ(اشغيل) أو (أشغيل) وكانت محاطة بسورين. ومن مدنهم أيضاً: مدينة ابراهيم وبيلر أو بولـر، وكشنه، ـونوكرات وغيرها(٥).

التجارة والعلاقات الخارجية:

لعل من أصعب جوانب التاريخ هو الكشف الواضح عن تبادل التأثيرات بين المناطق وبالرغم مما حصل في الأعوام الأخيرة من التقدم العلمي والتطور في تسهيل أساليب البحث، إلا أن البحوث الآثارية لا زالت عاجزة عن الإجابة على عدد كثير من المسائل الخفية أو المستعصية وذلك بسبب طبيعة هذا الموضوع ومنهج بحثه.

كانت الفعاليات التجارية ومسالكها في تلك العهود تقترن عادة بنشر الدين وتبادل المؤثرات الحضارية بين الأقاليم. فكانت التجارة البلغارية نشيطة جداً تمتد نحو مختلف الجهات، من إسلامية وغير إسلامية.

---

(١) الأصطخري، نفس المصدر، ص ١٣٢.

(٢) مؤلف مجهول، حدود العالم، نشره منوجهر ستوده، طهران ١٣٤٠، ص ١٩٥.

(٣) المقدسي، ن.م، ص ٣٦١.

(٤) شرف الزمان المروزي (كان موجوداً في ٥١٤/١١٢٠) طبائع الحيوان، ط. جبنورسكي، ص ٤٤.

(٥) (IE) مادة البلغار، وهي بقلم الاستاذ (Kurat).

يقول ابن فضلان عن تجارة البلغار ما نصه: «وفيهم تجار كثير، يخرجون إلى أرض الترك فيجلبون الغنم وإلى بلد يقال له ويسو»[١] وجاء في كتاب (طبائع الحيوان) لشرف الزمان المروزي (أوائل القرن السادس الهجري): «على مسيرة عشرين يوماً منهم (البلغار) نحو القطب بلد يقال له أيسو، ووراءه أمة يقال لها (يوره) وهم قوم متوحشون في الغياض لا يخالطون الناس، ص ٤٤، ويخافون شرهم. وأهل بلغار يسافرون إليهم، ويحملون من الأمتعة والثياب والملح وأشياء أخر على آلات تجرها الكلاب فوق الثلوج المتراكمة التي لا تنحسر... ويجلبون من عندهم السمور الفائق وغيره من الوبر الجيد»[٢] كذلك يقول ابن فضلان «انهم يجلبون من (ويسو) السمور والثعالب السوداء. وكان على نهر اتل موضع سوق تقوم في كل مديده ويباع فيها المتاع الكثير النفيس»[٣] اشتهر البلغار بسمورها[٤] والقماقم والسنجاب وغيره[٥]. ويبدو أنهم كانوا يهتمون بها في عاصمة الخلافة العباسية من الأنماط الحضارية لأن ابن فضلان في رحلته إليهم رأى خياطاً بغدادياً هناك كان للملك»[٦].

كانت للبلغار صلات تجارية مع قبائل الغزو القومان (القبجق) الرحالة

---

(١) ابن فضلان، ص ١٦٣ «وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم ويسو، الليل عندهم أقل من نصف ساعة (ص ١٥٥) إن الرأي الذي نقله الدكتور سامي الدهان عن المستشرق Frahn» بأن أيسو هي روسيا البيضاء وانها قرب موسكو غربي ورنك» إلا أن هذا الرأي لا يتفق مع المنطق الجغرافي في تفسير فعاليات التجارة البلغارية نحو الشمال فإن (أيسو) يبدو أنها جماعات سكناهم في جهة استونيا الحالية أو شرقاً منها بعض الشيء. أما جماعة (يورا) التي ذكرها المروزي فلعلها من سكنة غربي بحيرة لادوغا.

(٢) المروزي، ن.م، ص ٤٤ ــ ٤٥.

(٣) ابن فضلان، ص ١٦٤.

(٤) الثعالبي، لطائف المعارف، تحقيق الأبياري وزميله، مصر، ص ٢٣٥.

(٥) ابن رسته، ن.م، والصفحة.

(٦) ابن فضلان، ن.م، ص ١٥٣.

على شواطيء (Emba) وكانت لهم مستوطنات تجارية على شواطىء (Vyatka) وبلغوا حتى شمالي البحر الأبيض، كما عقدوا صلات تجارية مع (Ves)[1] ويورا كما مر بنا في روايتي ابن فضلان والمروزي.

لعب التجار العرب من جهة أخرى دوراً بارزاً في التجارة العالمية، فكانت كانتون مركزاً مهمًا للتجار العرب ويفهم من رواية المروزي أن المسلمين استوطنوا في أقاصي أرض الصين[2]. وكانوا يجلبون من أنحاء الصين: الحرير، الغضائر، الكاغد[3]، والطواويس، والسروج، واللبسود والدارصيني[4]، والعود والسمور[5]، وآلات محكمة الصنع المتقنة العمل[6].

تذكر الأخبار الصينية أن التجار العرب يأتون في كل ثلاث سنوات بقوافل محملة بالحرير من (قوجا) متجهين نحو منابع (ينيسي) يسوقونها إلى مراكز القرغيز. وكان أهل التبت أيضاً يستفيدون من نفس الطريق. وكان التجار في طريقهم يأخذون قسطاً من الراحة في منطقة (القارلوف) (خزلجية عند العرب)

---

(١) (IE) درس العالم الالماني ماركات قبائل القومان (القبجق) وبينّ أنهم برزوا في مجال التاريخ بين ١١٢٠ ــ ١١٢١. أما المراجع الروسية والبيزنطية فقد ذكرت منطقة جنوبي روسيا باسم (كومان) وهي بين الدانوب والدنيبر وخليج الدنيبر، والمنطقة بين الدنيبر والدون الأسفل (B. Ögel)، نفس المصدر، ص ٢٩٠. وراجع: أبو الفداء، تقويم، ص ٢٠٥، ويسميهم بالقامانية، وصبح الأعشى ٤/٤٥١، ٤٥٦، ٤٦٧، ٤٦٨.

(٢) المروزي، ١٦ ــ ١٧، ٦٦ ــ ٧٠.

(٣) الكاغد: كان يصنع من القطن في حدود ثمان وثمانين من الهجرة بالحجاز. وموسى بن نصير اتخذه من الكتان والقنب في الكتان والقنب في بلاد المغرب. كان ابتداء هذه الصناعة من الصيم بيد أن المسلمين طوروها وحسنوها ونشروها في الأقطار (شهاب الدين المرجاني، مقدمة كتاب وفية الأسلاف وتحية الأخلاف. ط. قازان ١٣٠٠ هـ، ص ٣٣٧.

(٤) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ٢١.

(٥) ابن خرداذبة، ن.م، ص ٧٠.

(٦) ابن الفقيه، ص ٢٥١.

وكانوا يتاجرون في المنطقة بين سميرجي وبين القسم الشرقي من سيردريا يصحبهم حراس محافظون من القرغيز خوفاً من حملات جماعات الأويغور[1]. كما اتجهت السيادة والتجارة الاسلاميتان إلى القوقاز وأرمينيا وطردت منها التجارة البيزنطية[2]. فكانت بردعة (في أذربيجان حالياً) ودربند، وتفليس، ودوين، وكنجة (حالياً Kerovabad)[3] أهم مدن هذه المنطقة في هذه الفترة، وتصدر إلى الخارج: الحرير، النسيج القطني والصوفي، السجاد، الصبغ الأحمر، دودة القز (Cochenille)[4] الفرو والفواكه، العسل، السمك، الخيول، الحمير، الخراف، فنشطت تجارتها مع مدن اوروبا الشرقية، وذهب التجار العرب إلى أعالي الفولغا وإلى الشمال الغربي فبلغوا شواطىء البلطيق بمختلف المسالك المائية. ووصلوا في الجنوب إلى الدنيير وحواليه فكان الحصول على الرقيق من الخزر، والداغستان والروس والبجنك من أسواق دربند ومن المدن القفقاسية بأعداد كبيرة أمراً ممكناً وذلك لتصديره إلى الشرق. وبجانب النشاط التجاري حدث تفاعل ثقافي فعال كما يقول الاستاذ غريكوف، خاصة في عهد الخلفاء المسلمين، حصل على امتداد الفولغا بين الشرق وبين الشعوب الساكنة في

---

(١) بارتولد، مقالة المسيحية في آسيا الوسطى، ص ٦٩.

(٢) موريس لومبار، بحوث في التاريخ الاقتصادي، ترجمة توفيق اسكندر ١٩٦١، ص ٦١.

(٣) يقول المقدسي: كورة الران ومن مدنها تفليس ودربند. أما كورة أرمينيا فمن مدنها دبيل. وكورة أذربيجان ومن مدنها أردبيل وتبريز، ويسمي هذه الكور الثلاث باقليم الرحاب، ٣٧٤ ـ ٣٦٥. ومن أشهر هذه المدن كانت مدينة دربند كانت تعرف عند المغول (بالباب أو باب الأبواب) وعند الأتراك: دميرقبو. تقع على غربي بحر الخزر وهي قاعدة منطقة داغستان من بلاد قافقاسيا. تنافس في السيطرة عليها الصفويون والعثمانية. وفي عام ١٨١٣ احتلتها روسيا نهائياً (راجع كتاب قفقاسيا وتركستان بقلم نظمي، استانبول ١٣٣٤، ص ١٩ ـ ٢١. وقاموس ش. سام ٣/٢١٢٨. ويفصل القفقاس عن أرمينية وادي كور الذي تتجمع فيه مياه أرمينية الشمالية الشرقية.

(٤) راجع حول دودة القز، الجاحظ، التبصر بالتجار، ص ١٩، ابن حوقل، المسالك، ص ٢٤٤.

سهول شرقي اوروبا حتى شواطىء البلطيق. وكانت شواطىء البلطيق أقصى ما كان يراد من تلك التجارة النشيطة[1].

كانت طريق التجار من جهة أخرى تسير من ما وراء النهر إلى دلتا خوارزم، ومن ثغر الفولغا إلى أعاليه حيث عثرت على نقود إسلامية كثيرة. ولأجل أن ندرس سبب توسع التجارة الاسلامية نحو الشمال علينا بدراسة النقود الاسلامية الكثيرة التي عثر عليها في روسيا وفنلندة والسويد والنرويج حتى الجزر البريطانية وايسلنده. وإن نسبة عالية من هذه النقود وجدت في مدينة (قازان) الواقعة في أواسط الفولغا. يقول كرامرزان هذه النقود تعود إلى القرن السابع ومطالع الحادي عشر ميلادي. ويقول كرامرز أيضاً: «من المحتمل أن التجار المسلمين لم يصلوا إلى هذه الديار لأن البلغار في أواسط الفولغا كان الغاية القصوى للتجار المسلمين[2].

غير أن الاحتمال الذي يسوقه كرامرز بددته البحوث والدراسات الآثارية الحديثة فيقول (B. Grekov): إن الفتح العربي اجتاح المناطق القفقاسية منذ ٦٤١ م وفي أوائل القرن الثامن أخذ يشمل بلاداً واسعة من أرمينيا والبانيا[4] (بما فيها دربند) وشرقي جورجيا. وبدأ الدين الاسلامي بالانتشار تدريجياً (ص ٥٧٨) وتطورت الصناعات اليدوية والتجارة في المدن في أنحاء قفقاسيا بين

---

(١) B. Grekov, Kiev Rus, Moscou, 1959, p. 584-8

(٢) ص ٣٣، والترجمة التركية (الجغرافية في الحضارة الاسلامية) (J.H kramers).

(٣) A.E.R. Boak, op.cit. 313.

(٤) البانيا: في القفقاس. كان العرب يسميها بـ(أران)، وكان الدارج (الران). تعرضت الران إلى التأثيرات الأرمنية واعتنقوا المسيحية. من بقاياهم قريتان فقط. في الوقت الحاضر احتفظتا بالبقايا اللغوية القديمة. راجع المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٥، وراجع ميورسكي:

Caucasea IV. Bulletin of the Sch. of. Or. and Af. B.H. Kurdian B.R.A.S.

كذلك راجع: Stud. 1953 Vol. XV, 1956, p. 81-83.

القرنين السابع والعاشر خاصة خلال القرن الأخير، وذهب التجار العرب إلى شواطىء البلطيق بمختلف المسالك المائية، ص ٥٨٤ كما أسلفنا. وكانوا يستوردون من الشمال: الشمع، الجلود، الكهرب، الفرو، الدهون.

كانت التجارة مع منطقة خوارزم نشيطة أيضاً إذ أن القوافل متصلة بين بلاد البلغار وبلاد خوارزم جيئة وذهابا[١]. يجلب منها الرقيق والأغنام والأوبار ولا سيما الثعالب الحمر والسود، والقسي الفاخرة، والأسماك المملحة، والرحقين (اللبن صار في وعاء خوص أو خرق ليقطر ماؤه) وكانت تحمل منها البطاطيخ[٢].

لم تكن تأتي إلى العالم منتجات منطقة السهوب فقط إنما كانت تأتي إليه من الغابات النفضية في روسيا الوسطى، ومن غابات سيبريا، وحتى من الشرق الأقصى. ويظهر ذلك بوضوح من قائمة البضائع التي أوردها المقدسي، نقتبس منها ما يلي: «السمور، السنجاب، الفاقم، فنك، الثعالب، جلد العنز، القلانس، غرا السمك، أسنان السمك (الغظ)، الكهرب، العسل، البندق، السيوف، الدروع، الرقيق من الصقالبة، الأغنام، البقر، الأرنب البري المرقش، الحديد، المراكب المصنوعة من خشب التبولا، نبات الخروع، النسور، خشب القبقب. ومقابل ذلك كانت تصدر خوارزم المنتجات الزراعية والمصنوعة بما فيها الأعناب والزبيب بكثرة والسمسم، والأغطية، وبرود، وأغطية اللحف، والديباج من نوعية تصلح للهدايا والقماش الخشن، والملابس الملونة، وأغطية لحمته من الحرير، والأقفال، والقسى التي لا يقوى على ثنيها إلا الأقوياء جداً، والسفن[٣].

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ٢/٢٠٥، ط. داغر.

(٢) الجاحظ، التبصر، ص ٢٢.

(٣) المقدسي، ن.م، ص ٣٦٤ ــ ٣٦٥.

وكذلك استفدنا من مقالة التجارة المنشورة في تراث الاسلام ــ سلسلة المعرفة الصادرة في الكويت.

لقد عمل البلغار كَحَمْلَة للحضارة الاسلامية (Kulturtrager) وهم على أغلب الاحتمال يعيشون في المدن التجارية المهمة. وكان يوجد جامع في كل مدينة تقع على طريق التجارة، وفي بعض هذه المدن كان الاسلام هو الغالب[1].

وفي أثناء القرن الثاني عشر بلغت الصلات التجارية والثقافية درجة كبيرة بحيث أن جماعات (القومان) استخدموا في جيوشهم منجنيقات يديرها أساتذة مسلمون. وفي رواية روسية تعود إلى عام ١١٨٤ بأن هؤلاء المسلمين كانوا يقذفون النيران بواسطة عدد كبير من الرجال يربو عددهم على الخمسين. وكانت المرميات سريعة الاحتراق، يشكل قاعدتها زيت البترول. ويقول العالم الروسي المشهور (P. Mecioransky) إن هؤلاء المهاجرين المسلمين كانوا من خوارزم أو من قفقاسيا. وزيت البترول كان من باكو[2].

كانت المؤثرات الحضارية تترى على دولة البلغار من مختلف أنحاء بلدان الخلافة العباسية بالرغم من بعدها الجغرافي عن هذه البلدان. فكانت هي الأخرى تتجاوب مع هذه المؤثرات وتعمل على تمهيد صلات حسنة وتعامل التجار العرب والمسلمين معاملة طيبة. ولا شك أن هذا التأثير الحضاري لم تكن واسطته الوحيدة بلاد خوارزم إنما كان يأتي من جانب قفقاسيا أيضاً. وعندما يتحدث أبو حامد الأندلسي عن مدينة (دربند) يقول: «فيها أمة يقال لهم الطبرسلان، فيه أربع وعشرون منطقة إدارية وهم مسلمون، أسلموا في زمن مسلمة بن عبدالملك لما بعثه هشام بن عبدالملك حين ولي الخلافة، فتح دربند (باب الأبواب) فأسلمت على يده أمم كثيرة. فأسكن مسلمة في دربند (٢٤)

---

(١) بارتولد، مقالة المسيحية، ص ٨٤.

(٢) Yakubovskey, s. 13.

ألف بيت من العرب من الموصل ودمشق وحمص وتدمر وحلب وسائر بلاد الشام والجزيرة[1].

ونخلص إلى القول بوجود تبادل نشيط بين القارات وعلى رأسها التبادل الحضاري كما يقول (Krader)[2]. أما مراكز الاشعاع الحضاري فكانت مدن العرب والمسلمين.

ظل الدين والثقافة الاسلاميان يتغلغلان في السهوب الأوراسية حتى أخذت قوة الروس تتصاعد في هذه البقاع واتخذ البلغار موقف الدفاع.

كان البلغار في البداية على صلة مع الروس وكان الروس بدورهم يتصلون مباشرة مع بغداد. لأن بغداد توسع سكانها في وسائل الترف، وغدت المدينة أكثر مدن العالم ثراءً[3]. مما جعل تجارها في حاجة إلى الاستيراد من جهات أخرى[4].

يقول صاحب حدود العالم: «إن كويابه (كييف) أقرب مدينة روسية إلى المسلمين والحكم فيها مستقر وأرضها كثيرة الخيرات»[5]. ويقول ابن حوقل إن التجارة الروسية كانت تحمل عبر الأراضي الخزرية، وإن التجار المسلمين كانوا يتاجرون مع كويابه (كييف))»[6] يزيد على ذلك ابن خرداذبة مسلك تجار الروس من بلادهم إلى بلاد الاسلام بقوله: «وأما مسلك تجار الروس، وهم جنس من الصقالبة، فإنهم يحملون جلود السنجاب والخز وجلود الثعالب السوداء والسيوف

---

(١) أبو حامد الأندلسي، ص ٨٣.

(٢) L. Krader, Peoples of Central Asia 2nd. Edit, 1966 Indiana Univ Preb. p. 78.

(٣) (Boak) وزملاؤه، ص ٣١٣.

(٤) مقدمة التبصر بالتجارة، للجاحظ.

(٥) حدود العالم، ص ١٨٩.

(٦) ابن حوقل، ص ٣٩٢، ٣٩٧.

من أقصى صقلبة إلى البحر الرومي، فيعشرهم صاحب الروم. وإن ساروا في تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر ويعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون من أي سواحله أحبوا. وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الابل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية»[1].

جاء في كتاب (المروزي) ونقل عنه عوفى في (جوامع الحكايات): «ان الروس تنصروا في شهور سنة ثلاثمائة. إلا أنهم بعد مدة رغبوا في الاسلام وكان ملكهم يلقب بولادمير كما كان ملك الترك يلقب بخاقان وملك البلغار بطلطو. فوجهوا رسلاً إلى حاكم خوارزم فسرّ بهم خوارزمشاه، فأرسل إليهم من علمهم شرائع الاسلام[2]. إلا أن المسعودي يروي حادث حملة روسية بعد سنة ٣٠٠ بمراكب روسية نزلت في بحر الخزر وأغاروا على أطراف هذا البحر فسفكوا الدماء حتى تصدى لهم المسلمون وقتلوا منهم عدداً كبيراً ونجا الباقون بأنفسهم[3].

ويشير ابن حوقل إلى هجمة روسية على البلغار عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م وكان ابن حوقل آنذاك بجرجان[4] يقول الاستاذ كرتشكوفسكي: إن هذا الحادث يتفق مع حملة اسفياتوسلاف (Sviatoslav) أمير كييف على الخزر عام ٩٦٥ م[5]. ويقول آدم متز ربما كان هذا الحادث السبب في انقطاع الزيارات الودية بين بلادهم وبلاد الاسلام[6].

---

(١) ابن حرداذبة، ص ١٥٤.

(٢) المروزي، ص ٢٣.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٢٠٧/٢.

(٤) ابن حوقل، ص ٣٣٢.

(٥) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي، القسم الأول، ص ٢٠٣.

(٦) آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ٣١٥/٢.

يفهم من الحوليات الروسية العائدة لعام ٩٨٥م أن البلغار كانوا على صلة مع أمير كييف فلادمير. وفي عام ٩٨٦م أرسل البلغار وفداً إلى أمير كييف دعاه إلى الاسلام، يستدل من ذلك مدى التأثيرات الثقافية الآتية من جهة البلغار ومن العالم الاسلامي إلى كييف. يقول البروفسور (Kurat) إن علاقات الروس توطدت مع البيزنطيين لذلك فضلوا قبول الارثوذكسية مذهباً لهم. وفي عام ١٠٠٦م أبرمت بين الروس والبلغار معاهدة ثم تبعتها حروب. أوفد البلغار مهندسي البناء والعمال إلى المدن الروسية. وان كنيسة جميلة في مدينة Darpat) (Yürev كان مهندسها بلغارياً[١].

أخذ الروس يطبقون على البلغار من الجنوب والشمال، وأخذت القراصنة تغير على تجارتهم من جهة الفولغا العليا فتفاقم الخطر المحدق بهم في أواخر القرن الحادي عشر. وفي ١٢٢٠م استولى الأمير الروسي (Knyaz, Yuriy) على مدينة أوشل فكانت قلعة بلغارية منيعة. أما في ١٢٣٠م فقد توقفت الحرب بينهما[٢].

وفي هذه الأثناء سيطر جنكيزخان على أواسط آسيا وذلك في ١٢٢٠ ـ ١٢٢١م وترددت صدى الرعب في أرجاء العالم.

وفي مؤتمر (قورولتاي) عقده المغول عام ١٢٣٥م اتفقوا على إرسال حملة للاستيلاء على غربي الفولغا. وفي ربيع عام ١٢٣٦ تدفق الأمراء المغول على منطقة البلغار، واقتحم القائد المغولي الشهير (سوبوتاي) العاصمة البلغارية[٣]. ثم اكتسح المدن الأخرى قتلاً وتشريداً حتى اضطر البلغار إلى الاستسلام والخضوع، وعندما عاد البلغار إلى الثورة بعد مدة، أمعن المغول في القتل والهدم.

---

(١) (IE مادة بلغار.

(٢) S. 473, Kurat.

(٣) Kafes Oglu, 188.

كذلك هاجم المغول مناطق روسية واحتلوا مدينة (كييف) وكانت مركزاً تجارياً بين الروس وبيزنطية منذ حوالي قرنين. ثم توجهوا نحو غاليسيا ونهبوها حتى جبال كارابات وسقوا خيولهم من مياه نهر بروت[١].

استعادت مدينة بلغار-وكذا مدينة سوار- أهميتها بعد السيطرة المغولية وصكت فيها النقود لدولة (القبيلة الذهبية) حاكمة المنطقة، وكان لإسلام (بركه خان) الحاكم المغولي أثره في توحيد المنطقة[٢].

استمر حكم المغول في روسيا حتى نهاية القرن الخامس عشر عندما تمزقت دولتهم، وتعالى شأن الروس وخطرهم واتخذوا مدينة موسكو قاعدة لهم. وفي عام **١٥٥٢**م وقعت المنطقة تحت سيادة موسكو. أما البقايا من البلغار وفبجق المسلمين الخليطين فقد شكلوا أساس خانية قازان المشهورة[٣].

---

(١) دوسون، تاريخ المغول، ص ٢٢٤، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٣٤.

(٢) Kafes Oglu

(٣) راجع حول خانية قازان:

١ ــ زامباور، معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود ٢ / ٢٧٤.

٢ ــ لينول، تاريخ الدول الاسلامية، ترجمة سليمان أحمد السعيد ٢٠ / ٣٧٤.

٣ ــ مراد الرمزي، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار ١ ــ ٢، اورنبورغ، ١٩٢٨.

٤ ــ علي جلايبر، جامع التواريخ، نشره (Berezin) في ١٨٥٠ في مدينة قازان.

(16) Binder, *The Ideological Revolution in the Middle East*, (Wiley, 1963), pp. 160-165, 168-175).
(17) Richard H. Dekmejian, *Egypt Under Nasir*, (State University of New York Press, 1971), pp. 102-105.
(18) Binder, *The Ideological Revolution*, pp. 200-202, 204, 205, 208-212.
(19) Bluhm, pp. 5, 6, 8, 9; P. H. Partridge, «Politics, Philosophy, Ideology», in Richard Cox (ed.), *Ideology, Politics and Political Theory*, (Wadsworth, 1969), pp. 118-122, 124-127. John Plamenatz, *Ideology*, (Praeger, 1970), pp. 23, 24, 72, 76.
(20) George Sabine and Thomas Thorson, *A History of Political Theory*, Fouth Edition (Dryden, 1973), pp. 605, 702.
(21) Binder, *The Ideological Revolution*..., pp. 127-132.
(22) Ibid, pp. 168, 169.
(23) Dekmejian, pp. 78, 79.
(24) Sabine, pp. 572-576, 578-580, 582, 583, 586, 593.
(25) Quoted in David Minar and Scott Greer, *The Concept of Community*, (Aldine-Atherton, 1969), pp. 191, 192.

Forster : Historical Geography of Arabia.
Philby : The Empty Quarter.
Philby : Arabia of the Wahhabis.
Philby : Arabia Peak and Desert.
M. Nadvi : Geographical History of the Koran.
Encycolopaedia : Bsittanica.
American : Encyclopaedia.
Polgrave : Middle and Eastern Penninsula.
Dotty : Arab Penninsula.
Sanger : The Arabian Ponninsula.
Gruttenden : Fourny of an Excursion to San'a Gapital of Yeman.
Hogarth : Intruduction to the Translation of the Kuran.
Roger : History of the Baby lon and Asauria.

NOTES

(1) Sheldon Wolin, *Politics and Vision*, (little, Brown, 1960), pp. 17-21.
(2) Richard Pfaff, «the Function of Arab Nationalism», *Comparative Politics*, January 1970, p. 158.
(3) In this vein, Leonard Binder's prognosis of the crisis of Arab Nationalism is that: «... The converging processes described by Kohn and Deutsch.. had not yet taken place when the vertical political cleavage between colonial and imperialist became too manifest to be resisted. The search for an Arab nationalist ideology expresses this deficiency. Istead of a Western European type we find... a traditional often religious ideology sustained by a nationalist ontology that has been evolved from the theological...»; from «Ideological Foundations of Egyptian-Arab Nationalism» in David Apter (ed.), *Ideology and Discontent*, (The Free Press, 1960), p. 153.
(4) Ibid, pp. 151, 152.
(5) Binder, among others implicitly adopts this separation. See Ibid, p. 150. However, he inconsistently maintains that the «romantic» side of Nationalism (i.e. identity) is *not* altogether ficticious; Ibid, p. 132.
(6) Eugene Meehan, *Contemporary Political Thought*, (Dorsey, 1967), pp. 3-8, 34-46. See also W. H. Greenleaf's emphasis on normative evalution and ideologism *as* theory, «Theory and the Study of Politics», *(The British Journal of Political Science*, Volume 2, pp. 471-472). Peter Winch, a Wittgensteinian as he is, rejects the Logical Deductive Method for historical explanation and emphasizes the need to understand the language of the historical context to be explained, *The Idea of Social Science* (Humanities, 1971), pp. 133-135.
(7) R. G. Callingwood, «The Idea of History», in Leonard Krimerman (ed.), *The Nature and Scope of Social Science* (Appleton-Century Crofts, Meredith Corporation, 1969), pp. 22-25.
(8) William Dray, «Explaining 'What' in History», in May Brodbeck (ed.), *Readings* in *The Philosophy of Social Sciences*, (Macmillan, 1968), p. 344.
(9) For a more elaborate discussion see Binder, Ibid, pp 151, 152.
(10) William Bluhn, *Ideologies and Attitudes*, (Prentice-Hall, 1974), p. 4.
(11) Willard Mullins, «The Concept of Ideology in Political Science», *American Political Science Review*, June 1972, p. 510.
(12) Q. Skinner, «Some Problems in the Analysis of Political Thought and Action», *Political Theory*, August 1974, p. 191, Clifford Geertz. «Ideology as a Cultural System», in Apter (ed.), Ibid, pp. 64, 72.
(13) Bluhm, Ibid, p. 14.
(13a) Binder, Ibid, pp. 151, 152.
(14) Friedrich, *Man and His Government*, (McGraw Hill, 1963), pp. 142-144. And his «nation-Building?» In Karl Deutsch and William Foltz (ed.), *Nation-Building*, (Atherton, 0966), pp. 27-32.
(15) See Karl Deutsch'es explanation of Friedrich in this regard in Ibid, p. 12.

to ignore; nor is it correct to characterize them as simply examples of the game of power with all of its gambling implications. The underlying forces, the «core meaning», as I may suggest, are those of a national spirit unfolding in history thanks to the dialectical tension between it and the opposing forces. The eventual outcome will be a synthesis... a coherent system.

Aristotle, as opposed to Plato, was more of an «empiricist» than of a «utopianist». His revelations on the growth of a political community can be very useful and valid. He maintained that community is the end of growth, and the end of growth is the natural, and the natural is the *best*. A community is the best because it leads to association in «common perception» of what is just and unjust[25].

What is needed to revive Arab Nationalism theoretically is further and further meditation of its dimensions, both in the abstract and against the mosaique of the apparent contradictions and frustrations. This is a major task no less crucial than «activism» itself, because activism without a theory which interprets the experience as a whole, and puts into relief the «underlying principles», is acting in a vacuum!

should be taken as an outstanding case study to at least test the validity of the theory. The onslaughts of Western Imperialism on the Arab nation as a civilizational entity, and the shocking contradictions involved can be viewed as only appearances of the tension which characterizes a dialectical process leading to a coherent system. Here are some suggestions:

1. The 1948 Tragedy of Palestine was undoubtedly a catalyst in unravelling the latent tendency of Arab Nationalism. In some way it paved the way to the 1952 Egyptian revolution, and later to the flourishing of Arab Nationalism in both its Nasserist and other versions.

2. The renewed attack of Imperialism on the Arab Nationalist Movement on all fronts of: the Algeria War of Independence (1954), the Baghdad Pact (1955), and Suez (1956) imbued the Movement with a new momentum. The 1956 Suez Crisis, for instance, was the landmark in the final transformation of Egyptian Nationalism into Arab Nationalism, given the spontaneous response of Arab masses.

3. The major imperialist expansion of 1967 with all its disastrous effects: military, political, economic, psychological, etc., was also a catalyst in a more unified Arab nation, and a much more structured Palestinian Movement.

4. The death of Nasser in 1970, and Sadat's accession was, one tends to argue, another, and probably the major factor, in endowing Arab Nationalism with coherence and solidity! The vacuum tempted the opposing forces (of Imperialism-Zionism) to escalate their hegemonic scheme. The outcome was the deep frustration which a shocking contrast between a Sadat and a Nasser created, while a straight line of progression in a shameful process of surrender went on. The Camp David climax was necessary for starting the «synthesis». It was hard to conceive of a Syrian-Iraqi unity, after a decade of feuds, had the tension of the contradictions not reached that climax. Even more remote was the possibility of a *unanimous* condemnation of Camp David by the Baghdad Summit.

5. How could Lebanon be rearabized had it not been for the ferocious imperialist-Zionist-reactionary attacks of 1975-1976, and of 1978?.

In sum, what is at hand cannot be sensibily viewed as sheer accidents or even immediate and emotional reaction to challenges too obvious

b) The Dialectical Logic of Arab Nationalism-Some Empirical Manifestations

One can trace some Hegelian roots in the theory of Arab Nationalism especially in Aflaq's writings. Though the latter did not use the «dialectic» by name, Hegel's extensive elaboration and enunciation of this concept is quite useful for a full comprehension of Aflaq's version, and more so for its explanatory power of the present course of history, decisive as it is. Here is an outline of the most relevant points in Hegel:

First, there are «cosmic forces» which reason could discern *behind* the facts of history, and which Hegel considered to be *more real* than particular *facts and events*.

Secondly, the «spirit» of a nation is the mold of the different branches of culture which it creates. And a nation's history is the process by which it realizes and unfolds its unique contribution to human civilization.

Thirdly, Hegel, taking Germany as his example, found *particularism* and *provincialism* to be a national defect of the German nation in the 19th century.

Fourthly, coming to the core of the concept of «dialect», this means:

a) A logic of «dependencies» and relationships in society and history not otherwise discernible.

b) Forces grow into their opposites. Contradiction is the *fruitful* opposition between systems, which leads to an more *inclusive and a more coherent system*.

c) It was the synthesis of *freedom and authority* which could sublimate the outworn forms of feudal particularism *into nationalism*.

Fifthly, the «real is the rational». It is a *permanent* inner core of meaning, the «deep-lying forces» so to speak. Therefore *frustration is the key to great social and spiritual changes*, since its appearance *as* frustration only reflects the tension created by the dialetical process, rather than representing the «real»(24).

The main thrust of the theory is therefore the *«reality»* of the underlying forces which the apparent contradictions and frustrations disguise. The Arab nationalist Movement, probably more than any other,

the line very clearly between the latter and Marxism. We may elaborate on this by pointing out the following:

a) The concept of a «national spirit» with its *civilizational* undertone stands in sharp contrast with the Marxist concept of class struggle. Beside the cultural aspect of the former, its empasis on *distant* history and the ongoing thread, stands at odds with the Marxist concept which by its very logic limits the historic scope to that in which the «struggling classes» emerged *as* classes.

b) It is useful and relevant in this regard to refer to the contrast between Hegelianism, on the one hand, and Marxism on the other. Hegel's concept of «national spirit» is fairly close to Arab Nationalism's emphasis on «spirit». Despite the attempts to relate Marxism to Hegelianism, the contrast between the two in this regard should not be overlooked. While Marx and Engels maintained that ideas are *not* reality but simply «pictures of reality», (the «real» according to them are the *forces of production*); Hegel emphatically maintains that ideas are both real and forces of themselves(20).

c) Arab Nationalism took also an independent theoretical *and* structural stance with regard to Pan-Islamism. Whatever the validity of the thesis that Islam is its historic source(21), both Nasserism and Ba'athism emphasized that Arabism is the «independent variable» in the equation. The Arab nation, according to Aflaq, preceded Islam. Islam acted only as a *revolutionary force*. Thus while Arabism does not exclude Islam, it is not conditioned by it(22). Nasserism, as well, emerged from an «ideological environment» in Egypt, whereby two ideological political systems were competing with each other to capture the Egyptian polity; Egyptian Nationalism and Islam. It developed the former into Arab Nationalism. And while not excluding the latter, subordinated it to Arabism. Furthermore, Nasserism took the Arab past experience with the Crusades as only a basis for Arab Nationalism; i. e. as a sort of «functional equivalent» to that Arab past. Now it is the Arab Nation, istead of Islam, which is fighting Western Imperialism, and the latter is the equivlent of the Crusades(23).

No wonder that Pan-Islamism was taken by Arab and non-Arab regimes, threatened by the revolutionism of Arab Nationalism, as the guise behind which they have been attempting to defy the Movement.

tendency it is capable of immediate realization in the Arab struggle. Truth is not prescribed by any «a priori» assumptions. Rather, it is taught to the Arab nation through its struggle(16). Nasserism followed almost the same theoretical line of Ba'athism, emphasizing the coexistence of the «romantic» (Arab Nationalism is intrained in the minds and hearts of the Arab nation), *and* the «rational»: the common experience, common enemy and common hardships(17).

The validity of those theoretical assumptions, the genuineness of Arab Nationalism, and its viability, have been demonstrated in three different aspects:(1) A trend of growth; (2) Its latency which challenges reveal; and (3) Its theoretical independence from the competing ideologies Marxism and Pan-Islamism. Here is a word about each:

1. An «airview» of the development of the Arab nationalist movement throughout the past 30 years or so testifies to an unmistakable growing trend. From a fragmented and weak nation on the eye of the Tragedy of Palestine, to an awakened nation by this tragedy and following it, to an increasingly growing nationalist consciousness that could cut across the artificial barriers of states and their traditionalist rulers; to an irreversible and growing pattern of intermeshing of all movements and forces which phenomenally made almost insignificant the artificial state barriers of Lebanon (once an isolated «Robinson Cruso's island» in midst of the ocean of Arabism).

2. The latency of Arab Nationalism is the correct conceptualization of the emergence of the so-called «Arab solidarity» in certain crisis situations. The assumption that Arab Nationalism is no more than an ex-post-facto rationalization or legitimation of certain events (e.g. the 1955 Baghadad Pact, and the 1956 Suez crises)(18) is invalid both empirically and theoretically: *empirically* given the abovementioned trend of growth; and *theoretically*, since any ideology can be latent and so ingrained in the hearts and minds of the infrastructure that it can be brought to the level of consciousness only if a challenge faces it(19).

3. Finally, the theoretical independence and empirical viability in the face of its two main competing ideologies (Maxism and Pan-Islamism), present another evidence of its genuineness. The emphasis on «spirit» and *its*, rather than economic interests, control over events, in Ba'athism draws

III . PRAMEWORK FOR THEORETICAL REVIVAL

THE following discussion is *neither*:

a) A reiteration, as such, of the different norms or Arab Nationalism as found in the different writings and documents of both Nasserism and Ba'athism.

b) A blueprint for the strategies and tactics necessary to implement those norms. Rather, it is an attempt at rediscovering the theoretical worth of the doctrime, its explanatory power, and its potentialities.

For this purpose two main topics should be discussed:

a) The Genuineness of Arab Nationalism.
b) The Dialectical Logic of Arab Nationalism, and some of its Empirical Manifestations.

a) The Genuineness of Arab Nationalism

Despite the diversity of versions of Nationalism, the consensus is that Nationalism stands on two major pillars: what is commonly labelled «romantic», and this deals with the question of identity, and the other is the «rational» which is concerned with «necessity»[13]. The former relates the individual to the national community spiritually, culturally and historically. The latter faces the problem of the «objective» constraints on and resources for the growth of a national community. Both are indispensable. And once they exist, a mold and interaction of the organic (needs), the purposive (rational), the existential (pure values and beliefs), the willed (power and organization) *and* emotional attachment, put the process of growth of the political community on an irreversible track[14]. A nation's beliefs and cultural heritage, in Friedrich's term «internal legitimacy», is destined to survive, and will inevitably cross the boundaries of state-legal structures[15].

Both Nasserism and Ba'athism agreed on the existence of both requisites in the case of Arab Nationalism. Arabism, according to Aflaq, is a spirit, history, culture, language and common interest. In other words it is the nation which created the value with all its consequences: universal validity, claim to be recognized by others, activism (revolutionary action) and ideological commitment. Far from being an abstract theory, Arab Nationalism, according to Aflaq is the creature of an experience of one nation in the past. It is a *tendency* which *give rise to theory*. And as a

condition, especially its prospects for the future, to a program of collective action for: the maintenance, alteration, or transformation of society»[11].

2. Ideology is an explication of meaning in both terms of expressing the revolutionary reaction to the loss of meaning, and the *community's identity*. Hence ideology's function of «objectifying» the community's mood and its social forces, while presenting a vision of public purpose. Ideology, in this sense, is the «plan» which puts the «materials» of the environment together in a purposeful structure[12].

3. Ideology, as Hannah Arendt puts it, is a speech act for conceptualizing *truth* and causing social and political changes[13].

THE impact of those two developments in Political Theory on Nationalism is certainly great in several respects:

a) It helps integrate the «romantic» with the «rational» in Nationalism.

b) Further maturation of nationalist thought, especially in terms of systematizing it and relating it to «truth».

c) Enriching the nationalist foreign policies with an ideological import which is both rational and imaginative.

d) Creating a *solid* mass base for the nationalist movement, with full consciousness and mobilization.

The problems of the Arab Nationalist Movement, as outlined in the first section of this paper are more of *communication* problems than being strictly theoretical ones. The basic tenets of this ideology, as explicated by both Ba'athism and Nasserism, are sound and insightful. However, a certain communication gap between the theorists, on the one hand, and the «practitioning rulers» and the masses, on the other, caused a lag of theory behind action. This is mainly attributable to the failure of the theorists, in emphasizing the *theoretical* nature or the ideology, along the preceding lines, and inputting into relief its *increasing* fruitfulness in interpreting the events.

The following and concluding section of this paper provides tentative guidelines for such a theoretical revival.

a) Vision and the Theory of Historical Explanation

Both Collingwood and William Dray's philosophy of history empasized the predominance of «concepts», «ideas» and the historian's vision, over the crude «facts», as the «what» in historical analysis and explanation.

Collingwood maintained that historical explanation is reliving the past by the historian, since here it is understanding the *inside* of the event. The historian's conception of history and his rationality determine the historical facts themselves.

The explanation of «what» in history, according to William Dray, should not be conducted under a «covering law» but under a *concept comprising some characteristics realized in a group of events like a revolution*[8].

The predominance of the ideational, in explaining Reality, over the positivist interpretation of facts, as this line of thought goes, is enough to at least question the validity of juxtaposing the «romantic» with the «rational» in Nationalism[9]. As a system of ideas, Nationalism is a *conception* of history, in both its past and present *as a whole*... the so called «pragmatic necessity» is inseparable from the historical agent's thought since it is *determined*, in some way, by this thought... and it is determined since the «what» is a *concept*.

b) The Theoretical Element in Ideology

The same logic which underlies the conceptual understanding of facts, stands behind the new and growing trend of acknowledging the theoretical nature of ideology. Ideology is no more entirely within the realm of «emotionalism», «subjectivism», «utopianism», «myths», and similar labels which denote viewing it simply as ficticious. Here, as in the area of historical explanation, the emphasis is on the meaning of theory as conceptualizing the «facts», as opposed to causal explanation under a «covering law». This trend is manifested in the following theses:

1. The normative element of ideology is based on and conditioned by certain assumptions about the «reality», the cause-effect relationships between «facts», and an assessment of Man's nature and place in the world[10]. It is, according to Mullins, «... a logically coherent system of [speech acts] which, within a more or less sophisticated conception of history, *links the cognitive and evaluative* perception of one's social

the sciences of Man!, whereby the *meaning* of theory is limited to the causal explanation of the logico-deductive model. These and other tendencies had expectedly their impact on the «legitimacy» of normative evaluation (including ideologism) *as* theory. Theory, it was argued, is only that which *explains*. The meaning of explanation is confined to causal relationships between phenomena. And «phenomena» are only those which are obtained by sensory observation, and are quantifiable. Hence the exclusion of normative evaluation and ideologism from the realm of «science». Ideology is separated from ontology(5). Ideology, as the Sorelian argument goes, is only a myth... but a «functional myth»! And so forth.

As expected, this mode, or rather mood of thinking was short-lived. Ironically, the meaninglessness and nothingness of the «facts», with which Reality was identified, was the major basis of questioning the «legitimacy» of that method. The explanation of meaning is gradually reemerging as at least a credible «competitor» with positivist explanation. Both normative evaluation and ideologism have been «rehabilitated» as «equal citizens» with quantitative methodology, in the «Kingdom of Science» from which they were once excluded! So much the better, and the change can be discerned in the recent writings of positivists. Meehan, for one, emphasizes the importance of:

a) The inseparability of Political Theory and Political Philosophy;

b) The inseparability of theory building and «normative criticism», and evaluation;

c) That the meaning of «facts», the object of explanation, depends upon the principles of ideology. And;

d) Accordingly, the inseparability of *justification* from Political Theory(6)

This «reintegration» process, is being manifested in two strands which are most pertinent to our present discussion:

a) Basing the theory of historical explanation on the historian's vision. And;

b) Acknowledging to ideology as a cognitive-empirical element, beside its evaluative-normative function. A brief word about each can be fruitfull in a renewed understanding of Arab Nationalism.

In his meticulous study of Arab Nationalism, but in a different context, Leonard Binder draws an interesting dichotomy of two schools of thought of Nationalism in general. We may borrow only the *structure* of this dichotomy, for our present context. The dichotomy is between Kohn, who maintains that Nationalism is the philosophization of politics, and Benda who on the contrary argues that Nationalism is the *politicization* of philosphy(4)

The preceding problems and constraints are tantamount to *dephilosophizing* Arab Nationalism. Being in itself a philosophical doctrine, or at least an ideological system, dephilosophizing it is logically depriving it of this vital element. And this happened by the overpoliticization of the Movement. The conceptual problems together with the different structural stresses, discussed earlier, have deprived it of *vision* and reduced it to the level of the very immediate and concrete; drawing it closer than ever to the realm of «conflictual politics» with all its spoils and impediments.

The challenge, enormous as it is, makes the theorist's vocation a major one. Far from being Plato's «King-Philosopher», the endeavor is one of an honest and serious coordination between the theorist and the «practitioner». Mao's method of maintaining a dialectical and existential relationship between theory and practice is a case in point.

But if this is how central the role of theory is, what is *meant* by theory?

II. THE MEANING OF THEORY

THROUGHOUT this century the sciences of Man (social sciences, philosphy, and others) have been faced with a great challenge which amounted to a *threat* to their very legitimacy and existence as sciences of *Man*: the threat of Positivism-Behavioralism. Without going into the particularities of the debates which this challenge invoked, (and which go far beyond the requirements of our present discussion); suffice it to outline very briefly the concerns which are most significant to this topic. It is safe to label the problem created by this challenge as one of *excessive compartmentalization* (or atomization) of the issues under study. The sharp isolation of «facts» from values. Reducing the realm of science to only what is obtained by sensory observation; hence the rigid and unfortunate «transplantation» of physical science methodology, as *the* methodology, to

Thirdly, no less a cause of concern, and at once a cause of this «conceptual crisis» is the *detheorization* of Arab Nationalism, by reducing it to a «myth»; a «Sorelian myth», or just a moral force which only «gives impetus to political action, without predicting its survival on the success of that action»(2). The deceptive appearance of «Arab solidarity» which emergences in crisis time and fades away soon after, *is* the argument.

Fourthly, this conceptual crisis can be attributed to the structural stresses on a grand theory like Arab Nationalism. It is not unusual that in the early stages of conceptualizing and theorizing, the feuds within the community of legitimists, between the latter and the political leadership, or within the ranks of leadership which assume the responsibility of implementation, may very well overshadow the purity and glare of theory, distract the attention from its adequate propagation and implementation, or even creates a discrepancy between theory and practice.

Moreover, such structural stresses may be partly due to the lack of full commitment on the part of few elements in the movement, (and these will be naturally exposed and excluded), and partly to the lack of mature and full comprehension of the theory at its early stages. At later stages, with meditation and the lessons of experience, maturation comprehension will be enhanced(3). The present conceptual crisis can in some way be attributed to this group of factors. Hence the crucial task of *intensive* theorization and socialization. Those structural stresses and contradictions can be attenuated, to say the least, if a considerable degree of mature ideological awareness and commitment prevails.

The tension between structures and ideas occurred both inwardly and outwardly. Beside working inwardly; (i.e. within the Arab Nationalist Movement.), its outward aspect has been the counterrevolutionary forces, commonly labelled as Arab Reactionism. Its structural attack on the Movement (conspiracies and wars) had to have some kind of an «ideological arm» to face up to the logic of Arab Nationalism. This took the form of conceptual distortions, not least dangerous of which is, (another manifestation of Reductionism), the «reductionist style»: the civilizational struggle is reduced to a «territorial dispute», «peace» is equated with adjustment to the «accomplished facts»; economic development is reduced to the «open-bridge-policy», and the list goes on!

I. THE NEED FOR THEORETICAL REVIVAL

It is the Arab Man, from whatever walk of life he comes (ruler, ruled, etc.), and under whatever Arab regime or movement he lives and works, it is the Arab Man as such who should be the subject of our concern in this context. The problem, crucial as it is, is the problem of his *perception* of the myraid of contradictions, tragedies, corruption, surrender, as they *appear*... A fragmented perception, ungoverned by theory. Hence his cynicism and a serious decline of commitment and action. To direct the analysis, however sophisticated it may be, to the problems of here and now while ignoring that serious problem is tantamount to putting the cart before the horse!

At this point of history, the Arab Man is walking on a tight rope. His soul-searching endeavor can very well throw him into the abyss of despair and decline if not reinforced by a *revived* theoretical frame of reference. This alone gives meaning to the apparent chaos which distorts his perception. And here comes the *sublimating* task of political philosphy: reordering that chaos, and thus, as Sheldon Wolin puts it: «[forming] all into one graceful intelligent whole»(1).

This dire need for a revived theory is manifested in a conceptual crisis xhose main characteristic is «Reductionism», as the following facets can show:

First, and foremost, the Arab Man's *level of analysis* is presently and unfortunately limited to the here-and-now kind of issues. Confusing and meaningless, as their appearances are, his concern is short-lived in duration, and a source of further cynicism in impact.

Secondly, his *unit* of analysis is anything but the transcendental goals of a great nation at the crossroads. It may be as simplistic as the idiosyncratic focusing on this or that leader's character and activities. Its highest point on the ladder of abstraction would be the competing strategies at hand. If it ever deals with the apex of that ladder (ultimate goals), it does so only rhetorically, not intelligently, emotionally rather than consciously and comprehensibly. Hence the absence of a relationship of *mutual reinforcement* between the concern with the abstract goals, on the one hand, and the concern with the concrete strategies and tactics on the other; another bifurcation which narrows the perspective.

dialectical relationship between theory and practice enriches the former while rationalizing the latter.

But, again, both the actualities of the movement and its theory militate against «stability», as much as «stability» was expected to rise against them. It is remarkable, but no less expected, that the ferocious attacks, on the Movement by its opponents, both in its ideational and structural components; by action and conceptual distortion especially since the mid 1960's down to our very present time touched on the «nerve center» of the Movement. The multidimensionality, articulateness and complexities of the attack, succeeded, though temporarily, in diverting the Arab nation from the abstract to the concrete, from a consistent, intensive and upward movement, to a fragmented one, from the experience as a «whole» to the very tiny and immediate particulars. Not unintended by the launchers of such an attack, the line of thinking and of action came to be reduced to disparate instances here and there (Lebanon, Egypt, Syria, etc.). This in itself resulted in the following undesirable outcomes:

a) Deemphasizing Arab Nationalism as a *comprehensive* theory which explains the «underlying principles of the events, i. e. the ongoing thread which permeates, as much as it provides prescriptions for action based on that explanation. Hence.

b) The confusion, disenchantment and cynicism which the Arab Man found himself in. Theory has lagged far behind the pace of history. And since theory is the only source of meaning for what appears to be mere «nothingness», the theoretical stagnation led to a psychological depression, which is obviously a dangerous problem in this kind of struggle.

The purpose of this paper is to discuss this problem in three respects:

I. The Need for Theoretical Revival.

II. The Meaning of theory.

III. Framework for a Theoretical Revival.

ARAB NATIONALISM: TOWARD THEORETICAL REVIVAL(*)

by

Samir R. Boutros

Wayne State University

Even more than the other areas of political theorization, theorizing about nationalist novements is predominantly dialectical. The complexities involved, the rapid pace of historic developments, the international dimensions in this age of interdependence, all endow it with this nature. It is a process, and a «sui generis» process since by its very logic it theorizes about a revolutionary movement, and as such militates against the conventional standards of both thought and action. The rapid pace of developments in the movement has to be coped with by adequate theory... a theory which both gives meaning to such developments, and prescribes guidelines for action.

Like any nationalist movement Arab Nationalism was only stimulated by the challenges of the past half century or so. Theorization about it started to be structured in the 1940's, with the emergence of Ba'athism. The 1948 tragedy of Palestine imbued the theory with its major empirical import. Then came Nasserism to enrich the movement with a highly significant mold of theory, and an extensive scope of practice, all backed and strengthened by charisma. From a close look at Ba'athism and Nasserism, one can discern that in principle each was complementary to the other inasmuch as the

(★) This is based on a paper presented at the National Convention of the Association of Arab American University Graduates, Minneapolis, October 27-29, 1978.

And when this dissociation occurs and man, having discarded the ethical content which goes to make him man, embarks upon the hazardous journey of toppling his own self from the station to which he is destined, the line of demarcation separating him from the other animate beings, will have been obliterated. Man gradually became irresponsive and at times contemptuous of those who gave the clarion call for freedom and fought for it. And so this dichotomy of the free and the non-free, the have and not have its occurrence and man bevame the arch-enemy of his fellow-men.

And today the whole world is in grip of this dissension. The rich countries are apparently thriving, but the muted voice of depravity is still persisting with its pathetic notes, as they are all the time, whether by economic means or outright instigation, still after the smaller nations.

It was against this shameful life that 'Umar al-Mukhtar had raised his banner of revolt and raised the battle-cry of freedom.

now resided with Sayyid Idris who was in exile in Egypt. And Sayyid Idris was vacillating and weak.

The trouble with the Sanusiya chiefs was that they had escaped to Egypt, where certain conditions were imposed upon them rather then form a nexus of resistance at home. And it is here that Sidi 'Umar al-Mukhtar shines.

Those fortunate ones who have peeped who each facet, nook, and corner of the life of 'Umar al-Mukhtar and have essayed his action in the light of the highest possible ethical norms, would logically arrive at the conclusion that the soul of 'Umar al-Mukhtar harboured in a heart that was not a merely physical «heart» but a heart that led to the growth of the soul, and served as the centre of that growth, in conformity to what the Holy Prophet said about the relationship of man to the heart. The mind would be such that it would be able to size up the greatness of man and to realize its potentialities.

Were this fusion of the sublimity of the soul, the pathos and sympathy of the heart, and the exaltation of the mind not brought into being, we could also say that 'Umar al-Mukhtar would not have been brought into this world. Nature is bounteous and creation is a great Artificer. Yet for a great personality to be produced there has to be a synthesis of the temperament with the disposition with every care. 'Umar al-Mukhtar was indeed extremely fortunate in this. The tract of land where he had had his birth was marked for tragedy, and it was here that 'Umar al-Mukhtar with his innate capabilities and dedication opened his eyes.

Man is born free. Each particle of the earth is free. Man's high station comes from freedom-freedom from which he cannot be deprived. And yet man having shackled his own nature and spurned the exalted station divinely endowed to him has furnished for himself all the concomitants that would go to make him a slave. God has said that he has dreated man from the most excellent origin, and yet he sometimes drags himself into the mire of degradation and depravity. And so man, having spread dissension everywhere on earth, has trampled underfoot his own greatness and brought his own exaltation down to the earth. This phenomenon is naturally to follow when man has refused to perch himself upon the exalted station marked for him and has neglected his great potentialities and entelechy.

which Sidi 'Umar's followers had nicknamed «The Army of Flour», chiding them for selling themselves for rations. Fighting therefore erupted again in November 1929 and on 8 January 1930 Sayyid al-Hasan's followers, who were kept under supervision, put up resistance to the Italian attempt to disarm them. Eighty of them were killed, while another 100, including Sayyid al-Hasan al-Rida, surrendered. On 18th January, ten days later, Sidi 'Umar's own force was defeated on the Wadi Mahajja, he himself having been severely wounded and barely escaping with his own life.

Unfortunately Italian diplomacy also made a headway in the meantime. By March 1927 the Italian line was advanced from Qaminis-Taibimun-Suluq-al-Shlaidina to Ajadabiya-Sawun-nu-Msuo. The Sanusi Sheikh, Shaykh Sharif al-Ghariyani, acted trecherously, with the result that Teruzi was able to arrange a meeting in June 1927 in the *barqa al-baida* with a number of tribal Sheikhs and to persuade thirteen Sheikhs belonging to the Magharba Shammakh to submit. The Italians attained a major objective by the pacification of the Magharba near Ajadabiya, as this opened the gateway to the subjugation of the Sirtica. Al-Qatafiya was occupied in September and al-'Aqaila a few days later, in 1927. Sayyid Saddiq al-Rida gathered a small force to the south of the Wadi al-Farigh in order to standh the Italian advance but neither he nor his father were brave enough and both vacillated between fight and submission. Saddiq al-Rida evtered into correspondence with the Italians, and the father left the encampment near Jalu oasis and surrendered himself to them at Ajadabiya in early 1928 when he learned they intended to strike to the south.

'Umar al-Mukhtar put up a very brave fight against the invaders. Graziani had closed on them from both the plateau and the steppe country to the south. «All the earths were stopped. The view-halloo was given wherever they broke. Flight to Egypt alone could save them, and this they would not take». Fadil bin 'Umar was killed in an encounter in the middle of September 1930 and on 13th September Sidi 'Umar al-Mukhtar himself was wounded near Sidi Rafa's tomb, pinned down by his own horse and captured. He was transported to Suluq where on 16th September, still suffering from wounds, he was hanged in the presence of 20,000 Bedouin and the urban notables of Cyrenaica, who had been brought there from confinement to be the spectators to his end. Of his three lieutenants, only 'Abd al-Hamid al-'Abbas succeeded in escaping to Egypt. The only hope

a fire that was sweeping over the whole of the colony, and it was like a blaze that had a deluding appearance. Teruzi says:

> Thus, against 200, 500, 1,000, 2,000 rebels, dressed in picturesque rags and badly armed, often 5,000 or 10,000 of our soldiers are not sufficient, because the rebels are not tied down to anything, are not bound to any impediment, have nothing to defend or to protect, and can show themselves today in one place, tomorrow km. Away, and the following day 100 km. Away, to reappear a week later, to vanish for a month, to disperse to fire from afar on an unarmed shepherd, on a patrol of inspection, or on a column which files along the edge of a wood, or at the foot of a hill.

The result was that the authority of the Italians ceased beyond the towns and military outposts. At the end of 1928 the two colonies were placed under the single direction of Badoglio and in early 1929 Teruzi was replaced by Siciliani with the rank of Vice-Governor. As soon as he took over Badoglio, with a flamboyant proclamation, offered the Arabs the choice between unconditional surrender and extermination. If the intention was really the end of the war, the tone did not soell it, although Italian chroniclers of the war assume that it influenced Sidi 'Umar in making an approach to the Italians in June 1929. This overture was effected jointly with the celebrated guerilla leader, Sidi Fadil bin 'Umar and Sayyid al-Hasan al-Rida, who was a boy belonging to the Sanusi family and who accompained the guerilla forces in the plateau. A truce was agreed to by both sides and continued for five month, while negotiations for peace dragged on. There is reason to believe in the Arab version that Sidi 'Umar would not sign the peace terms unless they were witnessed by observers from Egypt and Tunisia and finally agreed to by Sayyid Idris. The Italians held that Sidi 'Umar al-Mukhtar was, in effect, claiming to be the representative of the head of a sovereign State, and the negotiations broke down. But the Italian had acted tendentiously, and prevailed upon Sayyid al-Hasan al-Rida to sign an agreement in their favour and to his own personal advantage, at Benghazi. This agreement was, as expected, repudiated by Sidi 'Umar. Following this repudiation, Sayyid al-Hasan deserted him. He was followed in this by most of the Bara'asa-Darsa band&

custom dues in connection with the supplies made to the civilian population. He also kept up liaison with Sayyid Idris and Sanusi elements and sympathisers in Egypt.

E. E. Evans-Pritchard writes in *The Sanusi of Cyrenaica*:

> The guerilla bands were in constant with the enemy. One of the most striking features of the campaign was the frequency of the fighting. At some point or other on the plateau a skirmish or larger enagement took place every few days for nearly nine years during the spring and summer months. Its frequency may be judged by Gen. Graziani's statement that in the final year of the war, when resistance compared with earlier years, was feeble and sporadic, there took place 53 engagements (combattimenti) and 210 skirmishes (conflitti).
>
> This incessant fighting cannot... be described in the language of text-book logistics in terms of manouvering, objectives, and battles. Indeed, the Italians had to adapt themselves to the kind of fighting which seldom fails to upset the orthodox military mind. Text-book strategy does not apply to an enemy who wanders at will over a country with which he is familiar from birth, among a friendly people ready to provide him with exact intelligence, and in small mobile bands; and whose strategy is little more than the guerilla imperatives-strike suddenly, strike incessantly, strike hard, get out quick. An enemy can only be manoeuvred to inflict defeats on the enemy and to destroy his decisive engagements. The Italians were fighting a people, not an army, and a people can only be defeated by total imprisonment or extermination (pp. 170-71).

Atillio Teruzi, one of the governors of Cyrenaica during the campaign, writes in *Cirenaica Verde*, (1931, pp. 338-9) that the Italian superiority in men and material was a mere illusion because the fight that was being waged was not being directed against an organized enemy who put up resistance, but against an enemy who had no consistency of form. He further maintained that it was equally an illusion to mount a campaign and seize the initiative, for the Italians had to be on the defensive. The rebellion was like

fighting waged by small bands of enthusiasts, succoured by the goodwill of the whole population. The bands suffered very heavey casualties, but were re-inforced by a constant stream of adventurous spirits who hailed from sections that had submitted and had not. Each band was christened after a tribe and its members were chiefly recruited from that particular tribe. They fenerally fought in their own territory, but they were not entirely recruited from it and might have had to fight egsewhere. Each tribal band there were a good number of volunteers from other tribes and a sprinkling of *Ikhwan*, Sudanese and Tripolitanians. The 'Awaqir and Maghraba maintained separate bands, while the other tribal bands usually fought in pairs, such as Hasa-'Abaidat Bara'asa-Darsa, and 'Abid-'Arafa. A Misaratan contingent formed a small band of its own and greatly distinguished itself in fighting. Each band was simply organized. It comprised a commander, a *qainuqam* for civil affairs, and a number of officers, some of them Turkish trained. Sidi 'Umar maintained discipline in the bands, and acts of pillage and robbery and vendetta came in for severe punishment. Those guerillas as possessed hores rode them, while the rest went on foot. Each band had its own Sanusi flag.

When things were qyiet, the members of the bands would keep their families and cattle and live in their own tents. When, however, their presence was demanded in the war, they left their families and accoutrements in the tents of the submitted populations and the only combatants would then be a few female cooks. Before the end of the war many of the patriots, including Sidi 'Umar had sent their families to Egypt in order to allow them more freedom of action.

All the grerilla bands were centrally administered and this administration came directly under Sidi 'Umar. The various bands maintained an intercommunication and worked out and followed a common strategy. In order to finance guerilla warfare, collections had to be made. And these were collected in the form of a title. throughout the course of war Sidi 'Umar's men were taking this from the submitted population, although not without trouble, and receipts were issued therfore. The tithe paid by rach band was spent upon the expenditure incurred for equipping the band from that particular tribe. Sidi 'Umar in effect, was the supreme field commander. He had to supervise the distribution of supplies brought by caravans from Egypt for distribution to the armed forces and the payment of

expected a higher standard of conduct than that which some members of the family lived up to, but they did not suppose that they would distinguish themselves as military leaders. They knew that the descendants of the Grand Sanusi had been brought up in the oases to lead a sedentary and scholarly life and not in the hard way of the Bedouin children. Therefore, the Bedouin thought that the Sanusi were unsuited to the exacting life of the guerillas. But there were some members of the Sanusiya who belied these suppositions and who pursued war in addition to holiness and learning. In them the qualities of *marabat* (holy man) and of *mujahid* (fighter for the faith) coalesced. Two such names are those of Sayyid Ahmad al-Sharif and Sidi 'Umar al-Mukhtar.

Just as the resistance against the French in Morocco and Algeria is associated with the names of Abdal al-Karim and Abd al-Qadir, the history of the Cyrenaican resistance towards the Italian advance is typified by Sidi 'Umar al-Mukhtar whom Rodolfo Graziani, in *Cirenaica Pacificata* (Milan, 1932) called «our irreducible enemy, the faithful and able servant of Idris, the heart and soul of the Cyrenaican rebellion. He was, in fact, a Sanusi who combined within himself the characteristics of the Bedouin. He was born *circa*, 1862 of the Ailat Farhan of the Braidan section of the Minifa tribe of the Marmarica. He was educated first at the Sanusiya school at Janzur and later at Jaghbub. Nominated by Sayyid Ahmad al-Sharif, Sheikh of a Qasur lodge among the stubborn Alid tribe, he performed his duties for a period of gwo years before being summoned to Kufra to serve against the French in the Wadai. Returning to al-Qasur about 1906, he gook a prominent part in the first Italo-Sanusi war, and in stanching the advance of the Italians during the years of the Accord. In 1923, when he was called upon to lead the resistance against the Italians, he was already over 60 years of age. Evans-Pritchard calls him a simple man, religious, courageous, contemptuous of wordly honours and success, and with singular tenacity and powers of physical endurance».

The position that Sidi commanded was that of *al-Naib al-Anam*, the Representative General (of the Sanusiya). Each Bedouin tribe maintained its own guerilla band, comprising 100-300 men. The guerillas never exceeded the number of 600-700. Only a small number could maintain the mobility so essential to the guerilla warfare. As in all such wars of resistance, the success or failure of the resistance depended upon the

Italian Sanusi War (1923-32), resulting in the total destruction of the Sanusiya as an organization, political, economic, and religious. Nevertheless, the Order symbolized resistance and the Head of the Order, while in exile in Egypt, still wrung allegiance from the Bedouin who saw in his freedom the hope of their own.

Thus in many ways the Sanusi Order reflected the weakness of the social system. Like the Church of the Medieval times, it retarded rather than helped accelerate progress. It also did not usher the Libya of its times into the modern age, as tribalism and industrialization do not go together. Further, a seignorial system operating in a tribal organization is hardly conductive to the emergence of a middle class. Again, obviously the Italians also realized that Libya was no «Eden», and, as stated by Ambrosini in *I problemi del Mediterraneo*, (1937) (The Problem of the Mediterranean), they occupied it with the exedient of being able to breathe freely in the Mediterranean «to avoid being stifled amidst the possessions and naval bases of France and Britain».

The Italians found the sparse population of Libya to their advantage, concentrated even though that population was on the Mediterranean coast, and the tribal system rather favoured their penetration into Libya.

Compounded with all this was also the ambivalent attitude of the Sanusiya Order towards the Ottoman Caliphate. This resulted in the cleavage of the Order between two individuals. One group, the *Tariqa al-Sanusiya* still followed the Ottoman Sultanate, although without any territorial attachments, while in the person of Sayyid Idris it concentrated on the development of an Arab Emirate of Cyrenaica.

Sayyid Ahmad saw the Saharan provinces of the Sanusiya Empire fall one by one into the French hands and by 1918 all that it possessed was the isolated oasis of Kufra. Further, by his impetuous and foolhardy attack upon the British, he had brought about the destruction of the lodges of the Order and of its political influence in the Western Desert of Egypt.

By and large, therefore, especially during the Second Italo-Sanusi War, the Sanusi family's role was, on the whole, not very enviable. Italian chroniclers of the War, however, express their surprise that the Sanusi leadership, wrung allegiance from the Bedouin, especially when it lacked in the characteristics he so much admires. The Bedouin might indeed have

My study of 'Umar al-Mukhtar convinces me that men with a character like his are not born unless they are equipped with similar qualities of an indomitable body and soul.

It needs the temperament of an 'Umar al-Mukhtar to stand up boldly to face the Italian General Graziani and proclaim; «I shall not cease to fight against thee and thy people until either you leave my country or I leave my life. And I swear to thee by Him who knows what is in men's hearts that if my hands were not bound this very moment, I would fight thee with bare hands, old and broken as I am...» The account of the struggle for independence by 'Umar al-Mukhtar as given briefly in this paper, is therefore to be seen in this light.

The Sanusiya Order symbolized the Bedouin's resistance against the Italians, as when the Italians invaded Libya, and the Turks concluded peace, the Bedouin tribes of Libya continued their resistance against the Italian invasion in the name of the Sanusiya Order. «In their social system, tribe was balanced against tribe and tribal section against tribal section». The Sanusiya Order symbolized resistance which conferred upon the tribes and their sections a common symbol which represented their common interests. Faced, therefore, with smouldering, although virtually ineradicable resistance from the Bedouin, the Italians, logically enough, directed their attack upon the Sanusi Order, which for them, represented the core of resistance. Having failed to crush the opposition, the Italians had perforce to come to terms with it, but could they come to terms with a tribal system? For the Sanusi Order represented, and spoke for, the different tribes. And therefore the Head of the Sanusi Order was converted from *tariqat* (mysticism or religious practice) into *hakumat* (government).

Negotiations for peace, therefore, centered round a contradiction. The Italians, in effect, attempted to exact recognition of sovereignty and this meant recognition of the right of the Head of the Order to surrender his sovereignty. This he could only eggect if he enjoyed a ststus analogous to that of the Head of the Italian State, a ststus that the Italians would not concede. As a way out, therefore, the Italians, in order to establish relations with the tribes, conferred upon the Head of the Order the title of the Amir, and implicitly, recognized him not only as the Sheikh of a religious order but the Head of a political organization. It was this dilemma which, according to E.E. Evans Pritchard, led to much equivocation and finally to a second

hundred years, that would link up the Muslims again with their enviable past and would enable them to march forward with the banner of Islam and fill the world with the light of the Holy Qur'an and Islam.

Even during this period which I have called the period of intellectual and political serfdom and with which the heart of every felling Muslim is familiar, great men have arisen angel-like, to save the candle of Islam from being snuffed out by heretical storms, in the hope that one day it would become a beacon light, infaminating once more the new cycle of Islamic history.

One such great man was Sidi «Umar al-Mukhtar», a scholar, jurist, teacher, and a God-fearing friend of humanity. His personality reveals too many facets to be easily circumscribed. It warranted a seminar or Muslim scholars who would deal with every aspect of the life of «Umar al-Mukhtar and provide food for thought to the present and the coming generations on how he struggled for the intellectual and political freedom of Libya.

I have studied the life of «Umar al-Mukhtar with a view to finding, out his physique and its impact on his intellectual health. I gather that he lived on simple food, and his way of life was moulded by the characteristic simplicity of Islam. As a religious scholar, he knew well the relationship of food to the body and its functions, and to the soul. He used this knowledge to live a well balanced life, despite his poverty.

Umar al-Mukhtar gave as much importance to spiritual advancement as to balanced physical well-being.

He was regular in his prayers, and there is little doubt that he also offered the *tahajjud*. The balance between his physical development and spiritual advancement gave keenness to his powers of judgment and vitality to his constructive ability. A study of his life leads us to the conclusion that he was a dedicated and unflinching soldier of Islam. It was his devotion to Islam and his indomitable courage with which he led a small band of guerillas equipped with nothing more than knives and swords, to come to grips with a great power like Italy, and he continued his battle for independence for at least fifteen long years. It was Islam which raised him to the moral stature from where he could look down upon many an offer from Italy. Nothing could make him barter away independence of Libya.

a role that made history$ They have given a new direction to human thought and have enshrined historical events in their works for the benefit of generations to come. Yet we should admit to our own advantage that the last htree centuries at least have witnessed a discontinuity of the historical process in the Islamic world. It would be appropriate to remark that the Islamic world has cut itself completely away from its past and entered the dazzling Western world which holds out for it a variety of interests, so much so that the past looks unattractive and there has been an escape from the bonds that have held the Muslim community together through centuries, and from the arts and sciences, culture and civilization that formed a glorious part of the Islamix heritage.

For the Islamic World, this recent past has been rather trying. The West made one believe that the period from the 9th to the 14th century was one of darkness, but the fact remains that this very period has been a very bright one considering the remarkable achievements of the Muslims in the various branches of knowledge. It was during this period, as it is now being acknowledged, that the Muslims enlightened the West with their knowledge and laid down the foundation for the grand edifice of modern Western science and technology. In contrast, these past two centuries cannot be said to have been illuminating for the Muslims, for the Western countries, building up quietly with material borrowed from the Islamic heritage, convinced the Muslims of their own superiority to check them from going ahead in their intellectual endeavours until the impact of all this activity was such that they began decrying their own culture and civilization, abandoning their own wealth of knowledge and wisdom accumulated in the course of the centuries, and plunged headlong into Western values. Their education was completely westernised, separating them from their tradition, in fact from the very centre of Islam.

It is however ressuring to see today that the Arab World, in fact the entire Islamic world, is getting rid of the shackles of intellectual and political serfdom and a new awakening is promising absolute freedom of thought and action. The countries or Africa and Asia have wrenched themselves free from slavery and have taken the realistic decision to be self-sufficient, a decision which is bound to bear fruit by the will of Merciful God. It is time that the Islamic leadership should, on the advent of the 15th century Hijra, chalk out a plan, keeping in full view the lessons of the last fourteen

UMAR AL-MUKHTAR: PATHOLOGY OF LEADERSHIP

by
Hakim Mohammed Said

President
(Hamdard National Foundation, Pakistan)

It is my most pleasent duty to thank the Association of Arab Historians, and the Government of Libya, for having afforded me the opportunity to participate in this International Seminar which is being held to pay homage to an outstanding figure in the Islamic World, «Umar al-Mukhtar», whose life was a ceaseless struggle for the freedom of his homeland. I consider myself very fortunate indeed to find myself in the midst of eminent personalities from the Muslim world whose company brings vitality to thought and whose guidance is capable of solving complicated problems facing the world of Islam.

I must congratulate the dynamic and dedicated President of the Association of Arab Historians, Dr. Husain Amin, for giving attention to an aspect of the history of Islam the importance and relevance of which to the present times are all too obvious. The services rendered by great men from the world of Islam for the glory of their faith and the faithful& for the triumph of humanity at large and for liberating thought and constructive forces form a significant part of history. The need for highlighting this aspect to give a proper orientation to the new generation cannot be over-emphasized.

It is an established fact that the foundation of historiography was laid down by the Muslims. They were the pioneers of this branch of knowledge. I hold this view in the lkght of the fact that Muslims themselves have played

CONSULTATIVE BOARD

مجلد

THE ARAB HISTORIAN

A BULLETIN OF HISTORICAL RESEARCH

VOL XXI

1982

EDITOR - IN - CHIEF
Prof. Dr. Hussein Amin

Issued By
THE UNION OF ARAB HISTORIANS
BAGHDAD - IRAQ